

ستندال

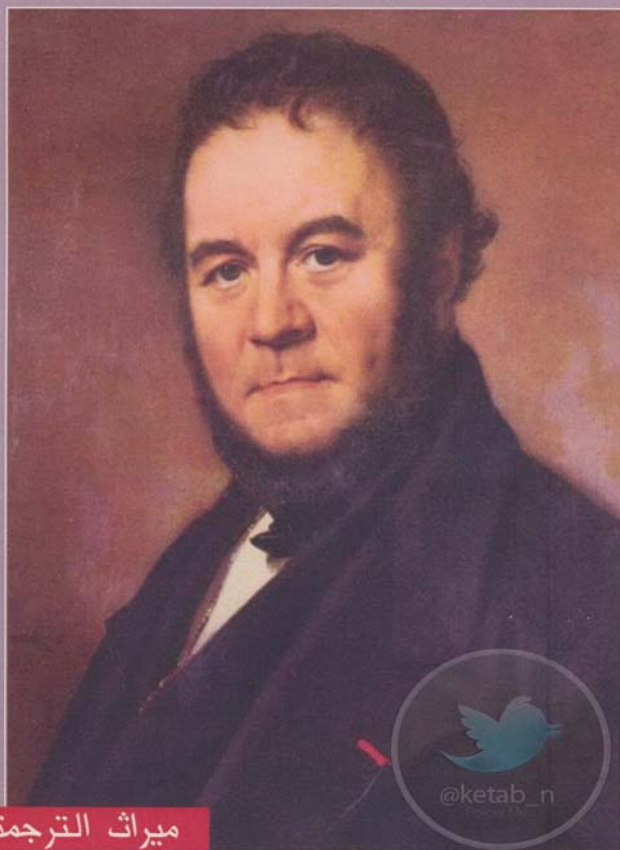
# الأحمر والأسود

(الجزء الأول)

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

مراجعة: إبراهيم مذكور

تقديم: فاطمة خليل



ميراث الترجمة



1720

# الأحمر والأسود (الجزء الأول)

تأليف : ســـــــــــــــــتدال  
ترجمة : عبد الحميد الدواخلي  
مراجعة : إبراهيم مذكور  
تقديم : فاطمة خليل



2013

# الأحمر والأسود

(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة  
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة  
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1720  
- الأحمر والأسود (الجزء الأول)  
- ستندال  
- عبد الحميد الدواخلى  
- إبراهيم مدكور  
- فاطمة خليل  
- 2013

هذه ترجمة كتاب:

Le Rouge et le Noir  
Par: Stendhal

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة  
شارع الجبلية بالأويرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524

Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشئون الفنية

بيل، هنر، ١٧٨٣-١٨٤٢.

ستندال الأحمر والأسود (مج ١)، تأليف/ ستندال؛  
ترجمة: عبد الحميد الدواخلى؛ مراجعة: إبراهيم مذكور.  
ط١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣  
٣٨٠ص، ٢٤سم .

١- القصص الفرنسية

(أ) الدواخلى، عبد الحميد (مترجم)

(ب) مذكور، إبراهيم (مراجع)

٨٤٣

(ج) العنوان

رقم الإيداع ٢٠١١ / ٥٠٥١

الترقيم الدولى : 978-977-704-495-0

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب  
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى  
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

## تقديم

ستندال أو هنرى بيل (١٧٨٣-١٨٤٢)، واحد من أشهر الكتاب الفرنسيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولد فى ٢٣ يناير ١٧٨٣ فى مدينة جرينوبل الفرنسية لعائلة برجوازية. قضى سنوات طفولة حزينة، إذ توفيت والدته - التى كان يكن لها كل الحب - وهو دون السابعة. عهد بتربيته إلى خالته، ثم عهد بتعليمه إلى القس رايان. تولدت لديه كراهية شديدة وتمرد ضد معلمه الكنسى وضد والده الذى كان يجسد - فى نظره - التعسف الأخلاقى والمعنوى والدناءة والبخل وأسوأ ما تحمله الطبقة البرجوازية من صفات لا تحتمل. أما الشخص الوحيد الذى كان يركن إليه ويشعر تجاهه بعاطفة جياشة، فكان جده جانبيون الفيلسوف الحكيم الذى كان مؤيدا لأفكار الثورة الفرنسية. وكان لهذه السنوات أثر بالغ على كتابته لشخصية جوليان سورال بطل رواية "الأحمر والأسود" التى نحن بصدددها.

بعد استكمال دراسته الثانوية سافر إلى باريس للالتحاق بمدرسة البوليتكنيك لدراسة الرياضيات، إلا أنه أخفق فى الالتحاق بها فأصيب بخيبة أمل من العاصمة. فى عام ١٨٠٠ شارك فى حرب إيطاليا التى بدأت عام ١٧٩٩ وواجهت فيها فرنسا قوات متحالفة من المملكة المتحدة والنمسا وروسيا إلى جانب تركيا. وكان من نتائج مشاركته فى هذه الحرب هو اكتشاف إيطاليا التى بهرته بفنونها الجميلة وموسيقاها، والتى كان متحمسا

للتعرف على ثقافتها إحياءً لذكرى والدته وحباً لها، إذ كانت من أصول إيطالية. بعد عودته إلى باريس حاول أن يفسح لنفسه مكاناً في مجال إدارة الأعمال أو في مجال الأدب، وأخذ يتردد على الصالونات الأدبية والمسارح، وبدأ الكتابة، وكان يطمح في كتابة أعمال كوميدية مثل مسرحيات موليير، إلا أنه لم يستمر فيها.

في عام ١٨٠٦ تم تعيينه في إحدى الإدارات العسكرية، حيث أثبت مهارات تنظيم فائقة أهلته لأن يحقق من خلالها إحدى هواياته المفضلة وهي السفر والتعرف على البلاد المجاورة. فكان أن شارك مع جيش نابليون في حملته إلى ألمانيا، حيث بلدة "ستتدال" الصغيرة التي اقتبس اسمها للتوقيع على أعماله الأدبية فيما بعد. ثم عمل مساعداً لمفوضي الحرب، كما تم تكليفه بمهام دبلوماسية في ستراسبورج وفيينا ولينز. تنقل في أسفاره بين إيطاليا وألمانيا والنمسا وروسيا. وفي عام ١٨١٠ عين مندوباً في مجلس الدولة في باريس.

كانت بداية أعماله الإبداعية في عام ١٨١٢ عندما استقر في إيطاليا وبدأ في كتابة "تاريخ الرسم في إيطاليا" التي صدرت في ١٨١٧، ومقالته "روما ونابولي وفلورنسا" التي كانت أول عمل يحمل اسم ستتدال، وتمثلت فيها بدايات إبداعاته الأدبية.

وفي مدينة ميلانو الإيطالية - التي أحبها وعشقها واتخذها مدينة دائمة له، بل واعتبر نفسه واحداً من أبنائها - أخذ ينهل من موسيقاها وفنونها.

وبعد علاقة عاطفية عاصفة وغير مستقرة مع أنجيلا بييتراجروا، وقع في غرام فتاة إيطالية أخرى - ميتيلدا ديمبوسكا - التي لم تبادله نفس

المشاعر، فكانت الصدمة النفسية التي دفعته إلى أن يقرر مغادرة ميلانو إلى باريس، وذلك فضلا عن الأسباب السياسية التي دفعته لذلك، والتي من بينها أن النمساويين كانوا يأخذون عليه تعاطفه الواضح مع الليبراليين من الإيطاليين.

وفى باريس أحسن استقباله فى أوساط المجتمع الراقى وفى الصالونات الأدبية، والتي رغم تكرار ترده عليها لم تنسه حبه لميتلدا. ومنذ ذلك الحين بدأت تتوالى أعماله الأدبية الواحدة تلو الأخرى، فصدرت له "عن الحب" فى ١٨٢٢، حيث يضع تحليلا لهذه العاطفة ويضع نظريته الشهيرة عن التبلور النفسى، وهى الحالة النفسية التى يتم بحسبها تعليق كل الأحداث بموضوع العشق. وفى ١٨٢٣ صدر مؤلفه "راسين وشيكسبير" الذى يثى فيه على الأعمال المسرحية للكاتب الإنجليزي الأشهر التى تظهر فيها بقوة رومانسية المشاعر والانفعالات مقارنة بكلاسيكية الكمال البارد الفاتر فى أعمال راسين التراجيدية. وفى ١٨٢٧ ظهرت أول رواية له بعنوان "أرمانس" التى يحكى فيها عن قصة حب تجمع الشاب اللامع قليل الكلام أوكتاف بابنة عمه، إحدى فتيات عائلته، أرمانس. وبعد سوء فهم تكرر عدة مرات بين الحبيبين لأسباب عدة، أبى كل منهما أن يبوح للآخر بمشاعره تجاهه، هجر أوكتاف حبيبته أرمانس وذهب ليقاتل فى صفوف الجيش دون الكشف عن الأسباب التى دفعته لذلك. وكانت هذه الرواية بما تحمله من موضوعات وأفكار وتيمات تحمل القارئ على تحليل شخصية البطل ذاته، بمثابة فاتحة طريق لاستئدال لانطلاق روائع أعماله الكبرى.

وفى عام ١٨٣٠ أصدر ستندال رائعته "الأحمر والأسود" التى لم تلق إقبالا فى الأوساط الأدبية فى بداية ظهورها. وفى نفس هذا العام تم تعيينه



قنصل فرنسا في مدينة ترييستا الإيطالية ثم في بلدة سيفيتافيتشيا (المدينة القديمة) التابعة لمدينة روما العاصمة، وذلك في العام التالي. وخلال هذه التنقلات قدم روايته الجديدة "لوسيان لوين" التي صدرت عام ١٨٥٥ بعد وفاته. وبطلها شاب يشبه إلى حد كبير جوليان سورال بطل رواية "الأحمر والأسود". وقد تركها ستاندال دون وضع نهاية لها بما تضمنته من نقد مباشر لنظام حكم الملك لويس فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠) الذي شهد عصره ظهور المعدات الحديثة مثل السكك الحديدية، والباخرة، والتصوير الفوتوغرافي إلا أن الثراء الفاحش لطبقة البرجوازية الصناعية والمالية والتي كان يقابلها البؤس والفقر المدقع للطبقة العاملة فضلا عن البطالة والأزمات المالية المتكررة قد عجل بظهور حركات تمرد بين أفراد الشعب، مما أوقد ثورة ١٨٤٨ حيث تنازل لويس فيليب عن الحكم ومات عام ١٨٥٠ في منفاه في إنجلترا.

والبطلان في الروايتين يشبهان إلى حد كبير ستاندال الذي يفسح فيهما المجال للحديث عن الحساسية المفرطة للبطل، وأهمية الحب بالنسبة له في حياته الخاصة. وبالنظر إلى ما يتصف به من خيال مفرط وعدم رضا وخجله في مواقف كثيرة ، فهو لم يتوصل إلى التوفيق في الحب.

لذلك فإننا نرى أن ستاندال قد لجأ إلى رواياته لكي يشبع رغباته في الحب ويعيش فيها القصص التي لم يحالفه فيها الحظ في حياته الخاصة.

ولتحقيق ذاته في الحب فقد لجأ إلى أبطاله الذين سيصيبهم ما أصابه من إحساس بالخجل وعدم تحقيق ما يصبو إليه من نجاح في الحب، إلا أن هؤلاء الأبطال سينالون الإعجاب والحب بصورة لا مثيل لها من العناصر النسائية .

وفى نفس هذه الفترة بدأ ستندال فى تحرير بعض كتاباته عن سيرته الذاتية فكانت "ذكريات نرجسية" التى لم تكتمل وصدرت عام ١٨٩٣ بعد وفاته، و"حياة هنرى برولار" التى صدرت عام ١٨٩٠ بعد وفاته، وفيها يستعير اسما مغائرا له. وفى كتاباته عن سيرته الذاتية ومذكراته يضع ستندال السعادة الفردية كهدف للوجود، تدعو إلى الاستمتاع باللحظة الحالية قبل أن تغلت من بين أيدينا، كما يضع أيديولوجية للعشق والرغبة والإرادة ، أو فن الحياة، والتى كان هو يطلق عليها اسم " النرجسية".

وبهذه الفلسفة وهذا الرأى تتجسد روايته "منزل بارما الريفى" التى صدرت عام ١٨٣٩ فى جزأين. وعن هذه الرواية يقول الكاتب الفرنسى الشهير بلزك (١٧٩٩-١٨٥٠) "إننى أعتبر مؤلف رواية "منزل بارما الريفى" كواحد من أفضل كتاب هذا العصر".

وفيما بين عامى ١٨٣٧ و ١٨٣٨ قدم ستندال "وقائع إيطالية" صدرت أيضا عام ١٨٥٥ بعد وفاته، ثم أصدر كتابه الذى كان يعد فى ذلك الحين من أهم المراجع فى مجال السياحة، والذى يحمل عنوان "مذكرات سائح" فى عام ١٨٣٨. أما آخر رواياته فكانت "لاميال" غير المكتملة، والتى صدرت عام ١٨٩٩ بعد وفاته ثم "أفكار إيطالية حول بعض اللوحات الشهيرة" وصدر عام ١٨٤٠.

وفى عام ١٨٤٢ أصيب ستندال بأزمة صحية أصابته فى المخ وقضت عليه، أثناء وجوده فى باريس.

ومن المعلوم أنه فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر كانت فرنسا تحت حكم نابليون الذى استولى على السلطة وتم تتويجه

امبراطورًا لفرنسا في ١٨٠٤. قام بتنظيم البلاد وإحلال العدالة. ونتيجة لطموحاته فقد خاضت فرنسا في عهده عدة حروب وغزوات كان يهدف بها إلى توسيع رقعة الأراضي الفرنسية، إلا أنه منى بهزيمة ساحقة في روسيا عام ١٨١١. وفي ٦ إبريل ١٨١٤ تم عزله من منصبه ونفى إلى جزيرة إلبى. عندها تسلم الملك لويس الثامن عشر مقاليد الحكم. ثم عاد نابليون مرة أخرى إلى بلاده وقاد جيش بلاده إلى معركة أخرى ضد البلدان الأوروبية في موقعة "واترلو" التي كانت القاضية بالنسبة له ولجيشه. عندها تم نفيه إلى جزيرة سانت هيلين التي مات بها عام ١٨٢١.

أما عن روايته "الأحمر والأسود" التي بين أيدينا الآن، فقد اقتبس ستندال فكرتها من حادثة مأساوية واقعية حدثت بالفعل في إحدى المقاطعات الفرنسية وأضاف إليها ستندال ما رآه لازماً لشخص الرواية.

تدور أحداث الرواية في بلدة فيريير التي تخيلها ستندال. جوليان سورال هو الابن الثالث لنجار يمقت كل ما هو ذهني، بينما جوليان الذي ليس مؤهلاً للأعمال الشاقة مثل أبيه وأخويه، ذهنه متوقد ويميل إلى القراءة والمعرفة، فهو يحفظ "المعهد الجديد" عن ظهر قلب، ويرتدى الثوب الكنسي الأسود ويتمتع برعاية قس القرية الأب شيلان، وهو شغوف بالبطولات التي حققها القائد نابليون بونابرت الذي يعتبره نموذجاً وقوة. عهد به القس شيلان إلى السيد دي رينال عمدة البلدة ليقوم على تعليم أبنائه الصغار. كانت تلك هي بداية اتصال جوليان ودخوله إلى حياة البرجوازية في إحدى المقاطعات.

وبالنظر إلى طموحه في أن يكون نابليون بونابرت الجديد وتأيينه لمبادئ الثورة الفرنسية واللون الأحمر - لون وشاح جوقة الشرف، والذي يرمز بالنسبة له إلى الالتزام إلى جانب القائد بونابرت، كما أنه هو أيضاً

لون الدم الذى سال فى نهاية الرواية من السيدة دى رينال ومن جوليان نفسه - وبرغم إحساسه بالخجل فى مواقف كثيرة، فقد استطاع جوليان أن يوقع السيدة دى رينال فى حبه وهى شابة جميلة، يعلو وجهها الخجل، على قدر من السذاجة التى دفعت جوليان لكسب قلبها بسهولة، حيث لم تكن قد عاشت هذا الإحساس الجميل من قبل. بدأ جوليان يغزو الحياة البرجوازية فى المدينة حتى أصبح حديث المجتمع هناك.

وبعد وشاية لعمدة المدينة عن علاقة حميمة بين زوجته وبين معلم أبنائه، اضطر دى رينال إلى طرد جوليان من منزله. وبناء على نصيحة من القس شيلان فقد اضطر للالتحاق بمدرسة إكليركية فى مدينة بوزانسون، وارتدى الزي الكنسى الأسود فى المدرسة التى لم يجد فيها سوى الكراهية والقطيعة من زملائه الذين جاءوا من بيئات قروية متواضعة. قضى جوليان بها أوقاتا عصيبة حتى عرض عليه القس بيرار مدير المدرسة أن يصبح سكرتيرا للماركيز دى لامول الارستقراطى الشهير فى باريس.

بذكائه المتوقع ورغبته فى تحقيق طموحاته، تعرف جوليان على ماتيلد ابنة الماركيز، شابة ذات شخصية متميزة فى المجتمع الأرسقراطى. وقعت الفتاة فى حبه ورفضت كل من تقدم للزواج منها من أبناء كبرى العائلات الأرسقراطية الباريسية. بعد أن أثمر حبهما الخفى عن جنين فى أحشائها، فقد طلبت من أبيها أن يزوجه سكرتيره. فى هذه الأثناء كان الماركيز قد رفعه ومنحه منصبا شريفا فى ستراسبورج، وبذلك أصبح ابن النجار الفارس جوليان سورال.

رفض الماركيز دى لامول فكرة زواج ابنته من جوليان رفضا قاطعا بعد أن تلقى من السيدة دى رينال رسالة تتدد فيها بسوء خلق جوليان حبيبها

السابق الذى لا يسعى إلا إلى تحقيق طموحه الشخصى، وأنه يدوس بقدمه على الآخرين.

فما كان من جوليان إلا أن غادر باريس متوجهاً إلى بلدة فيريير ودخل كنيسةها، وبكل الحق والغیظ فى داخله والذى انقلب إلى قسوة وعنف، وفى أثناء إتمام مراسم القداس صوب رصاصتين من مسدسه إلى السيدة دى رينال، إلا أنها لم تمت!

وبرغم ما حدث، فقد كانت المحبوتان تدافعان عن جوليان القابع فى السجن ينتظر حكم المحكمة، وقد هاله عدم جدوى كل محاولاته فى الترقى وتحقيق الطموح الاجتماعى. وفى النهاية قضت المحكمة بإعدامه.

وبعد دراستها وتحليل ما جاء بها، فإن الغالب فيها أن رواية "الأحمر والأسود" رواية تاريخية، حيث يكشف ستندال بها خفايا ثورة ١٨٣٠ مع دراسة خلفية المجتمع الفرنسى آنذاك مع ما به من تعارض واضح بين باريس العاصمة والمقاطعات الأخرى، بين طبقة النبلاء والبرجوازيين والطبقة الدنيا، بين أنصار المذاهب الدينية المتشددة وغيرهم.

أما عن الجانب النفسى التحليلى للرواية فقد عرض لنا ستندال بكل الوضوح تحليلاً متعمقاً لشخصية جوليان سورال : أفكاره ومشاعره وماضيه، أساليبه وحيله فى الوصول إلى ما يصبو إليه، والتي تتحكم فيما يأتى به من تصرفات وسلوكيات تبين تردده بين "الأحمر" للجيش، و"الأسود" لرجال الدين.

احتلت شخصيات الرواية السيدة دى رينال وماتيلد دى لامول مواقع أساسية فى الأحداث، الأمر الذى جعل من تفاعل هذه الشخصيات وحدة متكاملة للبناء السردى .

بكل قوة وإرادة استطاع ستندال أن يوفق في روايته بين رومانسيته القلقة والمضطربة والواقعية الحازمة، ولم لا مادام يجسد فيها فترة من تاريخ فرنسا تتشابه فيها مجموعة من أجمل تيمات الأدب الفرنسي في ذلك العصر. فالرواية بأكملها تدور حول تردد جوليان سورال في الاختيار بين الأنانية والإيثار، بين الحب والكراهية، بين العقل والمشاعر، بين الأحمر والأسود. في بداياته اختار الأسود إلا أنه في النهاية وقع في براثن الدم الأحمر الذي انفجر على يده فطخ الكنيسة ، هناك حيث ينتشر الزى الأسود، فاختلط الأحمر بالأسود!

بأسلوب شيق وسهل، وبلغة بسيطة ، منمقة وغير مفخمة، وبسرد بطيء غير ممل، جاءت روايته حافلة بما رواه لنا من أحداث عن الطموح والحب والإغراء والأسرة والأمل والرغبة. رواية تضافر فيها الأسلوب مع النص في تناسق وتوازن كامل. رواية عن الحب والحزن معا.

وفي خطوة غير مسبقة، يعتزم المركز القومي للترجمة إعادة نشر بعض الأعمال التي سبق ترجمتها من روائع الأدب والفكر العالمي من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، لما في ذلك من أهمية قصوى في نقل التراث الفكري والأدبي والعلمي للشعوب الأخرى وتعريف شعوبنا العربية به، مع ما ينتج عن ذلك من نمو المعرفة الإنسانية وتبادلها وتواصلها بين الشعوب.

فالترجمة عمل إبداعي يتطلب مهارة لغوية وفكرية نافذة ليس في اللغة الهدف فحسب، بل في اللغة المصدر أيضًا. والترجمة خلق جديد للنص الأصلي يشترط الأمانة في النقل الصحيح للأفكار دون إضافة أو حذف.

والحضارة العالمية ما هي إلا حصيلة جهد إنساني مشترك، أسهمت فيه جميع الشعوب، واضطلعت فيه الترجمة بدور الوسيط الفاعل المؤثر في التعارف والتعاون بين مختلف الجماعات البشرية، وتخصيب معارفها وتلاقحها. فبالترجمة تمكنت الأفكار من التحليق في عوالم جديدة، مما كفل لها البقاء والانتشار والنماء. وبالترجمة استطاعت شعوب كثيرة أن تواكب تطور المعرفة وتقف على عتبة الحداثة، وتحقق تقدمها ورفاهيتها. وبالترجمة أيضا نستطيع أن نعرف الآخر وندرك الذات ونقيم حواراً بناءً ينهى التنازع ويؤسس سلاماً ينعم فيه الجميع بالأمن والطمأنينة. ولكن ينبغي التنبيه إلى أن قدرة الترجمة على تحقيق التفاعل الثقافي المنشود يتوقف على كميتها ونوعيتها والغاية منها، وعلى رغبة المجتمع في الانفتاح على الآخر والإفادة منه وإرادته في التغيير والتطوير. وهذا ما يجعل الترجمة من أهم بنود السياسة اللغوية للأمة واستراتيجيتها الثقافية والتنمية.

كما تعتبر الترجمة نافذة انفتاح الشعوب على ثقافات بعضها البعض، لأنه عن طريقها يتاح لكل فرد منا أن يقرأ بلغته علوم الغرب والشرق، واكتشافاته الحديثة، فأصبحت السبيل إلى الاطلاع على كل جديد في الفكر والعلم والفن والأدب. وغنى عن التعريف أثر الترجمة في الثقافة المنقول إليها، فضلا عن أثر الترجمة في الثقافة المنقول منها.

وانطلاقاً من رؤية العلماء للغة كنظام يستند على بنية ذات علاقات خاصة تكشف عن منتج تعبيرى تواصلى، لم تعد الترجمة تقنية تفسيرية بل تقنية معرفية أى أنها جزء من آلية إدراك الفكر الإنساني، وهى أيضا وسيط بين مكون معرفى وآخر، مع مراعاة الأمانة فى الترجمة والنقل ليس بمعناها الحرفى بل بمعناها الدلالى. وهذا يقودنا للتأكيد على أن الترجمة هى فى حد

ذاتها قراءة، والمترجم هو فى الأصل قارئ تتطبق عليه شروط تلقى وتأويل النص، بل الأكثر من ذلك وهو شروط معرفة وتأويل ثقافة النص. ولا تتحصر مهمة المترجم، وبالأخص من يتعامل مع النصوص الأدبية، فى كشف الرابط القاموسى للعلامة اللغوية ضمن ضوابط وقوانين اللغة، بل تتعدى ذلك إلى كشف العلاقة الجمالية بين الدال والمدلول ضمن مفهوم المجاز والبلاغة والصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية. والمترجم فى أثناء العمل يستخدم ذاكرته اللغوية وذوقه الجمالى فى قراءة النص قبل استحضار أدوات العمل؛ وهنا لا بد من التذكير بأن المترجم غير المتذوق لجماليات النص بلغته الأصلية غير قادر على نقلها إلى لغة أخرى مهما كان هذا المترجم قديرًا ومتمكنًا من تقنيات الترجمة.

وهذه الترجمة لرواية "الأحمر والأسود" لستندال، من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية التى نحن بصدد التقديم لها، والتى تحققت فيها كل أدوات الترجمة المتميزة، قام بها الدكتور عبد الحميد الدواخلى، الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وراجعها العلامة الدكتور إبراهيم بيومي منكور (١٩٠٢-١٩٩٦). رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام ١٩٧٤ خلفا لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين. فلينعم القارئ بما بين يديه من إحدى روائع الأدب العالمى منقولة إلى لغة الضاد.

والله الهادى إلى سواء السبيل،،

د. فاطمة خليل





# مقدمة

ستندال

( ١٧٨٣ - ١٨٤٢ )

حياة

ولد هنرى بيل فى جرينوبل فى ٢٣ من يناير سنة ١٧٨٣ ، وكان ينتمى إلى أسرة برجوازية ثرية . إلا أنه شبّ منذ صباه مخالفاً أسرته فى اعتقاداتها وآرائها وعواطفها وميولها : فقد كانت أسرته تميل إلى مساندة التقاليد ، وكان بيل محباً للمغامرات ، كانت أسرته ملكية وكان هو يعقوبياً ثائراً ، كانت أسرته كاثوليكية وكان يكره الكاثوليكية ! كره منذ طفولته البيئة التى نشأ فيها ، فقد كان يضيق ذرعاً بتفاهة أهل الريف وكان يقول صراحة بأن جرينوبل تؤذيه أكبر الإيذاء وتؤلمه أشد الألم ، وإن أعجب مع هذا ببعض خصال مواطنيه ، كالخشية من الخديعة وعادة التأمل الباطنى ؛ وهى صفات تمسك بها هنرى بيل طول حياته . وكان كل ما فى بيت أبيه يوحى إليه بالكراهية الشديدة : فقد كان أبوه « شيروبان » محامياً نجحاً قبيح الوجه ، وكره خالته « سيرافى جانينون » لأنها عانس ، تفرط فى العبادة وتبعث على الانقباض ، وكره أخته زنائيد لكثرة لغوها فى الحديث : ولم يكتشف فضائل أخته بولين إلا بعد زمن طويل . أما أمه هنريت جانينون ، فكان يعبدها عبادة العاشق لها على حد تعبيره ، ويصفها

بأنها كانت جميلة نشيطة حاذقة ومن أصل إيطاليّ ، ماتت قبل أن تبلغ الثلاثين من عمرها . ومن المحتمل أن يكون هنرى بيل قد وجد في جده الطبيب هنرى جاينون بعض صفات أمه ، فقد كان شيخاً نشيطاً يقظاً مثقفاً ، دفعته آراؤه وعاداته وظروف حياته ومكتبته إلى التعرف على القرن الثامن عشر . أما خاله رومان جاينون ، فقد كان بمثابة « دون جوان » المقاطعة ، وقد أعجب ستندال ، وكان لا يزال يافعاً ، بالسلوك السيء الذى يسلكه خاله وبمبادئه التى تدعو إلى التهمك والاستهتار بالقيم الخلقية والتقاليد البرجوازية . كان لخاله من ناحية ، ولجان چاك روسو من ناحية أخرى أثر كبير عليه ؛ فقد أصبح ستندال مراهقاً مشبوب العاطفة ، مضطرب النفس : أحب ممثلة من تلك الممثلات التى تنتقلن مع فرقهن من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية كانت تدعى الآنسة كابلې ، إلا أنه سرعان ما أحب أخت صديق له هى فيكتورين بيچيليون .

وما زال طول حياته ينتقل من حب إلى حب ، يلهو ويعبث فى جنون شديد ومرح لا حدّ له ؛ لأنه كان يودّ لو أوتى مجد نابليون أو اقتصاد دون جوان فى غرامياته . على أن هواه السياسى كان أقوى من هواه العاطفى : ألم يكن يعقوبياً وهو لا يزال فى العاشرة من عمره ؟ ألم يفرح ويتهيج حين أعدم لويس السادس عشر ؟ ثم ألم يصفق طويلاً لإعدام قسيسين من جرينوبل بعد ذلك بعام واحد ، هما : ريقينا وكياير ؛ وحينما كبر ستندال ، أصبح يحلّ أستاذه فى الهندسة « جرو » لا لأنه عالم أفاد

منه في مدرسة السنترال بجزينوبل ، ولكن لأنه كان جمهوري الهوى . كانت أسرة بيل تتوقع أن يصبح مهندسا ماهرا ، بعد أن تخرج في مدرسة السنترال بجزينوبل بتفوق كبير ، ودرس بها الرياضة والرسم ؛ فأوفده أبوه إلى باريس ورتب له نفقة شهرية قدرها خمسون ومائة فرنك ، إلا أن جو باريس قد أسكره منذ أن وطئت قدماه مدينة النور، وظن أنه أصبح ثريا وليس عليه رقيب ، فلم يأبه بالدراسة ولا بالمسابقات العلمية التي كان عليه أن يتقدم لها .

أقام بغرفة صغيرة على مقربة من « الأثيلد » ، ولكن سرعان ما أمرضه السأم ؛ فعنى به في مخنته أحد أقاربه وأحد مواطنيه ، هو « نوتل دارو » ، وسهرت عليه مدام دارو وكانت ترعاه في عطف وحنان . وكان أبناء دارو يبلغون أحد عشر ولدا ؛ إلا أن اثنين منهم قد أثرا تأثيرا كبيرا في حياة هنري بيل :

أولهما بيير دارو ، وكان موظفا إداريا في وزارة الحربية ، له شأنه وخطره إذ كان المدير الحقيقي المسيطر على إدارة جيوش ناپليون . وكان كثير العمل إلى حد بعيد ، شديد الحزم ، قليل القسوة . أما الثاني ، فهو مارسيل دارو ، وكان مثله في حياة بيل مثل رومان جاينون ، أستاذا في الأبهة والزينة والشهوات تأثر به تأثرا كبيرا حتى قال في مذكراته : « إني لمدين له بالتقدير الضئيل الذي أعلمه في فن معاملة النساء » .

أسند بيير دارو إلى هنري بيل وظيفة مساعد سكرتير ، بعد أن عزم على أن يبسط عليه حمايته ويفرض عليه سلطانه ، وإن كان قد وجدّه جاهلا

بالهجاء ، ثم استدعاه إلى إيطاليا ، وفي ٢ من مايو سنة ١٨٠٠ غادر بيل باريس ليذهب إلى تلك الأرض الموعودة التي أحبها طول حياته حبا جما . وفي حصن « بارد » الواقع في جبال الألب أصبح جنديا ؛ فاضطرت نفسه وأصبح يخالجه خليط من المخاوف والسرور والقنوط ، مما يقصه علينا في حديثه عن « واترلو » في قصته دير پارم ، خلال تلك الحياة الحافلة بالثورات والحروب والمكائد ، والحفلات الموسيقية والمكرو الخداع والحب والدسائس . ثم خطا بعد ذلك خطوات موفقة في سردينيا ولومبارديا في جو يسوده النشاط والجد ، وقد عبر هو عن هذا بقوله : « إن إيطاليا كانت تعشق محرريها وقتذاك . »

أحب بيل إيطاليا لأنها علمته أشياء كثيرة وكشفت له عن أسرار كانت تخفى عليه . فأحب الموسيقى وظل طول حياته مولعا بها ، شغوفا بسماعها . وأما ميلانو ، فكانت تحب له بدورها أسراراً جديدة ومرحاً ولها وعبثاً : عرف فيها بعض النساء الجميلات ، وأعجب بالكونتس « غيرارزى » وأولع بتلك الغادة الفاتنة الحسن « أنجيلا بيتراجروا » . غير أن بيردارو انتزعه من تلك الحياة بعد أن وفق في مسعاه بتعيين بيل ملازماً في فرقة الفرسان ، وبالرغم من أن بيل سمع مدافع « مارنجو » وحارب في « كاسلفرنكو » واشترك في معركة « ماتو » فإنه سرعان ما زهد في الجيش ، فاستقال من منصبه وعاد إلى باريس عن طريق جرينوبل .

و نحن الآن في عام ١٨٠٢ ، وها هو ذا بيل يعيش في باريس متعتلاً

لا يجد عملا يدر عليه رزقا ؛ فيعتمد إلى الأدب علّه يجد فيه خيرا يعود عليه .  
 فأخذ يكتب مسرحيات لا يعرف كيف يبدوها وقصصا هزلية لا يدرى  
 كيف يحنتمها . وصار يتردد على المسرح كثيرا لا يكاد ينقطع عنه بفضل  
 تشجيع صديقه مارسيال دارو . كان يبيل كبير الفطنة ، يتمتع بشباب زاخر  
 بالقوة والحوية ، فأصبح محبوبا في هذا الوسط الجديد لفتوته وحيويته ؛  
 وكثيرا ما كان يشبه بالأسد . كان طويل القامة ، ذا شعر كثيف مجعد ،  
 ونظرات نارية وتأنق شديد في ملبسه . في هذه الفترة من حياته ، أولع بحب  
 غتاة كانت تتعلم تمثيل المآسى ، تسمت في المسرح باسم « لوازون » واسمها  
 الحقيقي « ميلاني جليبر » ؛ فكانت تسخر من هذا الفنان الجميل ، واقتادته  
 إلى مرسيليا حيث وجدت لها عملا بها .

واضطر يبيل إلى أن يبحث له عن عمل يسد نفقاته الكثيرة ، لأن  
 المرتب الشهري الذي كان يرسله له أبوه وقدره مائتا فرنك ، زيد إلى ثلثمائة  
 فرنك كان ينفق من غير حساب ؛ فاشتغل بالتجارة . إلا أنه سرعان ماضق  
 بمرسيليا ، وبالرغم من قلبه الموله بحب ميلاني وعمله التجاري ، شعر بسعادة  
 كبيرة حين عاد إلى باريس . وترك ميلاني ، فاختر لها القدر سيداروسيا  
 اتصل بها وأصبحت حياتها سهلة بسيرة .

وأصبح يبيل منذ سنة ١٨٠٦ مرتبطا بمحلات نابليون ؛ فقد حصل  
 من جديد على وظيفة مساعد بالكاتب الحربية بوساطة صديقه بييردارو .  
 قضى تلك الفترة في ألمانيا ، فعاش عامين في بروزيك وأخذ يدرس ألمانيا  
 وأخلاق أهلها وغادات الألمان بينما كانت مدام « دي ستايل » تستعد

لتقديم دراستها عن ألمانيا . وقد كشف ستندال عن طيبة الألمانين وبقاء سرائرهم وأحب في الألمانية جمال وجوههم ، إلا أنه لم يتنبه إلى قوة الفردية في الألمانين حين وصفهم بالرخاوة ، وفي مارس سنة ١٨٠٩ ، أقام مدة قصيرة في باريس ، ثم غادر فرنسا إلى استراسبورج ومرّ بأجولشتادت ولندشوت ووجرام ثم بقي بثينا مدة ، غير أنه بالرغم من حبه لتلك المدينة ، سرعان ما أراد الذهاب إلى إسبانيا فطلب أن يسند إليه منصب بها ولكنه لم يجب إلى طلبه . فعاد إلى باريس حيث عين في أغسطس سنة ١٨١٠ عضواً بمجلس الدولة .

وعلى هذا أصبح بيل شخصية لها قيمتها وخطرها ، فقد تقلد بعد ذلك مناصب كبيرة درت عليه أموالاً كثيرة . وأخذ يحيا تلك الحياة السهلة التي تتفق وميوله ، تلك الحياة الباريسية الفنية الدنيوية العصرية . وكثيراً ما كان يغادر باريس ليقضي أياماً في ضواحيها ؛ وقد تمتد به الرحلة إلى أن يصل إلى شاطئ البحر . وهو يعرف كيف يجب البحر ، فقد قال في كتابه « مذكرات سائح » : « إن الإقامة على شاطئ البحر تقضي على الصغائر ، والحديث إلى بحار يعود من رحلة أكثر فطنة من الحديث مع كاتب عقود مدينة بروج » وظلّ صديقاً كبيراً للمسرح ، يحيا حياته العاطفية يتودد إلى بعض الممثلات ، ويطارد في عناد وإلحاف بعض سيدات الطبقة الراقية ؛ فقد تعرف « بأنجلينا باريتز » إحدى ممثلات « أوبرا بونافا » إلا أن صلته بها لم تحل بينه وبين التقرب من « إلفير » وهي « الكونتسش بالفي » التي كان يطاردها منذ عام ١٨٠٥ ولم يظفر بها إلا في مايو سنة ١٨١١

(ز)

غير أن طبيعته القلقة سرعان ما زهدته فيها ، فسافر إلى ميلانو في أغسطس من نفس العام ، ليلقي « أجيلا بيترا جروا » التي ظل يفكر فيها منذ عشرة أعوام والتي كانت تعدّ في نظره أحسن مثل لإيطاليا .  
وعندما عاد من رحلته إلى باريس ، أخذ يقرأ ويعمل ويكتب حتى كاد ينتهي من قصته الهزلية « لتلييه » . ثم كلف وقتذاك بمهمة رسمية في روسيا ، فصحب جيش نابليون إلى « ولنا » ودخل معه سمو لتسك وموسكو ثم صحبه في تفهقره ؛ وذهب إلى بريزينا وعبر كونيغسبرج وداننبرج وبرونسويك وكاسل وفرنكفورت وماينس .

وبعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة ، عاد إلى باريس في ٣١ يناير سنة ١٨١٣ ؛ وظل ينتظر منصباً جديداً ، طامعاً في أن يعين حاكماً لولاية من الولايات ، إلا أنه لم ينل ما كان يصبو إليه . فعاد إلى ألمانيا واشترك في حملة ساكس اشترا كاً فعلياً ، في تلك المعركة المفاجئة معركة « ينيدر ماركرسدورف » ؛ ولقى الإمبراطور بعد ذلك بأيام « في جورليتز » ليتحدث معه في شأن هذه المعركة . ثم أصبح رئيساً لقسم « لاتورموبور » فاستولى عليه السأم وأصيب بحمى عصبية ، فسافر إلى إيطاليا يطلب فيها الشفاء والراحة في ميلانو واللهم مع صديقته « بيتراجروا » . وقد امتدت إقامته بها طوال خريف عام ١٨١٣ ، إلى أن اضطره الغزو إلى العودة إلى فرنسا ، فعين في الفرقة السابعة الحربية لينظم حركة المقاومة في مقاطعة « دوفيني » ، فأظهر نشاطاً كبيراً وذلّ على وطنية شديدة لم يكن يتوقعها أحد من هذا الرجل الذي عاش في البلاد الأجنبية أكثر مما عاش



في فرنسا . إلا أن الحمى عاودته ، وقد آلمه ما كان يلقاه من حقد أهل « جرينوبل » عليه ، فقد أغضبهم منه توقعه « دى بيل » على الإعلانات والنداءات التي كان يصدرها إلى سكان المقاطعة وهو لا يمت إلى طبقة الأشراف بأى سبب . فعين آخر ليحل محلته في عمله وذهب هو إلى باريس ، حيث وافق هذا المتعصب لنابليون على قرارات مجلس الشيوخ منضماً إلى البريون يحدوه أمل كبير في أن يعين في قنصلية نابولي ، ولكنه كان أملاً ضائعاً ! .

وإزاء هذه الخيبة ، عاد إلى ميلانو وإلى صديقه الميلانية . وفي هذه المرة احتجزته إيطاليا مدة طويلة ، فقد بقي بها من عام ١٨١٤ إلى عام ١٨٢١ ؛ وكان غضباً أشد الغضب على آل برون ، قاسياً عليهم قسوة شديدة : ولم يستثن منهم جميعاً إلا « دوقة ييري » ، تلك المرأة الخيالية المخاطرة التي كان يسميها « الأميرة الصغيرة » .

كان بيل يتمتع ببلدة العيش في نابولي ، تلك البلدة التي كانت تعرف كيف تعيش وقتذاك . فكان يسر بأحاديث « مونسيوردي برم » ويجالس الشاعر « مونتي » الذي كان بيل يعده أكبر شاعر في عصره ، ويتردد على « سلفيو بليكو » الذي دفع غالباً ثمن اتصاله بالكربوناري ؛ ثم كان على صلة دائمة بخليته الخائنة « بيتراجروا » وكان لا يتقطع عن التردد على مسرح « سكالا » الذي كان يعتبره المسرح الأول في العالم كله . وظل مقياً بتلك المدينة المحببة إلى نفسه ، حتى اضطر إلى مغادرتها عام ١٨٢١

( ط )

حين أخذ النمساويون يعتقدون أنه من أنصار حركة الكريوناري، وظنّ الإيطاليون أنه مناصر للألمان .

أحب بيل، خلال إقامته في إيطاليا، الأدب حبا أملاه عليه ذوقه وفراغه وفرضته عليه طبيعته، فنشر أول كتاب له وهو: « حياة هايدن وموزار وميمثا ستاز » وهو كتاب ليس له فيه فضل كبير؛ إذ كان مقتبسا من كتب غيره من المؤلفين . وفي عام ١٨٩٧ نشر كتابه: « تاريخ الرسم في إيطاليا » وأهداه إلى نابليون . ثم اهتدى في نفس السنة إلى الاسم الأدبي الذي كان ينشر به كتبه وهو « ستنال » وقد استعاره من اسم بلدة ألمانية صغيرة؛ وكتبه لأول مرة على غلاف كتابه: « روما و نابولي وفلورنسا » . وكان قبل مغادرته نابولي في هذه المرة قد تخلص من « بياتراجروا » وأحب ميلانية أخرى، كانت متزوجة بضابط بولوني هي « ماتيلد دين بوسكي » أحبها « ستنال » حبا رفيقا عنيفا، ومع أنه كان حبا ضائعا، إلا أنه كان أعظم حب عرفه « ستنال » وأرفعه وأمجده! ودعها وداعا حارا قبل أن يغادر إيطاليا، وظل متعلقا بها إلى أن ماتت ١٨٢٥ .

و بعد ذلك بعامين مات أبوه فلم يبقه! ولكنه حزن؛ لأنه لم يترك له إلا ميراثا يقدر بثلاثين ألفا من الفرنكات، وكان يأمل الحصول على ثلاثة أضعاف هذا المبلغ . وقد استطاع « ستنال » بموارده الضئيلة أن يعيش عيشة باريسية، محاولا أن ينسى حب « ماتيلد » فتقرب من « ماتتا » ( تصغير كلمتا تين ) ابنة أحد مديري الامبراطورية . فعاش معها عامين، ثم هجرها ليتصل « بألبرت دي روبري »، غير أن حبه لها لم يدم إلا بضعة

(ى)

شهور ، ذلك أن قلب «ستندال» كان متعلقا بالإيطاليات ؛ لأنه كان يؤمن بأن فن الحب لا يوجد إلا في إيطاليا ، أما فن الحديث فهو فن باريسى خالص . كان يحب لقاء الأصدقاء الأذكاء ، ويتحدث إليهم ، فكان يلقي في باريس نخبة كبيرة من الأدباء ، ورجال السياسة ، والصحفيين ، منهم : « بروسبير ميريمي » و « رومان كولومب » الذى كان شديد الإخلاص ، قوى العاطفة ، محبا لاستندال ، لا يرضن عليه بشيء ، حتى بالمال .

كما كان كثير التردد على الصالونات الأدبية والسياسية ، وحينما كان يمل هذه الحياة الباريسية ، كان يعبر المانش ليستمع إلى المعنى « كين » ويعجب بالريف الإنجليزي أو يذهب إلى إيطاليا ليقم في ميلانو العزيزة عليه ، المحببة إلى قلبه ، وإن كان رجال الشرطة النمساويون أبعده عنها في أول يناير سنة ١٨٢٨ يوم وصوله إليها للمرة الخامسة . وقد أرهقت رحلاته وهواه وإفراطه في التأنق ما كان بين يديه من مال .

وقد كاد آل بربون يستغنون عن خدماته ، ومعاشه وقتذاك لا يتجاوز ١٥٠٠ من الفرنكات ، ولم يعد « ستندال » يأمل في أن يعيش من قلبه . وحينما عاد إلى فرنسا كان قد نشر كتابه « من الحب » وهو تحليل نفسى عميق ، ثم « راسين وشكسبير » و « حياة روسيني » وطبعة جديدة لكتابته « روما و نابولي وفلورنسا » زاد فيها كثيرا . ثم « أرمانس » وهى أول قصة كتبها .

كانت كتبه لا تدر عليه إلا القليل ؛ فاقترض المال حتى كثر عليه

الدين ، ولقى في حياته عسرا كبيرا ، بجانب ما كان يلقاه من آلام أخرى ،  
 كموت « ماتيلدا » ومرض الشيخوخة ، الذي أخذ يدب في أوصاله . كل  
 تلك الصعاب تراكت عليه ، وفي ليلة ٦ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ كتب  
 وصيته ، وكان قد كتب قبلها وصايا كثيرة ، ثم عزم على قتل نفسه . غير  
 أن تضرعات كولومب . والمبلغ الذي حصل عليه من كتابه « نزاهات في  
 روما » وقدره ١٥٠٠ من الفرنكات . كل هذا أعاد إلى ستندال حب  
 الحياة مرة أخرى . وعلى هذا استدعت إيطاليا إليها من جديد . وكاد يذهب  
 إليها في مهمة رسمية بعد موت البابا « ليلان الثاني عشر » ؛ ليساعد على انتخاب  
 الكردينال « جريجوريون » أحد أنصار البربون . وكان « شاتوبريان »  
 في ذلك الوقت سفيرا في روما ، وكاد ستندال يصبح مساعدا لهذا الذي  
 يطلق عليه في سخرية وتهكم « الإمام الكبير » .

وأخيرا بقي في باريس . على أن سأمه لم يدم طويلا ، وتلك المهمة  
 التي لم تتحقق جعلت منه سياسياً . ذلك أنه عين قنصلا في « تريستا » في  
 شهر أغسطس سنة ١٨٣٠ فسارع إلى تسلم مهام منصبه الجديد ، دون أن  
 يحفل بقصته التي أعطاها للناس وهي « الأحمر والأسود » . إلا أنه لم يكذب  
 يقيم في « تريستا » حتى رفض « مترنخ » الموافقة على إقامته بها ؛ لأنه  
 كان قد سخر من النمسا في كتابه « روما و نابولي وفلورنسا » . فعين في  
 « سيفيئا فيشيا » داخل مملكة البابا ، حيث أقام في تلك المقبرة القديمة ،  
 التي تنتشر فيها الملاريا ، ولاقى ضيقا شديدا من سكرتيره « لزيماك تافرنيه »  
 الذي كان يتصف بالخصسة في خلقه وأعماله ، وعلى هذا كان « ستندال

ينتهز كل فرصة ليغادر مقر عمله إلى «أنكون» أو «روما» أو «باريس» التي ذهب إليها أول مرة عام ١٨٢٣، وبقى بها أربعة شهور. ثم أتاحت له الفرصة بعد ذلك أن يجدد عطلته، وبقى في العاصمة الفرنسية ثلاثة أعوام كاملة من مايو سنة ١٨٢٦ إلى يونيو سنة ١٨٢٩ وفي عام ١٨٣٥ منحه وزير المعارف وساما، تقديرا لمكاتبه الأدبية. وقد ظل «ستندال» محتفظا بما فطر عليه من أناقة وحب للغزل، فبالزغم من السمعة المفرطة التي أصابته، وبالرغم مما جرته عليه سنواته الخمسون، أخذ يطارد مدام «جول» وكانت هي أيضا كريمة أحد مديري الأباطورية، غير أنه نحي عنها في ظرف ورقة، فحز القشل في نفسه، ولم يفقد الأدب شيئا طوال تلك الفترة، فقد تابع الكتابة في باريس، واستمر في تأليف الكتب التي بدأها في «سفيثا فيشيا» كالحوادث الإيطالية، والصيد الأخضر، ومذكرات سأمح. وهي الكتب التي ظهرت عام سنة ١٨٣٨، ثم ظهرت قصته «دير بارم في السنة التالية وهي السنة التي رجع فيها إلى مقر عمله مرة أخرى حيث بقي عامين آخرين من أغسطس ١٩٣٩ إلى نوفمبر سنة ١٩٤١. غير أن صحته تدهمت، وضعفت قواه من آثار الروماتزم والملاريا، ومن مكابد «تافارنبيه»، فعاد إلى باريس لموت بها في ١٢ مارس سنة ١٨٤٢، فقد أصيب بسكتة قلبية وهو يسير في الشارع، إلا أنه عاش حتى اليوم التالي، وعنى به صديقه الوفي «كولومب» ولم يشيع جثمانه حتى مقبرة «مونمارتر» إلا ثلاثة أشخاص منهم «ميريبي». ولم يكن ستندال معروفا من الجمهور، وكان الأدباء يجهلون، حتى أن بعض الصحفيين حرقوا

اسمه وهم ينعونه في صحفهم ، وخطوا بين اسمه الأدبي ، وبين اسم قصة تسمى « فردريك ستندال » من تأليف « كراترى » وهو وإن كان خطأ شنيعا إلا أنه خطأ طبيعي . لقد كانت حياة بيل حياة مضطربة ، حياة رجل كامل الرجولة ، إلا أنها لم تكن حياة مؤلف ؛ وهذا هو السر في أن أدبه لم يكن معروفا من معاصريه ، وأن كتبه لم تكن ذائعة في العصر الذي عاش فيه ، وأن ماري به من شذوذ في عصره لم يفهم على حقيقته إلا بعد أن مضى أكثر من نصف قرن على وفاته .

لقد كان « ستندال » « ذاتيا » ، وهي صفة تظهر بجلاء في بعض عباراته فقد قال : « هل أتعير ؟ إنها مغالطة ، إنى أستسلم إلى نقائصي ، ويجب أن يعرف الإنسان نفسه أولا معرفة جيدة . ولكي يصل إلى هذا ينبغي له أن يخضع لتحليل نفسي خالص نزيه ، وحينما يتم له هذا يجب أن يقبل كل ما يبينه له التحليل ، خيرا كان أو شرا ، على ألا يقبله فحسب ، بل يولع به في لذة وفوة ، وأن تكون القاعدة الوحيدة التي يطبقها هي : أن يكون مخلصا مع نفسه ، ويظهر هذا الإخلاص في عبارات الإنسان وتصرفاته على السواء ، وعليه ألا يأبه لما يقع من مفارقات أو يخالف التقاليد ، لا يرى صلاحا أو استقامة خارج هذا النطاق . وأن نشك فيما قد نتاله من نصر على نفوسنا باسم العقيل أو السيطرة أو الأخلاق » . هذا هو المبدأ الأساسي لأخلاق ستندال وتفكيره ، وهو ذلك المبدأ القوي الدائم الذي أطلق عليه النقاد « بيليزم » تتصل بهذا المبدأ الذاتي من قرب ما يسمى قوة النفس . ولكن ، ماذا يقصد بيل بهذه الكلمة ؟ إنه لا يريد إطلاقا

الإرادة التي نستعملها لتكون شخصيتنا، أو لنصل إل درجة ما في نظام المجتمع، أو لنكون متدينين معتدلين عادلين. إن الرجل القوى النفس هو الذي لا يعرف كيف يحد من اضطراب عواطفه أو غرائزه، ويكره كراهية شديدة أن يكون قدوة للناس، لا يجب قسوة الأوامر، ولا يحفل بالحدز في كلامه، وعلى هذا كان بيل يهتم اهتماما كبيرا بالمجرمين العتاة والمساجين؛ لأنه كان يحب الجرأة والإقدام، وتستهويه الشجاعة في جميع صورها. كان يميل حقا إلى الهدوء إذ طالما عاش خارج فرنسا، إلا أنه كان يحب الحرب أيضا. وقد شارك في حروب نابليون على نحو ما رأينا. إن قوة النفس التي تتردد في كلام ستندال لا ترمى إلى شيء آخر سوى الأخلاق، وهي عنده التلقائية والاستقلال. إن النشاط هو الفضيلة التي تخلع على شخصيتها قوة كاملة، فهو الذي يثيرها تارة، ويدفعها إلى الحق تارة أخرى، وقد كان يحاول لئيل أن يعث في المألونات التي تتصف بالوقار، فكان يبدو غليظا، ولم كان يسره وهو عند البارونة «جيرار» أن يبدي آراء غريبة عليها سمة الفحة؛ ليشئت شمل سيدات أسر «جى وسوفى ودلفين الأم وكريمته».

آراؤه السياسية:

هل نستطيع أن نتعرض الآن لآراء بيل السياسية؟ ولم أحب نابليون حبا جما بعد عام ١٨١٥؟ كان ستندال محاميا لنابليون قبل الأوان، فرأى في ذلك البطل الذي غلب على أمره خير أساتذة النشاط، وقد خلق ستندال لنابليون تلاميذ ستظل ذكراهم عالقة في الأذهان إلى الأبد: جوليان

(س)

سورل بطل الأحمر والأسود ، « وقايريس دلنجو » بطل « ديربارم »  
فهما تتصفان بالمشاعر القوية ، والكبرياء الشديد ، والتسلط على الرجال ،  
والتلقائية الكبيرة ، والفضائل العامة ، كان ستندال يقارن كل هذا بالصفات  
الخاصة التي يتصف بها أمراء عصره ، ثم يذكر في إعجاب الحماسة الكبيرة ،  
والحزم الشديد ، اللذين كان عليهما الجمهوريون عام ١٧٩٢ ، وجليه خيل  
الامبراطورية ، التي كانت تجلجل في جميع أنحاء أوروبا ، ولا يفوته  
أن يقارن هذا كله بما فطر عليه عصره من سماجة وتفاهة ونفاق في الخلق  
في عهد إعادة الملكية ، وفي عهد الملكية في شهر يوليو .  
مذهبه الأدبي :

كان ستندال يعنى بالعامل أكثر من عنايته بالعمل ، أو بعبارة أصح  
كان يعنى بتركيب الكتاب أو القصة أكثر من عنايته بصقلها ، وعلى هذا  
كان يفضل « جيوتو » على الرغم من هفواته على « دافيد ومدرسته »  
ومدرسة دافيد في الرسم تقابل مدرسة « بوالو » في الشعر ، إذ أنها ترمى  
إلى احترام الاستعمال واللياقة ، وعادات التمدن التي فرضتها على الفن « سياسة  
مزعومة ترمى إلى القضاء على العواطف القوية ؛ وستندال يتطلب من هذا  
العصر الفتى أن يعيد إلى هذه العواطف حقوقها ، وهو لهذا يفضل  
« شكسبير » على « راسين » ، كما يفضل النثر على الشعر ، والحرية  
على القواعد ، وهو لهذا يتحمس للمذهب الرومانتيكي تحمساً قوياً إلا فيما  
يتعلق باقتضاره على الحاضر ، وعلى الحوادث التي تجرى في عصره ، وهو  
لهذا يعد رومانتيكياً للعصر القديم ، وإن كان القرن التاسع عشر يعد



كلاسيكياً . ومن ناحية أخرى كان ستندال شغوفاً بالحب بالرغم مما كان يلقاه من خيبة أمل ، كثيراً ما كان يستحقها . فهذه العاطفة تمد النشاط بحيوية غريبة ، وتقوى الفكر والخيال ؛ لقد كان يؤمن بهذا الجنون الذي يسخر منه العقلاء جميعاً ، وكان يعده الحكمة بعينها .

والجمال الذي كان يجذب ستندال إليه ليس الجمال الكلاسيكي ، فهو يرى الجمال اليوناني تافهاً ، وكان يحب الجمال الذي لا نظيره في العالم . ذلك الجمال الذي يضيء على النظر أثراً جديداً . وقد قضى أعز أيام حياته في البحث عن هذا الأثر والجري وراءه ، كان تعلقه بإيطاليا يبين ذوقه المختلف المتغير ، وإيطاليا التي كان يعجب بها هي إيطاليا التي كان يعتقد أنه يراها ، لا التي كان يراها حقيقة . فهي مما لا ريب فيه مثله الأعلى ، كما كانت ألمانيا المثل الأعلى لمدام « ديستابل » . أحبها أول الأمر بسبب الإيطاليات ، كدام « غراردى » و « مدام » « باسطا » و « بيترا جروا » و « ماتيلدا » وكل أولئك اللاتي تحدث عنهن حين وصف الدوقة « ستسقرينا » في « دير بارم » و « ماتيلدا دي لامول » و « مدام » « رينال » في الأحمر والأسود . أحب إيطاليا لما كان فيها من نشاط ، ولأنها بلد السرور والفن والقراع ، ولأنها أخذت تنزع عنها نير الاستبداد ، وتوطد في أرضها حقوق الخيال والهوى . وكان ستندال لا يحب في الباريسيين غرورهم ، وفرط ذكائهم ، وخشيتهم الشديدة من السخرية ، كما سخر من الفضيلة الألمانية التافهة ، وكره الوقار الذي فطر عليه الإنجليز ، وأهل جنيف ، ومع أنه كان ساجماً لا يميل التنقل من بلد إلى بلد ، وتحدث كثيراً عن حبه لأي بلد يحل فيه ،

## (ف)

ولكن إيطاليا وحدها هي التي سيطرت على نفسه وعواطفه ، فإذا ما بعد عنها نسب لها كل شيء . فبعد أن مر ستندال ببلدة « لاندشوت » كتب يقول : « إن هذه البلدة قد أحدثت في نفس الأثر الذي أحدثته إيطاليا ، فقد رأيت في نصف ساعة خمسة وجوه نساء يضاوية الشكل رائعة الجمال ، لا تمت إلى ألمانيا » كما تقرأ في كتابه « روما و نابولي و فلورنسا » العبارة التالية : « إنني حين أجلس إلى الميلانيين وأتكلم لغتهم أنسى أن الرجان فطروا على الشر ، وتبدد من نفسى في الحال كل علامات الشرور » . وهي عبارة واضحة جلية ، تنطوى على الكثير من الصدق . لقد كان ستندال ميلانى الهوى ، محباً لإيطاليا حباً شديداً .

مكاته الأدبية :

اختلف الأدباء والنقاد اختلافاً شديداً فى الحكم على ستندال ، فكان « فيكتور هوجو » يحقره ، والفريد ديفي يرتاع منه ، والفريد ديموسيه خصص له فقرة واحدة فى شعره . أما سانت بيغ فقد كتب عنه مقالين ؛ وميرىمى وإن كان هديقاً له ، إلا أنه لم يكن من المعجبين المتحمسين ، وأما بلزك فكان أول من درس دير بارم دراسة طويلة ، وتحمس لستندال ، ونادى به أستاذاً من أساتذة القصة عام ١٨٤٠ ، ولكن معاصريه كانوا لا يؤمنون بشيء من هذا . كان أكثر كتبه رواجاً هو « نزهات فى روما » وهو بمثابة دليل يكشف عن جمالها وتاريخها . أما كتابه عن الحب فلم يبيع منه إلا سبع عشرة نسخة من عام ١٨٢٢

إلى عام ١٨٣٣ ، وتحمل ستندال هذا الظلم الشديد ، وكثيراً ما كان يقول :  
إنه لن يقدر حق قدره إلا حوالى عام ١٨٨٠ .

تحققت هذه النبوءة ، فقد أحياء «تين» في عهد الامبراطورية ذكراه ،  
ورأى أن أدبه يصطبغ بالصبغة العالمية ، واستعار الكثير من آرائه  
في كتبه ، وخاصة في : « فلسفة الفن » و « رحلة في إيطاليا » و « أصول  
فرنسا المعاصرة » و « الذكاء » . أما « زولا » فقد قال عنه في كتابه :  
« القصاصون الطبيعيون » بأنه سلف فاته معنى فهم جو القصة ، كما فاته  
موهبة تصوير ما يبهج . ولكن « بول بورجيه » حياه كأب للتحليل  
النفسى ، وخالق فكرة حب البلاد جميعاً . وهذا هو رأى « نيتشه »  
و « تولستوى » . ويرى « موريس باريس » أن ستندال يعبر تعبيراً  
صادقاً عن آرائه ومشاعره . وشارل موريس يحشره ضمن هذه الجماعة التي  
يراها مقدسة ، وهى جماعة الرمزيين . أما هنرى ديرينه فقد قام برحلة  
في إيطاليا ، ولم يتردد فى أن يحيى ذكرى « سنفرنبا » فى حدائق فارنز  
ببارم ذات مساء من أمسيات الخريف .

أتيحت لستندال بعد وفاته شهرة كبيرة ، أخذت تزداد عاماً بعد عام  
بوساطة جماعة من الباحثين المجددين الذين أخذوا على عاتقهم نشر جميع  
مؤلفات ستندال ، وكان عليهم أن يقرأوا هذه المخطوطات العسيرة القراءة  
التي سلمها « كولومب » منفذ وصية ستندال إلى مكتبة « جرينوبل »  
وهذه المطبوعات لا تصل إلى أيدي الجماهير التي تكتفي عادة بقراءة قصتين

( ق )

تعدان خير ما كتبهما ، وهما الأحمر والأسود ودير بارم<sup>(١)</sup> . ولكن كتبه الأخرى تلذ قراءتها لأنصار ستنثال من الخاصة الذين يحبونه دون سواه ، ويفضلونه على غيره من الأدباء ، وهو مجد لم يكن بيل يتوقعه .

عبد الحميد الرواضلي

المعادي في ١٥ مارس سنة ١٩٥٦

---

(١) قدمت هذه القصة بجزأها لقراء العربية في أبريل سنة ١٩٤٧ ، وقد طبعتها دار المكاتب المصرية .

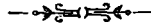
الحقيقتَ ، الحقيقتَ المرّة  
دانته

# الفصل الأول

## مدينة صغيرة

[إن وضع الآلاف معاً لا يضير ، ولكن النقص  
يصح أقل بهجة] .

هورن



مدينة فريير على صغرها من أجمل مدن مقاطعة فرانش كوتيه ،  
فنازلها البيضاء ذات السطوح المديبة المغطاة بالقرميد ، تمتد فوق منحدر  
تلّ نمت فيه - مائلة قليلاً - بعض أشجار من الكستناء الباسقة القوية .  
وهناك يجرى نهر الدو على بعد بضعة مئات من الأقدام في أسفل حصون  
المدينة ، وهي تلك الحصون التي أقامها الأسبانيون في الماضي ، وأصبحت  
الآن أطلالاً بالية .

وفي شمالي المدينة جبل عال هو أحد شعب جبال جورا . وتغطي قمم  
قيرا بالثلوج كل عام حين يبدأ البرد في شهر أكتوبر ، وينحدر من الجبل  
سيل يمرّ بفريير قبل أن يصب في نهر الدو ، أتاح لأهل المدينة إقامة كثير  
من المناشر الخشبية ، وهي صناعة بسيطة نفست كربة العيش عن معظم  
السكان الذين يعتبرون في الواقع فلاحين أكثر منهم برجوازيين .  
ولا يرجع الرخاء في المدينة إلى المناشر وحدها ، ولكنه يرجع إلى مصنع  
النسوجات المرسومة التي تسمى ميلهورز ؛ فقد يسر لأهل المدينة سبيل

العيش حتى أن كل منازل فريير تقريباً قد جدّد بناء واجهاتها منذ سقوط ناپليون .

ولا يكاد داخل المدينة يطأ أرضها حتى تصافح أذنيه ضوضاء صاخبة ، منبعثة من آلة ضخمة مزججة : من نظر إليها رأى عجلة تديرها مياه السيل قد ركب فيها عشرون مطرقة ثقلاً تهزّ طرقاتها الأرض هزاً عنيفاً ، وتضع كل مطرقة بضعة آلاف مسمار في اليوم . وأمام هذه المطارق نرى خييات جيّلات وُكل ، إليهن وضع قطع صغيرة من الحديد سرعان ما تحيلها المطارق مسامير . وهذا العمل الشاق في مظهره يذهل المسافر الذي يعبر لأول مرة تلك الجبال التي تفصل فرنسا عن هلقينيا . وإذا ما سأل المسافر عن هذا المصنع الجميل الذي يصمّ آذان عابر الشارع الكبير في فريير ، أجب بلهجة بطيئة : إنه ملك حضرة العمدة !

وإذا ما تمهّل العابر في مشيته وهو يقطع الشارع الرئيسي الممتد من ضفة نهر الدو إلى قمة التل فكثيراً ما يلتقي رجلاً منديد القامة يدلّ مظهره على الخطورة والجدّ في العمل .

وإذا ما وقعت عليه الأبصار هناك رفعت القبعات في سرعة كبيرة تحية له وإجلالا .

قد اشتعل رأسه شيباً ولبس ثياباً رمادية اللون ، وأنعم عليه بأوسمة كثيرة ، وهو ذو جبهة كبيرة وأنف أفتى ، وإن كان وجهه لا يخلو بوجه عام من تناسق . وقد يشعر الناظر إليه لأول مرة بوقار يفرضه منصب عمدة القرية ، ذلك الوقار الذي يطيب له نفس من كان في الثامنة والأربعين

أو الخمسين من عمره . ولكنّ المسافر الپاریسی سرعان ما یرى فی مثل هذا الوقار زهواً لا یرضیه ، وكبریاء تدلّ علی ضیق فی التفكير وجذب فی الخیال .

ولا شك أن مواهب هذا الرجل مقصورة علی أن یحصل بالدقة كل ماله عند الناس ، مماطلا فی دفع ما علیه إلى أجل غیر معلوم .

تلك هی صورة السید دی رینال عمدة قریر الی یجتاز الشارع فی خطوات متتدة حتی إذا دخل مقر العمدة ، اختفی عن عینی المسافر الی یراقبه . أما إذا استمرّ المسافر فی نزّهته فإنه ملّاقي علی بعد مائة خطوة منزلاً جمیل المظهر تبدو من خلال قضبانه الحدیدیة حدائق رائعة غناء ، خلفها سلسلة من تلال بورجونیا ممتدة وراء الأفق ، فینسیه هذا المنظر البصالح الجو الموبوء الی كاد یخنقه من قبل ... ینسیه جوّ الصالح المادیة التافهة .

لقد علم المسافر إذاً أن هذا المنزل الجمیل هو منزل السید دی رینال ، بناء من الأرباح الی یدرّها علیه المصنع العظیم ، وأقامه من الأحجار المتحوتة ولا یرال مشغولاً بآتمام بنائه . وسمع المسافر كذلك أن العمدة من أسرة أسبانیة یقال إنها عریقة ، سكنت هذا الإقليم قبل أن ینزعو لويس الرابع عشر أسبانيا بزمن طویل .

ومنذ سنة ١٨١٥ بدأ یخجل من أن یكون من رجال الصناعة لأنه أصبح عمدة قریر فی تلك السنة . ویرى المرء جدراناً ذات شرفات بنیت لتسكون أساساً لأجزاء الحدیقة الرائعة ، الی تقرب طبقة بعد طبقة من



نهر الدو فتدلّ دلالة واضحة على معرفة السيدى رينال وخبرته بتجارة الحديد .  
ومثل هذه الحداثق الغناء التي تحيط بالمدن الصناعية الألمانية مثل  
ليزج وفرنكفورت ونورمبرج — لا يوجد لها نظائر في فرنسا . أمّا  
في مقاطعة فرانك كونتيه ، فإنه كلما كثرت جدران المباني ، وكانت  
المتلكات واسعة تحدها أحجار صفّ بعضها فوق بعض ، ازداد المالك  
تحلة واحتراما في نظر جيرانه . وحداثق السيدى رينال مملوءة بالجدران  
التي يعجب بها مواطنوه إعجاباً شديداً ، لأنهم يعلمون مقدار ما بذل  
من مال في شراء مساحات صغيرة من الأرض ليضمها إلى تلك الحداثق  
فكان الداخل مدينة فريير منذ ستة أعوام مثلاً ، يرى مصنع أخشاب  
على ضفة نهر الدو في موقع فريد ، قد كتب على لوح خشبي يعلو سطح هذا  
المصنع اسم سورل بحروف كبيرة . أما الآن فقد أصبح هذا المصنع أثراً بعد  
عين ، إذ حلّ مكانه جدار الشرفة الرابعة من حداثق السيدى رينال .  
وعلى الرغم من كبرياء العمدة اضطرّ إلى أن يتردّد كثيراً على سورل ،  
ذلك الفلاح العجوز العنيد ، ثم دفع له مبلغاً كبيراً من الذهب حملة  
على نقل مصنعه إلى مكان آخر . وأما جدول الماء الذي كان يدير المصنع  
فقد تمكّن دى رينال بفضل المكانة التي تمتع بها في باريس من أن  
يغيّر مجراه ، وقد حصل على تلك الميزة على أثر انتخابات سنة ١٨٢ (١) .  
وقد أعطى العمدة لسورل أربعة أمثال المساحة التي أدخلها في حداثقه ،

(١) لم يشأ استبدال أن يعين تلك السنة التي يقع بعد عام ١٨٢٠ ، لأنه وإن كان  
يكتب تاريخ القرن التاسع عشر إلا أنه يخفى بعض الوقائع والتواريخ على القارىء .  
« للمرب »

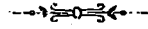
وكان الموقع الجديد أكثر ملاءمة لتجارة ألواح أشجار الصنوبر ، فهو على بعد خمسمائة خطوة من ضفاف النهر . وقد استغل الأب سورل — كما يسميه مواطنوه منذ أصبح غنياً — نفاد صبر جاره العمدة وسيطرة غريزة حب الاقتناء عليه فأخذ منه ستة آلاف من الفرنكات ، ولم يشأ أن يذيع هذا السر بين مواطنيه من سكان ثريير .

على أن الاتفاق كان موضع نقد من ذوى التفكير من أهل المدينة . عاد العمدة من الكنيسة منذ أربعة أعوام ، في يوم من أيام الآحاد ، فأبصر العجوز سورل وقد أحاط به أبنائه الثلاثة ، فابتسم سورل لما وقع نظره على دى رينال . وقلق العمدة من هذه الابتسامة فاضطرب واعتقد أن فى الصفقة غنباً كبيراً عليه ، فقد كان فى مقدوره أن ينال ما يبتغى بثمان بئس . ولا يأخذ أهل ثريير ، على الرغم من كثرة الجدران التى يبنونها ، بأى نمط إيطالى فى بنائهم من تلك الأنماط التى يجلبها البناءون الذين يعبرون مضائق جبال جورا فى كل ربيع وهم فى طريقهم إلى باريس . ولو أن أحد الأهالى أخذ بهذا النوع من التجديد لوصفه مواطنوه بالغفلة وقلة الإدراك ، ولأسقطه أهل الرأى والحجا ، وهم أولئك الذين يتأثر بأحكامهم أهل مقاطعة فرانش كوتيه جميعاً . ويصدر عن هؤلاء من أهل الرأى طغيان شديد ، يجعل الإقامة فى المدن الصغيرة التى يسكنونها عسيرة على الذين عاشوا فى تلك الجمهورية الكبيرة ، التى تدعى باريس . ألا إن التعسف فى الآراء سفه شديد يلقاه الإنسان فى المدن الصغيرة الفرنسية كما يلقاه فى الولايات المتحدة الأمريكية تماماً ، ويا ليتهم كانوا ذوى رأى سديد!

# الفصل الثاني

## عمدة

[ ليست العظمة ياسيدى سوى أن يحترمك البلهاء ،  
ويحار فيك الأطفال ، ويحمدك الأغنياء ، ويحتقرك  
العقلاء ] .  
بارناف



كانت الحديقة العامة التي تقع على مجرى البو وتمتد على حافة التل مسافة مائة قدم في حاجة شديدة إلى جدار يكون دعامة لها ، وقد وطّد هذا الجدار شهرة دي رينال الإدارية . وموقع الحديقة بعدد من أروع المواقع الطبيعية في فرنسا ، إلا أن أمطار الربيع كانت تسقط عليها فتغمرها ، وتحفر فيها قنوات فلا ينتفع بها . وشعر الناس جميعاً بهذا الضرر ، فهبّ السيد دي رينال ليخلد عهدَه ببناء جدار يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً وطوله ثلاثين أو أربعين توازاً<sup>(١)</sup> .

وقد اضطر دي رينال إلى أن يسافر إلى باريس ثلاث مرات من أجل هذا الحاجز ، لأن وزير الداخلية الأسبق كان عدواً للدوداً لحديقة فرير . أصبح هذا الحاجز الآن يرتفع عن الأرض بمقدار أربع أقدام ، وزين ببلاط من الحجر المنحوت استخفافاً بوزراء الداخلية جميعاً الحاليين منهم والسابقين .

(١) التواز مقياس قديم يبلغ ستة أقدام أو ١/٩٤٩ مة أ .

وكم مرة وقفت أمام هذه الأحجار الضخمة ذات اللون الرمادي الضارب إلى الزرقة مستندا إليها بصدري ، مفكرا في مراقص باريس التي غادرتها بالأمس ، ممتعاً بصري بجمال وادي نهر الدو ! .

وخلف الوادي يقع النظر على خمسة أودية أخرى أو ستة على الضفة اليسرى ، تتراءى فيها عل البعد جداول صغيرة تمر مياهها من مسقط إلى مسقط حتى تصب في النهر : أما شمس هذه الجبال فشديدة الحرارة خصوصاً حينما تكون عمودية . وإن أحلام المسافر لا تجد ملاذاً فوق الرصيف في تلك الهاجرة ، إلا ظلال نباتات جميلة يرجع نموها السريع وخضرتها الزاهية التي تميل إلى الزرقة إلى ما وضعه العمدة من طين خلف الحاجز الضخم الذي أقامه ، ثم وسع الحديقة بما يزيد على ست أقدام ، على الرغم من معارضة المجلس البلدي . إن العمدة من المغالين وأنا من الأحرار ، إلا أن هذا لا يمنعني من أن أنثني عليه ، فهو يرى أن سطح حديقة فريير يمكن أن يقارن بسطح حديقة « سان جرمان أن لى » ، ويشاركه هذا الرأي السيد فالنو المدير المحظوظ لصندوق الاحسان في فريير .

وأنا لا أجد ما آخذه على « عمر الإخلاص <sup>(١)</sup> » إلا الطريقة الوحشية التي تقطع بها هذه النباتات القوية الحية ، وعمر الإخلاص اسم رسمي أمر السيد دي رينال بنقشه على قطع من الرخام في أكثر من خمسة عشر

(١) عمر الإخلاص اسم موضع يطلق عليه في الفرنسية ، Cours de la Fidélité ، وكان يحسن أن يبقى الاسم الفرنسي كما هو إلا أننا آثرنا ألا نقحم التعبيرات الفرنسية في ترجمة القصة . المغرب

أو عشرين موضعاً فأنعم عليه بصليب جديد بسبب ذلك . كانت الأشجار تقطع في غير رحمة ولاشفقة ، ليت هذه النباتات تلتقي من العناية والتنسيق ماتلقاه في انجلترا تلك النباتات النافذة ذات الرؤوس المنخفضة المستديرة للمسوحة ، التي تستعمل في عمل الحساء . لكن رغبة العمدة يجب أن تنفذ ولايقف أمامها شيء ، وعلى هذا فكل أشجار الناحية تشذب مرتين في العام وتقطع أغصانها في كثير من القسوة والوحشية . ويدعى الأحرار أن يد البستاني الرسمي أصبحت أكثر قسوة منذ أن اتخذ مالون نائب الأسقف عادة الإستيلاء على كل مايقطع من هذه الأشجار ، لكنهم مغالون في زعمهم هذا .

جاء مالون من بيزا نسون منذ بضعة أعوام ليراقب السكاهن شيلان وبعض كهنة الضواحي . وأقام في فريبر طيب جراح كان ضابطاً عظيماً في جيش إيطاليا ، وكان كما يقول دى رينال يعقوبياً من أنصار بوناپرت ، وسوّلت له نفسه يوماً أن يشكو إلى العمدة أمر تقطيع الأشجار على تلك الصورة الوحشية ، فأجابته في لهجة تنفق مع مكانة الجراح الذي يحمل وسام الشرف ، لكنها لا تخلو من كبرياء .

— إنى أحب الظل ، نعم أحبه وأمر بتشذيب أشجارى إبتغاء الظل ، ويخيل إلى أن الشجرة لم تخلق إلا لتظللنا ، اللهم إلا إذا درت علينا دخلاً كما تفعل شجرة الجوز .

وتمثل هذه النزعة النفعية فكرة عامة شائعة في ثلاثة أرباع سكان مدينة فريبر . فإدرار الدخل تعبير له الصدارة في تلك البلدة الجميلة .

والغريب الذي يفد عليها ويعجب بحال وديانها وروعة مناظرها ، يعتقد أن سكانها يحبون الجمال ويتأثرون به ويحرمون في عروقهم ، وهم كثيراً ما يتحدثون عن جمال إقليمهم وإن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم اتخذوها وسيلة ليهبط عليهم الأجانب فيغدقوا الأموال على أصحاب النزل الذين يدفعون بدورهم ضرائب للبلدية ، وعلى هذا فهي وسيلة تدرّ على البلدة المال الوفير .

كان الفصل خريفاً واليوم جملاً حين كان السيد دي رينال يتنزّه مع زوجته التي أمسكت بذراعه ، منصته إليه ، وهو يتكلم في لهجة رزينة وبصرها يتبع في قلق حركات ثلاثة أطفال ، أكبرهم يبدو في الحادية عشرة من عمره ، حين اقترب من الحاجز ، ودلت حركته على أنه يرغب في الصعود عليه ، إلا أن صوتاً رقيقاً نادى : أدولف ! فأعرض الطفل عن مشروعه الجريء . ومدام دي رينال اليوم في الثلاثين من عمرها إلا أنها لا تزال جميلة .

قال دي رينال لزوجته في غيظ ووجهه شاحب :

— هذا السيد الباريسي الجميل سيندم على ما يفعل ، إن لي أصدقاء

في القصر<sup>(١)</sup> . . .

---

(١) تعبير دارج زمن سنندال ، يراد به بلاط الملك الذي كان مقره وقتذاك

خاصة قصر سان كلو . « العرب »

ولو أنى أحببت أن أتحدث إلى القارىء عن الريف لتحدثت طويلاً ، ولسّطرت مائتي صفحة ، ولكنى أعفنيه من سماع طويل الأحاديث الريفية التي لا تخلو من الإطناب وتنطوي على الحذر والحيلة . والسيد الباريسي الجميل الذي يكرهه عمدة فريير هو مسيو أبير<sup>(١)</sup> ، الذي تمكن قبل ذلك بيومين من أن يجد طريقة يتسلل بها إلى سجن المدينة ، ويوزر صندوق الإحسان والمستشفى الذي يشرف عليه بالجنان عمدة فريير كما زار أهم الممتلكات في المدينة .

فقلت مدام دى رينال محببة زوجها في حياء :

— وماذا يضريك من هذا السيد ما دمت تشرف على أموال الفقراء في أمانة تامة ؟

— إنه لا ينبغي من وراء ذلك غير اللوم والقدح ، وسيكتب مقالات في صحف الأحرار .

— وماذا يعينك وأنت لا تقرأ هذه الصحف أبداً يا صديقي ؟

— سيتحدث الناس عن هذه المقالات المتطرفة فتشغل بها ، ونعرض عن عمل الخير ، إنني لن أصفح مطلقاً عن القس .

---

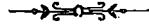
(١) مسيو أبير كان محرر صحيفة السجون وعضواً بجمعية السجون ، زار أنطوان برتية في سجنه وطلب العفو عنه . وستندال حين يتحدث عنه منذ بداية قصته هذه ، يطأنا على رغبته في أن يؤرخ عصره . « المغرب »

# الفصل الثالث

## أموال الفقراء

[ إن القس الورع ، الذى لا يعرف الدس ، ليعبد  
عناية إلهية لقرينه ] .

فلورى



إن قسّ ثريير ليتمتع بصحة جيدة وخلق صارم بفضل هواء الجبال ،  
وإن كان قد بلغ الثمانين من عمره . وهو بحكم مركزه يستطيع أن يزور  
السجن والمستشفى وملجأ الفقراء كل ساعات النهار . وكان المسيو أبير قد  
وصل فى الساعة السادسة صباحاً إلى تلك المدينة الصغيرة القريبة ، حاملاً  
خطاب توصية إلى القس فذهب توجاً إلى داره .

والخطاب من المريكز دى لامول الذى يحمل لقب سيد من سادة  
فرنسا ، وبعد أغنى أصحاب الأموال فى المقاطعة كلها ، ولم يكد القس شيلان  
يفرغ من قراءة الخطاب حتى فكر برهة ثم قال فى صوت خفيض :  
أنا عجوز ومحجوب من جميع الناس ، وعلى هذا فلن يجرؤوا . . . ! ثم  
التفت إلى السيّد الباريسى وألقى عليه نظرة تنبعث فيها النار المقدسة التى  
لم تحببها الشيخوخة ، والتى تم عن السرور للقيام بمهمة خطيرة ، ثم قال :  
— تعال معى يا سيدى ، وعليك ألا تبدى أية ملاحظة أمام حراس  
السجن ، وألا يصدر عنك رأى أمام رجال ملجأ الفقراء ، بل الزم الصمت ،  
وشاهد ولا تتكلم .



فأدرك مسيو أبير أن القسّ طيب القلب ؛ ثم تبعه وزار السجن ومأوى الفقراء والمستشفى ، وأخذ يسأل أسئلة كثيرة ، أجب عنها إجابات غامضة ، لكنه لم يوجه إلى أحد لوماً . واستغرقت هذه الزيارة بضع ساعات ، دعا بعدها الخوري مسيو أبير ليتناول معه طعام الغذاء ، فاعتذر الباريسي بكثرة الخطابات التي يريد أن يكتبها ، لأنه لم يشأ أن يفسد الأمر على رفيقه الكريم . وكانت الساعة الثالثة فعادا إلى الملجأ لئلا تفقده ، ثم رجعا إلى السجن ، فوجدا بالبواب سجانا ، فارع الطول ، تبلغ قامته ست أقدام ، مقوس الساقين ، لثيم الوجه مرعبه ، كريبه ، ورأى السجنان القسّ فابتدره قائلا :

— آه ! أليس هذا السيد الذي معك هو السيد أبير ؟

— وماذا تعنى ؟

— إن لدى أمراً صريحاً منذ أمس أصدره مدير المقاطعة وأرسل به شرطياً ، جرى الليل بطوله ليبلغه إلينا ، وهذا الأمر هو ألا ندع مسيو أبير يدخل السجن .

— أحب أن أخبرك يا سيد نوارو أن الشخص الذي معي هو مسيو أبير وعليك أن تعلم أن لي الحق في دخول السجن في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ، ولي الحق في أن يصحبنى في زياراتي من أشياء من الناس . فطأ السجان رأسه وأجابه في صوت خفيض كأنه كلب خشي أن يضرب :

— لكن يا سيدى القسيس ، إن لي زوجاً وأطفالا وأخشى أن

أفضل من عملي إذا أنا خالفت الأوامر . فقال الخورى متأثراً :

— ويحزنتني أن أفقد أنا منصبى . فقال السجان فى قوة وحمية :

— يا لبون الشاسع يا سيدى ! إن الناس يعلمون أن دخلك لا يقل  
عن مائة فرنك ، وإنه لدخل عظيم . . . .

هذه هى الوقائع التى زيد عليها وبلغ فيها كثيراً ، وأخذت عوامل  
البغضاء التى تملأ نفوس أهل تلك المدينة الصغيرة ترددها منذ يومين ،  
وهى نفس الوقائع التى كان يتحدث عنها السيد رينال منذ لحظة إلى زوجه .  
وفى الصباح ذهب العمدة يتبعه السيد فالنو مدير ملجأ الفقراء إلى منزل  
القس ليخبراه بأنهما غضبا عليه غضباً شديداً من فعلته هذه . ولم يكن  
لهذا القس أحد يعتمد عليه فى دفع الأذى عن نفسه فأدرك ما كانا يريان  
إليه ، ولم يتردد فى أن يقول لهما :

— حسناً أيها السادة ! لن أكون أول قس يعزل من منصبه وهو  
فى الثمانين من عمره ، فقد عزل قبلى قسيسان فى هذه المقاطعة . إني هنا  
منذ ست وخمسين سنة . ولم تكن فرير يوم وفدت عليها إلا قرية  
صغيرة ؛ لقد تمهدت جميع سكانها تقريباً ، وإني أزوج كل يوم شاباً ،  
زوّجت من قبل آباءهم وأجدادهم . إني أعدّ أهل فرير أيها السادة جميعاً  
أهلى وعشيرتى ؛ وحينما رأيت هذا الرجل قلت فى نفسى : إنه قادم من  
باريس ، وقد يكون من الأحرار ، لأنهم كثيرون فى عاصمتنا ، ولكن  
أى ضرر يلحق فقراءنا وسجناءنا مما نتمنى عليه ؟

فاشتد غضب السيدين على القس العجوز ، وكانا قالوا أكثر حقدًا

عليه من العمدة ، فصاح القس في صوت مضطرب :

— حسناً أيها السيدان ! إعمالاً على عزلى من منصبى إن أردتما

ذلك ، ولكن اعلموا أنى سأظل مقياً بقرير . والناس جميعاً هنا يعلمون  
أنى ورثت حقلاً يدرّ على ثمانمائة فرنك سنوياً ، وسأعيش من هذا  
الدخل ، وما كنت أقتصد شيئاً من مرتبى فأسى عليه حين أعزل  
من منصبى .

كان السيد دى رينال يعيش مع زوجه عيشة راضية ، لكنه كاد  
يغضب حين عجز عن أن يجد جواباً لسؤالها الذى وجهته إليه قائلة : أى  
ضرر يصيب المسجونين لو رآهم هذا الباريسى ؟ لكن صيحة زوجه حالت  
بينه وبين الغضب ، صيحة أطلقتها حين رأت ابنها الثانى قد تسلق الحاجز  
وأخذ يعدو عليه ، فارتاعت لأن الجدار يعلو أشجار الكرم التى تنمو  
فى الناحية الأخرى بمقدار عشرين قدماً . ولم تشأ أن تخيف ابنها بالتحدث  
إليه حتى لا يسقط فى الهاوية ، فكننت تراه يضحك معجباً بشجاعته ،  
حتى إذا ما بدا لعينيه شحوب أمه ، قفز فى الحديقة ثم جرى نحوها ،  
فأخذت الأم تؤنبه تأنيباً شديداً .

وغيرَ هذا الحادث اليسير مجرى الحديث بين الزوجين ، فقال لها

دى رينال :

— أنا مصمم على أن أتخذ سورل ابن ناشر الأخشاب مربيةً لأولادى

ومشرفاً عليهم ، فقد أصبحنا لا نقدر على ذلك . إنه قسّ شاب عالم  
باللاتينية ، يستطيع أن يعين الأطفال على تحصيل الدروس ؛ وقد أخبرنى

القس بأنه فوق هذا كله على خلق عظيم . سأعطيه ثلاثمائة فرنك أجراً له على عمله ووجبات الطعام . لقد كنت أشك في خلقه من قبل ، لأنه كان الطفل المدلل لذلك الجراح العجوز الحاصل على وسام الشرف ، والذي أقام عند أسرة سورل بحجة أنه من ذوى قرباهم ؛ ويحتمل إلى أن هذا الرجل لم يكن إلا جاسوساً للأحرار ، وإن زعم أن هواء الجبال يشفيه من الربو ، ولكنه زعم لم يتحقق بعد . لقد حارب هذا الرجل مع بوناپرت في إيطاليا ، ويقال إنه كان ضد الامبراطورية . وقد علم هذا العجوز اللاتينية لابن سورل ، وترك له عدداً كبيراً من الكتب التي كانت معه . لهذا كله لم أشأ أن أضع أولادى من قبل بين يدي هذا الشاب ، ولكن القس أخبرنى قبل المشادة التي حدثت بيننا بليلة واحدة أن ابن سورل يدرس اللاهوت منذ ثلاثة سنوات ليدخل المدرسة الإكليريكية ، فهو إذاً ليس من الأحرار فضلاً عن أنه يعرف اللاتينية .

ثم نظر دى رينال إلى زوجه نظرة لها مغزها واستطرد : هذا الاقتراح يوافقنا لعدة أسباب ، منها أن قالنو معجب إعجاباً شديداً بالجوادين النورمنديين اللذين اشتراها لعرته ، ولكنه لم يحصل بعد على معلم لأولاده .

بـ وفي استطاعته أن يأخذ منا هذا الذى نتحدث عنه .

فنظر دى رينال إلى زوجه وابتسم شاكراً لها الرأى الحصيف الذى أبدته وقال :

— أنت إذاً تقرين المشروع ، إننا متفقان .

— يا إلهي ! إنك لسريع البتّ في الأمور يا صاحبي !

— إني ذو خلق ، وقد رأى القس ذلك في وضوح وجلاء . على  
أنى أحب أن تتكلم في صراحة فأنت تعلمين أننا محاطون هنا بالأحرار ،  
وجميع تجار المنسوجات يحسدونني ، وأنا واثق من هذا كل الثقة ، وقد  
أصبح اثنان أو ثلاثة منهم أغنياء ؛ وعلى هذا أحب أن يروا أطفال  
السيد دي رينال يذهبون إلى الحديقة العامة ومعهم معلمهم ! فهذا له أثره  
في نفوسهم . وكثيراً ما حدثنا جدنا أنه قد كان له مرب في صباه .  
والمرابي لن يكلفنا أكثر من مائة إيكو<sup>(١)</sup> ، وهو مبلغ يجب أن يدخل  
في باب المصروفات الضرورية لنحافظ على مكانتنا .

وكان لهذا القرار المفاجيء أثره في نفس مدام دي رينال ، ففكرت  
في الأمر . ومام دي رينال سيدة طويلة القامة معروفة بالجمال بين مواطنيها  
من سكان هذه الجبال ، حتى كانوا يقولون عنها إنها أجمل النساء . لا يخلو  
سلوكها من روح البساطة والشباب ، ويستطيع الباريسي أن يصف ظرفها  
القويّ الساذج ، البريء ، بأنه مشوب بلذة رفيقة ، ولو أنها علمت هذا  
الرأى تلجلت منه أشدّ الجلجل ، لا يعرف التكلف والدلال سييلا إلى  
قلبيها النقي . وقد حاول مسيو قالنو المدير الفني للمجأ الأيتام أن يغازلها فلم  
يستطع أن يظفر منها بشيء ، ولم يلاق إلا صموداً وجفوة ، وكان لمسلكها  
هذا صداه فألقى ضوءاً جديداً على مقدار عفافها وتمسكها بالشرف ، لأن  
السيد قالنو من أولئك الذين يتصفون بالجلبة والفظاظة ، وإن كان شاباً  
(١) الإيكو عملة فرنسية قديمة تبلغ قيمتها ثلاثة فرنكات أو ستة فرنكات .  
« المرعب »

بطويلاً ، قوى الجسم ، وردى الوجه ، يتدلى شعره الأسود على عارضيه ،  
إنه من أولئك الذين يعدّهم سكان الريف من أهل الجمال .

ومدام دى رينال شديدة الحياء ، تدلّ الظواهر على أنها ذات خلق  
متغير ، لا تحب من فالنو حركته الدائمة وجلبة صوته . وكان زهدا فيما  
يسميه أهل فريير سروراً ، جعل الناس يعتقدون أنها معتزة بمحتدها  
فخورة به .

ولكن هذه الفكرة لم تتسلط على ذهنها في يوم من الأيام ، وإن  
كانت سعيدة بعدم زيارة أهل البلدة لها . ولا نستطيع أن نحفي رأى  
سيدات فريير فيها ، فقد كنّ يصفنها بالبله ، لأنها لم تتمتيز الفرص فتلبس  
القبعات الجميلة ، التي تشتري من باريس أو بيزانسون ؛ ولو أنها أرادت  
ذلك ما وجدت تعسفاً ولا معارضة من زوجها ، غير أنها لم تكن تبغى  
إلا العزلة ، تنزه مفردة في حديقته الغناء . وكانت ساذجة النفس ،  
لا يسمو فكرها إلى الحكم على زوجها أو الاعتراف بأنها تلتقى في الحياة  
معه مللا وسامة . تعتقد في نفسها دون أن تعلن على الملأ أن العلاقة  
الزوجية أسمى العلاقات ، فهي تحب زوجها حين يتحدث إليها عن  
المشروعات التي أعدها لمستقبل أولادها ، وحين يفضي إليها بأنه يود أن  
يكون ولدهما الأول جندياً والثاني قانونياً والثالث قسيساً ، وهي ترى مع  
ذلك أن زوجها أقل إملالا من جميع من تعرفهم من الرجال .

وقد كان هذا الرأى ، الذى أمّلته الزوجية رأياً معتدلاً ، فقد عرف

عمدة فريير بالنسبة وخفة الظل لأنه ورث عن أحد أعمامه ست فكاهات،  
يرددها في أحاديثه . وكان هذا العم قائداً عجوزاً يعمل بفرقة المشاة في جيش  
الدوق دورليان قبل قيام الثورة ، ثم ذهب إلى باريس فاستقبل في صالونات  
الأمير حيث قابل مدام دي مونتسون ومام دي جنليس الذائعة الصيت  
ومسيو دو كريبه مخترع باليه<sup>(١)</sup> رويال .

وهذه الأسماء كثيراً ما تتردد في حديقة السيد دي رينال ، ولكن  
تذكريات هذه الأشياء الدقيقة قد أصبحت غسيرة عليه بمرور الزمن ، فهو  
لا يتحدث الآن بما كان يجري في أوساط أسرة دورليان إلا في المناسبات  
الكبيرة . إنه لجم الأدب إلا حينما يتحدث عن المال . وعلى هذا ، كان  
السيد دي رينال يعدُّ بحق أكثر سكان فريير أرستقراطية .

---

(١) كانت مدام دي مونتسون قد تزوجت سراً بفيلب إيجليتيه وعهدت إلى ابنة  
أخيها مدام دي جنليس : أمر تربية الدوق دورليان الذي حكم باسم لويس فيلب . أما ابن  
أخيها المركيز دو كريبه فقد كان المحرض على التغيير الذي أصاب باليه رويال . «المغرب»

# الفصل الرابع

## أب وابن

[ إذا صح هذا ، فهل يقع الخطأ على ؟ ]  
مكيافلي



نزل العمدة في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي متجها إلى مصنع الأب سورل وهو يحدث نفسه : إن زوجي لعميقة التفكير حقاً ! ذلك أننى لم أكتشفها برأى إلا لأحتفظ لنفسى بمالى من تفوق عليها ، ولكنى أعترف بأننى لم أفكر فى أن مدير الأموال قد تطرأ عليه فكرة الاستعانة بسورل فى تربية أولاده ، وسورل يعرف اللاتينية معرفة دقيقة كما يقولون ؛ نعم لم أفكر فى أن المدير الذى لا يستقر له قرار ، يستطيع أن يأخذ منى هذا الربى إذا طرأت له نفس الفكرة ، ثم بأية لهجة تنطوى على الكبرياء سيتحدث المدير عن مربي أولاده ! لا بد لي منه... وحينما يصبح فى خدمتى فهل يرتدى ثياب الكهنة ؟

كان السيد دى رينال مستغرقاً فى هذه الأفكار ، حينما رأى عن بعد فلاحاً مديد القامة يبلغ طوله ست أقدام ، مكباً على قياس قطع من الخشب ، موضوعة على ضفة نهر الدو ، فى طريق جرد السفن ؛ وبقدر ما سمح له الضوء الضئيل ، استطاع أن يتبين أن الفلاح لم يسر لرؤيته ، لأن الأخشاب كانت تسد الطريق ، ووضعها هنالك يعد مخالفة .



ولم يكن هذا الفلاح سوى الأب سورل، وقد دهش حين رأى العمدة، ثم سرّ كثيراً لاقتراحه الغريب بشأن ابنه جوليان . وكان سورل ينصت إليه في هيئة تدل على حزن يخفي سروراً، ونزاهة تحجب وراءها أغراضاً، وهي علامات يتقن إبداءها سكان الجبال في مهارة فائقة، لأنهم لا يزالون عبيداً لاحتلال الأسبان، ولا يزالون يحفظون بالطابع الذي نراه واضحاً على وجه الفلاح المصرى .

كانت إجابة سورل، أول الأمر، مقصورة على ترديد عبارات التجلّة التي حفظها عن ظهر قلب وتنطوي على الزيف والخداع، ثم ابتسم للعمدة ابتسامة خرقاء كست وجهه كذبا وخبثا يكادان يكونان طبيعة فطر عليها .

وكانت نفسه البسيطة، نفس الفلاح العجوز، تحاول أن تكشف سرّ إهتمام رجل عظيم كهذا بأمر ابنه الفاشل الذي أينما وجهه لا يأتي بخير. كان الأب سورل كاسف البال من ابنه جوليان الذي يريد العمدة الآن أن يأخذه إلى منزله ويعطيه مبلغاً عظيماً، يعطيه ثلاثمائة فرنك في السنة غير الطعام والكسوة . على أن دي رينال لم يكن قد فكّر في أن يكسو جوليان، ولكن عبقرية سورل ألهمته بأن يقترح عليه ذلك، فلم يتردد العمدة في القبول .

وإن أثار هذا الاقتراح في نفسه حتى ظن أن سورل غير سعيد بما طلبه منه الآن، لأن قائلو قد سبقه إلى الحديث معه في هذا الشأن، ومن ذا الذي يحدثه في ذلك غير قائلو؟

وحاول دى رينال عبثاً أن يعجّل في إنهاء الضفقة ، فقال بينه وبين ذلك ذهاء هذا الفلاح العجوز الذى أصرّ على الرفض ، زاعماً أنه يريد مشاورة ابنه كما يأخذ الأب الغنى رأى ابنه الفليس في أمر من الأمور على عادة أهل الريف مجازاة على الأقل لظواهر الأمور .

يتكوّن المنشار الذى يدار بالماء من سقيفة تقام على حافة جدول ، يرتكز سقفها على أخشاب تحملها أربعة أعمدة من الخشب السميك ؛ وفي وسط السقيفة يرى الإنسان على ارتفاع ثمان أو عشر أقدام منشاراً يصعد وينزل ، ينشر خشبة تدفعها إليه حركة آلية سهلة ، تبعثها إليه عجلة تحركها مياه الجدول التي تحرك المنشار ، فتدفع الخشبة إليه دفعاً رقيقاً ليقطعها ألواحاً .

واقترب الأب سوزل من المصنع ونادى ابنه جوليان بصوت عالٍ قوياً ، ولكنه لم يجب ندائه ؛ ولم يرَ من بعد إلا ابنيه الكبيرين بقامتيهما اللدينتين يحمل كل منهما فأساً ضخمة ثقيلة ، وقد أكبا على جذوع بعض الأشجار الصنوبرية يقطعانها بطريقة مربعة لتحمل إلى المنشار داخل المصنع . وكانا مشغولين بتتبع العلامات السوداء التي رسمت في القطع الخشبية ، وكانت كل ضربة من ضربات الفأس تفصل قطعاً كبيرة من النجارة ، ولهذا لم يسمعا صوت أبيهما وهو ينادى أخاهما ، فاتجه الأب إلى السقيفة يبحث عن جوليان في المكان الذى أعد له بجوار المنشار فلم يجده ، ومدّ بصره فوجده راكباً خشبة ترتفع عن الأرض خمس أقدام أو ستاً تقريباً ، مكباً على القراءة معرضاً عن حركة المصنع ، غير مبال بالآلات التي

كَلَّفَ الإِشْرَافَ عَلَيْهَا . وَكَانَ الأبُّ سَورِلَ يَكْرَهُ كَرَاهِيَةً شَدِيدَةً أَنْ يَرَى ابْنَهُ مَكْتَبًا عَلَى الْقِرَاءَةِ ، بَلْ هُوَ نَفْسُهُ لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ ، وَإِذَا جَازَلَهُ أَنْ يَغْفَى جُولِيَانَ لِنَحْوِهِ ، مِنْ الأَعْمَالِ البَدَنِيَّةِ الَّتِي يُؤَدِّيهَا أَخْوَاهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْفَحَ عَنْهُ حِينَ يَرَاهُ وَقَدْ شَغَلَتْهُ الْقِرَاءَةُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ .

رَأَاهُ كَذَلِكَ فَنَادَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَلَمْ يَسْمَعْ الابْنَ النِّدَاءَ ، لِأَنَّ انْتِبَاهَهُ مَحْصُورٌ فِي الكِتَابِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلِأَنَّ المُنْشَارَ يَحْدُثُ ضَوْءًا شَدِيدًا فَلَمْ يَتَّحِ لَهُ أَنْ يَسْمَعَ نِدَاءَ وَالِدِهِ المَزْعُجِ . عِنْدَئِذٍ قَفَزَ الأبُّ بِحَقْفَةٍ عَلَى الرِّغْمِ مِنْ شَيْخُوخَتِهِ إِلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي كَانَتْ تَنْشُرُ ، ثُمَّ وَصَلَ مِنْهَا إِلَى الخَشْبَةِ المَعْتَرِضَةِ الَّتِي يَرْتَكِزُ إِلَيْهَا سَقْفُ المَصْنَعِ ، وَهُوَ بِضَرْبَةِ قُوَّةٍ عَلَى الكِتَابِ أَطَارَتْهُ مِنْ يَدِ ابْنِهِ وَاسْتَقَرَّتْ بِهِ فِي الجَدُولِ ، ثُمَّ لَطَمَهُ لَطْمَةً قُوَّةً أُخْرَى عَلَى رَأْسِهِ ، جَعَلَتْ جُولِيَانَ يَفْقَدُ تَوَازُنَهُ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ بَيْنَ عَجَلِ الآلَةِ الدَّائِرَةِ . وَلَوْلَا أَنْ أَمْسَكَهُ أَبُوهُ بِيَدِهِ الِيسْرَى ، وَهُوَ يَسْقُطُ مِنْ هَذَا العُلُوِّ الَّذِي يَبْلُغُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قَدَمًا أَوْ أَكْثَرَ لَقَضَى المَسْكِينُ نَجْمَهُ وَمَرْزَقَتَهُ الآلَةُ شَرًّا مَمْرُوقًا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَبُوهُ :

تَبًّا لَكَ مِنْ كَسُولٍ ! أَتَقْرَأُ هَذِهِ الكِتَابَ المَلْعُونَةَ وَأَنْتَ مَوْكَلٌ بِالإِشْرَافِ عَلَى المُنْشَارِ ؛ إِقْرَأْ فِي المَسَاءِ كَمَا يَحْلُولُكَ حِينَ تَضَيِّعُ وَقْتِكَ عِنْدَ القَيْسِ . وَاقْتَرِبْ جُولِيَانَ مِنَ المُنْشَارِ ، وَلَوْ أَنَّ الضَّرْبَةَ أَحْدَثَتْ لَهُ دَوَارًا . وَتَقَاطَرِ الدَّمُ مِنْهُ ، وَقَدْ اغْرورَقَتْ عَيْنَاهُ بِالدَّمِوعِ لِأَنَّ اللُّأْلُمَ الَّذِي أَصَابَهُ وَلَكِنْ لَفَقَدَ الكِتَابَ الَّذِي كَانَ يَعْتَرِزُهُ بِإِعْتِرَازٍ شَدِيدٍ . وَصَاحَ بِهِ الأبُّ ثَانِيًا :

— إِنزِلْ أَيْهَا الحَيَوَانَ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ .

ولكنّ ضوضاء الآلة حالت بينه وبين سماع أمر أبيه .  
ولست قدما الأب في تلك اللحظة أرض المصنع ولم يشأ أن يصعد  
مرة أخرى إلى جوار الآلة ، فذهب ليحضر خشبة طويلة دقيقة تستعمل  
في إسقاط ثمار الجوز ، وضرب بها ابنه على كتفه .  
ولم يكد جوليان يصل إلى الأرض حتى دفعه أبوه أمامه دفعة قوية  
تجاه المنزل ، فأخذ الابن يقول في نفسه : لا يعلم إلا الله ما يراد بي ! ونظر  
إلى الجدول في أسى بالغ ... لقد فقد كتابه العزيز : مذكرات سانت  
هيلانة الذي كان أحبّ كتاب إلى قلبه .

كان جوليان أرجوانيّ الخدين منخفض النظر في الثامنة عشرة  
أو التاسعة عشرة من عمره ، يدلّ مظهره على الضعف ، غير منتظم التقاطيع  
إلا أنه رقيقها . أنفه أفتى ، وعيانه سوداوان واسعتان ، كانتا تعبران  
في تلك اللحظة عن الكراهية الشديدة ، وإن كانتا تمان في ساعات الرضى  
والاطمئنان عن ذكاء وجدّ وعمق في التفكير .

شعره كستنأىّ داكن يشغل حيزاً كبيراً فلا يترك له إلا جهة صغيرة  
فأضنى عليه ذلك لوناً من ألوان الشرّ إذا ما غضب ، وتلك علامة مميزة له ،  
لا نجد لها نظيراً في وجوه البشر على اختلافها وتباينها ، ذوقوام رشيق  
ممشوق يدلّ على الخفة أكثر من دلالاته على القوة ، شاحب اللون منذ  
طفولته ، دائم الوجوم . فاعتقد أبوه أنه لن يعيش طويلاً ، وإن عاش  
فسيكون عبثاً على الأسرة . وكان موضع ازدراء من يعيش معهم ، فشبّ  
على كراهية أبيه وأخويه ، وهو مغلوب على أمره دائماً ، لا يصيبه التوفيق

لأق ألعاب أيام الأحد ، ولا فى المىدان العام .  
لكن جمال وجهه بدأ يفزرو قلوب بعض الفتيات منذ عام واحد ،  
كان محقراً لضعفه ، ولذلك أقبل على هذا الجراح الشىخ الذى جرؤ على  
أن يتحدث إلى العمدة يوماً فى شأن النباتات ، فأحبه جوليان حبا  
شديداً .

وكثيراً ما كان الجراح يدفع للأب سورل أجر ابنه جوليان الیومی  
لیتركه له یعلمه اللاتینیة والتاریخ ، وعلى الأصح ما یعرفه من التاریخ وهو  
حرب عام ١٧٩٦ فى إیطالیا . وقبل أن توافیه المنیة ترك لجولیان صلیب  
وسام الشرف ، وبقایا دخل ضئیل ، وثلاثین أو أربعین مجلداً ، كان أعزها  
علیه ذلك الكتاب الذى ألقى به أبوه فى الجدول العام الذى عُبرَ مجراه  
بفضل العمدة .

دخل جولیان المنزل فشعر بالید القویة ، یدأیبه تمسك بكتفه ، فاضطرب  
لأنه كان یتوقع لطمات أخرى ، ثم صاح الفلاح الشىخ فى أذن ابنه بصوته  
القاسى الرهیب :

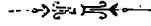
— أجبنى فى صدق . وكان قد أمسك بابنه وأداره نحوه ، كما تدير  
ید الطفل جندياً مصنوعاً من الرصاص ، وكانت عینا جولیان السوداوان  
الواسعتان مغرورتین بالدموع ، مواجھتین عینی النجار المعجوز الصغیرتین  
الرمادیتین ، اثنتین تریدان أن تقرآ ما فى قرارة نفس الفتى .

# الفصل الخامس

## مفاوضات

[ علاج الأمر بالتريث ]

لينوس



- أجبني صادقاً إن استطعت إلى ذلك سبيلاً أيها الكلب اللئيم .  
أين تعرفت بدمام دي رينال ؟ ثم متى تحدثت إليها ؟  
— لم أر هذه السيدة إلا في الكنيسة ؟ ولم أحدث إليها أبداً .  
— ولكن ألم تنظر إليها أيها الماغن السفيه ؟  
فأجابه جوليان في نفاقٍ أراد به أن يتجنب صفعات أخرى  
من أبيه :  
— أبداً يا ابتاه ! فأنت تعلم أنني حينما أكون في الكنيسة لا أتوجه  
إلا لله وحده . فأطرق الفلاح الماكر برهة ، ثم قال :  
— في الأمر شيء لا تريد أن تفضي به إلى أيها المنافق اللعين . لقد  
كسبت عطف القسيس أو أي إنسان آخر فحصلوا لك على عمل مريح ،  
فأغرب عنى الآن وأعدد عدتكَ لأذهب بك إلى السيد دي رينال ، فقد  
أصبحت معلماً لأولاده .

— وماذا سيعطيني مقابل هذا العمل ؟

— الطعام والكساء وثلثمائة فرنك .

— لأريد أن أكون خادماً .

— ومن قال لك هذا أيها الحيوان ؟ وهل أقبل أنا أن يكون

ابنى خادماً ؟

ولكن مع من سأتناول طعامي ؟

وأتق هذا السؤال المفاجئ حيرة في نفس الشيخ سورل ، ولم يشأ

أن يتكلم خشية أن يرتكب حماقة ، ثم أخذ يسب ابنه سباً شديداً ويتهمه  
بالبطنة ، وبعد ذلك تركه ليشاور ابنه الآخرين في هذا الأمر الخطير .

وبعد برهة ، رأى جوليان أخويه يتكلم كل منهما على فأسه

ويتشاوران في أمره ، فأخذ ينظر إليهما برهة لعله يدرك ما يتحدثان به .

ولم يفهم شيئاً من حديثهما ، فانصرف إلى الجهة الأخرى من المصنع ليتفادى

الإتهام باستراق السمع ، وليخلو إلى نفسه من ناحية أخرى ليفكر في هذا

الخبر المفاجئ الذي سيغير مجرى حياته . وكان يشعر في قرارة نفسه بأنه

ليس أهلاً لهذا المنصب الجديد .

وظل يفكر في مصيره ولكن بلا حكمة ولا روية ، لأن خياله طار به

إلى تلك النفائس التي حواها منزل السيد دي رينال ، فأخذ يحدث نفسه

يجب أن أرفض هذا العمل حتى لا آكل مع الخدم . إن والدي يريد أن

يرغمني على قبوله ، ولكن الموت خير لي من الإذعان .

إن لدى خمسة عشر فرنكاً وبضعة سنتيمات أتصدتها ، فلأقر هذه

الليلة إلى بيزانسون فأصلها بعد يومين ، وسأحرص على أن أسلك طريقاً

لا يغشاها رجال الشرطة . سأنتظم في سلك الجندي ، وإذا اضطررت إلى

السفر إلى سويسرة فلن أتردد في ذلك على أنى لن أطمع في أى تقدم أو أصيب أى نجاح في حياتى مادام قد حيل بينى وبين الحياة التى كنت أطمح إليها : حياة القسيس التى ينال فيها الإنسان كل ما يصبو إليه . لم يكن إشمئزاز جوليان من أن يأكل مع الخدم طبعاً فيه فإنه يفعل أكثر من ذلك فى سبيل المال ، بل كان تطبعا اكتسبه من قراءة اعترافات روسو ، الذى كان يعتمه الحياة ويرسم له الطريق ، والذى جعل منه جوليان ، مع كتابى مذكرات سانت هيلانه ومجموعة أخبار الجيش الكبير ، إنجيلاً له وقرأنا يعترز بها ويفضلها على حياته ، ولم يكن يؤمن بكتاب آخر غير هذه الكتب متأثراً فى ذلك بكلمة للجراح الشيخ حين قال له إنه يعد الكتب الأخرى سلسلة من الأكاذيب كتبها دجالون ليصيبوا نجاحاً فى الحياة الدنيا . وكان جوليان تأثر النفس ، قوى الذاكرة لا يكاد ينسى شيئاً حتى ولو كان تافهاً ، وقد أراد أن يكسب عطف القس العجوز شيلان ومحبهه ، فحفظ العهد الجديد باللغة اللاتينية عن ظهر قلب ، ودرس كتاب مسيو دى متر عن البابا ؛ وإن كان لا يؤمن بما جاء فى هذين الكتابين . وفعل ذلك ليرضى شيلان الذى يتوقف مستقبل حياة بطلنا على مقدار إرضائه . لم يتحدث الأب سورل فى ذلك اليوم مع ابنه ، ولم يكلم الابن أباه حتى حلّ المساء فذهب جوليان إلى القس ليأخذ درسه فى اللاهوت ، ولم يشأ أن يفتاحه فى أمر ذهابه إلى منزل العمدة ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : ربما كان الأمر مكيدة تدبر لى ، فعلى أن أظاهر بنسيانها . ولكن السيد دى رينال بكر فى اليوم التالى ذاهباً إلى سورل ، وظلّ ينتظره ساعة أو ساعتين



حتى بدا العجوز بالبواب ليقدّم إلى العمدة العاذير مصحوبة بالتجلة والاحترام .  
وتكلما في الموضوع فاعترض سورل كثيراً ، غير أن العمدة أفهمه صراحة  
أن ابنه سيتناول طعامه على المائدة التي يجلس إليها هو وزوجه إذا لم يكن  
هناك أضياف ، وإلا تناول الطعام في غرفته مع الأطفال . وكان سورل  
يحرص بعد ذلك على أن يثير مسائل فرعية كلما رأى العمدة راغباً في إتمام  
الأمر ، فطلب منه أن يرى الغرفة التي سيقم فيها ابنه . فصعد العمدة  
بالأمر وذهب به إلى المنزل حيث رأى غرفة فسيحة حسنة الأثاث ، ينقل  
الخدم إليها أسرة الأطفال . فاطمأن الفلاح حين شاهد ذلك ، ثم طلب من  
العمدة أن يريه الملابس التي أعدها لجوليان ، ففتح دي رينال مكتبه  
وأخذ منه ورقة مالية بمائة فرنك وقال لسورل :

— سيذهب ابنك إلى مسيو دوران تاجر المنسوجات ليشتري حلة سوداء .

فقال العجوز على الفور وقد نسي عبارات الاحترام :

— وستبقى له هذه الحلة عندما يعود إلى ، أليس كذلك ؟

— بدون شك .

فقال سورل في صوته الجمهوري :

— حسناً ، لم يبق إذاً إلا شيء واحد يجب أن نتفق عليه : ذلك

هو الأجر الذي تدفعه لابني . فغضب دي رينال وصاح قائلاً :

— كيف ذلك ! لقد اتفقنا على الأجر منذ أمس ، ألم أقل لك أني

سيأدفع ثلثمائة فرنك ؟ وهو مبلغ كبير ، أكبر مما ينبغي أن يحصل  
عليه ولدك .

- لقد اقترحت أنت ذلك وأنا لا أنكره . قال العجوز هذه العبارة بصوت منخفض ، ثم أوحى له عبقريته — عبقرية فلاحى هذه المقاطعة التى لا يدهش منها إلا من جهلها — أوحى له أن يقول :
- سنجد عند غيرك أجرا خيراً من هذا الذى اقترحت .
- اضطرب السيد دى رينال حين سمع العبارة الأخيرة لكنه تمالك نفسه ، ثم تحدثا ساعتين كاملتين حديثاً لا يخلو من مراوغة ومكر وحذر . وانتصر دهاء الفلاح على دهاء العمدة الغنى ، فتم الاتفاق على جميع شروط الحياة الجديدة التى سيحياها جوليان ؛ وحصل سورل على أربعائة فرنك سنوياً أجراً لابنه تدفع مقدماً أول كل شهر .
- سأعطيه أول كل شهر خمسة وثلاثين فرنكاً .
- فقال الفلاح فى صوت ينطوى على كثير من الدلال :
- إن رجلاً غنياً كريماً مثل عمدتنا ليجدر به أن يدفع مبلغاً صحيحاً خالياً من الكسور ، كأن يدفع ستة وثلاثين مثلاً .
- إني موافق ولنفرغ من هذا الأمر .
- ثم غاظه أن ينتصر عليه الفلاح ، فغضب وبدا عليه الحزم ، فأدرك سورل بفطنته أنه يجب أن يقف عند هذا الحد ، فانتصر دى رينال بدوره لأنه لم يرد أن يدفع إلى سورل أجر الشهر الأول ، ولو أن العجوز يتعجل أخذ المبلغ . وفتن دى رينال إلى أنه لا بد أن يقصّ على زوجه الدور الذى لعبه فى هذه المفاوضات ، فقال للفلاح فى غضب :
- ردّ إلى مائة الفرنك التى أخذتها الآن ، لأن مسيو دوران مدين

لى ، وسأذهب مع ابنك بنفسى لأشترى له الحلة السوداء .  
ورأى سورل الصّراحة متجلمية على وجه العمدة ، فعمد إلى الحيلة  
والحذر ، وعاد إلى تملقه واحترامه .  
واستمر الحديث ربع ساعة أخرى ، رأى بعدها الفلاح أنه لن  
يكسب شيئاً جديداً . فاستأذن منصرفاً بعد تحية طيبة ، وودّع  
العمدة قائلاً :

— سأرسل إبنى إلى القصر .

ويسرّ العمدة كثيراً أن يدعو الناس منزله قصراً ، وكثيراً ما نالوا  
بهذه العبارة سائى رضاه .

عاد الأب إلى المصنع ، وبحث عن جوليان فلم يجده . لقد خشى الفتى  
مغبة هذا المشروع ، فغادر المنزل فى منتصف الليل ليضع كتبه و صليب  
وسام الشرف فى مكان أمين ، ذهب بها إلى صديق له يدعى فوكيه وهو  
تاجر أخشاب يقطن الجبل العالى الذى يشرف على مدينة فريير .  
ولما عاد بادره أبوه قائلاً :

— يالك من كسلان لعين ، لا يعلم إلا الله ما إذا كان عندك بقية  
من شرف تملك على أن تدفع لى ثمن طعام قدمته إليك سنوات طويلة !  
خذ اسمالك واذهب إلى العمدة . وعجب جوليان عجباً شديداً لأن أباه لم  
ينهل عليه بالضرب ، فعجّل بالرحيل حتى إذا ما اختفى عن نظر أبيه ،  
أبطأ تانياً ليرضى نفاقه بأن يمر على الكنيسة ويبقى فيها قليلاً . وسيعجب  
القارى من هذه الفكرة ولكنه لوعلم الأدوار التى مرّ بها تفكير ذلك

الشاب القروي لزالته دهشته وعجبه : رأى جوليان — وهو لا يزال في مهد الطفولة الأولى — جنوداً من الفرقة السادسة للخيلة يلبسون معاطف طويلة بيضاء ، وقد وضعوا على رؤوسهم خوذات تتدلى منها خصل طويلة من الشعور السوداء . وكانوا عائدين من إيطاليا ورآهم يربطون خيلهم في قضبان نافذة أبيه ، فأصبح منذ ذلك العهد محباً للحياة العسكرية ، راعياً فيها أشد الرغبة .

ثم أتاحت له فرصة الاستماع إلى الجراح العجوز بعد ذلك بسنوات طويلة ، فأقبل على حديثه في شغف كبير ، وأخذ الجراح يقص عليه أخبار معارك جسر لودي وأركول وريغولي ؛ وكان جوليان يرى اللهب يشع من عيني ذلك العجوز وهو يلتقي نظرة على وسام الشرف الذي يحمله .

وبلغ جوليان الرابعة عشرة من عمره ، فرأى أهل البلدة بينون كنيسة في ثريير ، تعد رابعة بالنسبة لهذا البلد الصغير ؛ وأعجب جوليان بأربعة أعمدة من الرخام تزينها ، وقد أصبحت هذه الأعمدة مشهورة في هذا الإقليم كله ، لأنها سببت عداوة شديدة بين قاضي الصلح ونائب الأسقف : ذلك الشاب الذي أتى من بيزانسون ، وكان الناس يعدونه جاسوساً لجمعية الإخاء . واعتقد أهل البلدة أن القاضي سيفقد منصبه بسبب هذا العداة ؛ ولم لا وقد جرؤ على أن يسبب نزاعاً بينه وبين هذا القسيس الشاب الذي يزور بيزانسون كل خمسة عشر يوماً ويقابل الأسقف !

كان القاضي رباً لأسرة كبيرة ، وقد أصدر أثناء نزاعه مع نائب الأسقف بعض أحكام على من يقرأ الدستور من أهل ثريير ، رآها الناس

قاسية شديدة ، وإن كانت تنطوى على غرامات لاتعدو ثلاثة فرنكات أو خمسة .

ووقعت إحدى هذه العقوبات على قريب جوليان يتجرّ في المسامير فغضب وصاح :

— يا للتعير الشديد ! لقد كنّا نعتقد منذ أكثر من عشرين عاماً أن هذا القاضي رجل أمين !

مات الجراح صديق جوليان وأقنع الشاب بغتة عن التحدث عن نابليون ؛ واعتزم على أن يكون قسيساً ، فكان يرى دائماً داخل مصنع أبيه وفي يده نسخة من الإنجيل باللاتينية استعارها من القس . وقد أعجب هذا العجوز الطيب إعجاباً شديداً بما أصابه جوليان من نجاح ، فكان يقضى معه ليالى يعلمه اللاهوت . وحرص الشاب على ألا يظهر أمام القس إلا بمظهر التقوى والصلاح . ومن ذا الذى يظن أن جوليان الذى يغلب حياء العذارى وجهه الشاحب الرقيق ، قد وطّد العزم على أن يحصل المال ولو لقي فى سبيل ذلك حتفه ؟

وكان يعتقد أن أولى الخطوات فى سبيل الثروة هى مغادرة فريير ، فهو يكره المدينة التى نشأ فيها لأن كل ما فيها يؤله ويؤذيه أشد الإيذاء . وكان واقعا منذ الطفولة تحت تأثير فكرة تملك عليه مشاعره ، هى أنه سيتعرّف بالپاريسيات الجميلات يوماً من الأيام ، وأنه لن يعدم الوسيلة فى لفت أنظارهن إليه . ولم لاتبه إحداهن ، وقد أحببت مدام بوهارنيه الرائعة الجمال بونپرت قبل أن يصل إلى قمة المجد ؟ ! وتسلّطت على

جوليان كذلك منذ عدة سنوات فكرة كان يرددها وهي أن بونايرت ، الضابط المجهول الفقير ، استطاع بحد سيفه أن يصبح سيد العالم . وهي فكرة تخفف من آلام رآها شديدة الوطأة على نفسه ثم تزيد من سروره في ساعات فرحه .

على أن بناء كنيسة قزير والأحكام التي أصدرها قاضي المصالحات أنارت لجوليان السبيل ، فقد جدت له فكرة شغلت نفسه وتمسكت لها كل التحمس كأنما أصابه منها جنون ؛ مثله في ذلك مثل غيره من الناشرين الذين يعتقدون في كل رأى أنه جديد لم يسبقهم أحد إليه : حينما حمل بونايرت الناس على أن يتحدثوا عنه ، كانت فرنسا تخشى الغزو الأجنبي ، وكان التفوق الحربى في زمنه ضرورة ملائمة لذوق العصر . أما اليوم ، فقد أصبحنا نرى القسس يتقاضون مرتبات تبلغ مائة ألف من الفرنكات ، وهم لا يزالون في الأربعين من عمرهم ؛ وهذا المبلغ ثلاثة أضعاف مرتبات القواد المشهورين الذين كانوا في فرقة نابليون ؛ ثم نرى القسس مع ذلك في حاجة إلى شبان يعاونونهم في عملهم . ثم ألا نرى القاضى الذكى القواد ، الذى عرف بيننا بالأمانة حتى الآن ، يدنس نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتياً لأنه يخشى غضب نائب أسقف لا يزال في الثلاثين من عمره ؟ إذاً يجب أن أكون قسيساً !

أخذ جوليان يدرس اللاهوت توطئة لأن يكون قسيساً ، وكان قد قضى في دراسته عامين حين وقع فريسة لهجمة مباغتة من الحماسة تأججت بين ضلوعه :

دعا الأب شيلان ذات يوم بعض القسس إلى منزله ليتناولوا معه الطعام ، وقدم إليهم جوليان على أنه آية من الآيات في العلم والمعرفة .  
وبدا لجوليان عندئذ أن يمدح نابليون ، ويطرى أعماله في تحمس وغيره ،  
فدفع في هذا ثمنا باهظاً ، إذ أنه علق ذراعه اليمنى على صدره شهرين  
كاملين . وكان إذا سئل عن سبب ذلك أجاب بأن ذراعه انخلعت وهو  
يحاول تحريك جذع شجرة من أشجار الصنوبر . ثم صُفح عنه بعد أن  
وقعت عليه هذه العقوبة الرادعة .

هذه هي صورة هذا الشاب الذي بلغ التاسعة عشرة من عمره ؛ وتدل  
كلّ الدلائل الظاهرة على أنه ضعيف الجسم ، حتى يظن من يراه أنه  
في السابعة عشرة فحسب — هو يحمل الآن تحت إبطه صرّة صغيرة ،  
ويدخل كنيسة قريير الرائعة الجميلة ...

وجدها مظلمة خالية من الناس خاوية ، يغطى نوافذها نسيج قرمزي  
إحتفالاً بالأعياد . كانت أشعة الشمس حين تتسلط على النوافذ وتحترق  
هذه الستائر تخلق ضوءاً بديعاً يلقي في النفس روعة دينية صادقة ... رأى  
جوليان هذا المنظر فاهتز هزة عنيفة ، وجد نفسه وحيداً في الكنيسة فجلس  
في أحسن مقاعدها الذي زين بأسلحة أسرة دي رينال . ووقع بصره على  
ورقة مطبوعة ، وضعت على المرحم بحيث أراد واضعها أن يقرأها من يراها .  
رفع جوليان عينيه ف وقعت على ما يأتي : تفاصيل عن إعدام لويس جرنل  
في بيزانسون وآخر لحظات حياته في ...

وكانت تلك الورقة ممزقة ، فقرأ في الناحية الأخرى كلمتي : الخطوة الأولى . فتشهد وأخذ يقول :

— ياله من بئس ! ترى من وضع هذه الورقة هنا ؟ إن اسم هذا الرجل المسكين ينتهي بنفس الحروف التي ينتهي بها اسمي ... ثم فرك الورقة بين أصابعه وربماها .

أبصر وهو يغادر الكنيسة بقعا خالها دماء بالقرب من إناء الماء المقدس ، لكنها كانت مياها انعكست عليها أضواء الستائر فبدت حمراء اللون ! وكم خجل جوليان حين دب فيه ديب الرعب وما لبث أن قال :

— ترى هل أصبحت جباناً ؟ إلى السلاح ! نعم إلى السلاح ! وهذه الكلمة ترددت كثيراً في قصص الجراح العجوز وهو يقصّ عليه أخبار المعارك . ثم نهض جوليان من مكانه وأسرع إلى منزل السيد دي رينال .

وعلى الرغم من الإقدام الذي بثّه في نفسه ، فإنه لم يكذب يرى المنزل وقد أصبح منه على بعد عشرين خطوة ، حتى استولى عليه حياء شديد . كان الباب الحديدي مفتوحاً ، وكما كان جميلاً رائئماً في عين هذا الشاب الريفى الذى كتب عليه أن يقيم فى هذه الدار .

لم يكن جوليان وحده هو الذى اضطرب حين اقترب من المنزل ، فكان هناك قلب آخر أكثر اضطراباً ونفس أشد قلقاً . كان الحياء الذى فطرت عليه مدام دي رينال يبلبل خاطرها لتقدم



هذا الأجنبي الذي تضطره طبيعة عمله إلى أن يكون دائما بينها وبين أطفالها . لقد اعتادت أن ترى أولادها ينامون معها في غرفة واحدة ، وكم بكيت في الصباح حين كان الخدم ينقلون أسرّتهم إلى الجناح الذي خصص لهذا المعلم الجديد ! وكم أتلت على زوجها أن يسمح لها بنقل سريرها ستانيسلاس كزافييه ، أصغر أبنائها إلى غرفتها ! كانت رقيقة إلى أبعد حدود الرقة ، وكم دفعتها رقتها وحدها على أولادها أن تصوّر هذا المرء في صورة شخص فظ القلب أشعث أغبر ، يؤنب أولادها ويضربهم ، وما ذلك كله إلا لأنه يعرف تلك اللغة الوحشية ، الأوهى اللاتينية !

# الفصل السادس

## السام

[ لم أعد أعرف من أكون ولا ماذا أفعل ]  
موزار (فيجارو)



كانت مدام دي رينال خارجة من باب صالونها المطل على الحديقة ، بما فطرت عليه من نشاط وظرف ، حين تكون بعيدة عن أعين الرجال ، فوقع بصرها على شاب ريني شديد الشحوب ، واقف بجوار الباب وهو يبكي . عليه قميص ناصع البياض ، وتحت إبطه حلة من الجوخ بنفسجية نظيفة ، أبيض الوجه ، جميل العينين ، فظنته مدام دي رينال بما فطرت عليه من خيال قصصى — فتاة تنسكرت في ثياب رجل ، وجاءت تطلب عوناً من العمدة . وأشفقت على هذا الخلق البائس الذى ظل واقفاً بجوار الباب ، لا يجروء على رفع يده ليدق الجرس . فاقتربت منه ، وكان جوليان ينظر إلى الباب فلم يرها وهى مقبلة ؛ فاضطرب حين سمع صوتاً رقيقاً قريباً من أذنه يقول :

— ماذا تريد منا يا بنى ؟ ووقع بصره على نظراتها الرقيقة حين التفت إليها فى اندفاع ، فزائله بعض حياته ، ثم رأى جمالها ، قنسى كل شئ ، حتى المهمة التى أتى من أجلها : وعادت مدام دي رينال تسأله فأجابها ، وقد خجل من دموعه التى أخذ يحفظها .

— أتيت ياسيدتى لأعلم الأطفل . فبهتت ، وظلت واقفة بالقرب منه لاتبدى حراكا ، ونظر كل منهما إلى الآخر . لم ير جوليان من قبل سيّدة متأنقة في ملابسها كدام دي رينال ، ولاوجها كوجهها في الجمال . ولم يسعد في حياته يحدث عطوف رقيق كحديثها . وكانت مشغولة بالنظر إلى الدموع التي سالت على خدي هذا القروي الشاب فصرجتها بالحمرة بعد الصفرة الشديدة . ثم طفقت تضحك ضحكا جنونيا شديدا ، لاتستطيعه إلا فتاة صغيرة . وسخرت من نفسها لأنها كانت سعيدة إلى أبعد حد : أهذا هو المعلم الذي صورته لنفسها من قبل في صورة قسيس قدر ، رث الثياب ، يأتي إليهم ليؤنب أطفالها ويضربهم ؟ ثم قالت له :

— أحقا ياسيدى أنك تعرف اللاتينية ؟

فذهل جوليان حين سمع كلمة سيدى وأطرق برأسه لحظة ثم أجابها في حياء :

— نعم ياسيدتى .

وكانت مدام دي رينال في هذه اللحظة سعيدة إلى أبعد حد ، اسمحت لنفسها بأن تقول له :

— لن تؤنب أولادى كثيرا ، أليس كذلك ؟ فأجابها في دهشة وحيرة :

— أنا أؤنبهم ، ولماذا ؟ فقالت بعد صمت قصير ، في نبرات يظهر فيها التأثر لحظة بعد أخرى :

— نعم ياسيدى ! أتعدنى بأن تكون معهم طيبا رقيق القلب ؟

ولم يكد جوليان بسمع تلك السيدة الأنيقة تناديه بقولها سيدي ،  
في لهجة تنطوي على الجدّ ، حتى طار عقله فرحاً . لم يكن يتصور إطلاقاً ،  
حتى في أحلامه التي يضطرب بها شبابه ، أن سيدة جميلة أنيقة تتحدث  
إليه هذا الحديث الرقيق دون أن يكون لابسا حلة جميلة . وعجبت مدام  
دى رينال بدورها من جمال وجهه وعينه الكبيرتين السوداوين وشعره  
الخلو الجمّد ، الذي كان في تلك الساعة أكثر تجعداً منه في أى وقت  
آخر ، لأنه أراد أن يستعيد بعض نشاطه فغمس رأسه في حوض  
النافورة العامة .

وسرّت مدام رينال حين رأت على المعلم حياء العذارى ! لأنها كانت  
تحشى على أبنائها . من رجل قاس عبوس الوجه . إنها لمباغثة سارة لنفسها الهادئة  
التي تولع دائماً بالوثام وتحب السلام . ثم زالت دهشتها بعد قليل ، ونظرت  
فإذا بها تكاد تكون ملتصقة بشاب جميل لا تعرفه من قبل ، لا يكاد  
يستره إلا قميص ، وكانا واقفين معا بجوار الباب . فقالت له في نبرات  
مضطربة :

— فلندخل المنزل يا سيدي .

وكانت بادية التأثر ، شديدة الفرح ، سعيدة بزوال مخاوفها من أن  
يقع أطفالها بين قسّ قدر فظ القلب ، حشن الطباع ، لأنها شديدة  
العناية بهم .

ولم تكد تدخل الردهة حتى التفتت إليه ، وهو يتبعها في حياء شديد ؛  
وبهره جمال المنزل وحقامة الأثاث ، فازداد وجهه في نظرها جمالاً على جمال ،

حتى كادت لاتصدق عينها . وخيل إليها أن المعلم يجب أن يلبس السواد ،  
فوقفت سائلة :

— أحيقة ياسيدى أنك تعرف اللاتينية ؟ . ألت عليه هذا السؤال  
لأنها كانت تخاف ألا يكون هو معلم أولادها . لكن جوليان أحسن في سؤالها  
جرحاً لكبريائه ، بدد الحلم الجميل الذى كان ينعم به منذ ربع ساعة ،  
فأجابها في هدوء بارد :

— نعم ياسيدتى ، أعرفها كما يعرفها كاهن المدينة . وكثيراً ما كان  
يتفضل على فيقول إنى أعرفها خير أمنه .

ورأت السيدة على وجهه دلائل الشر وهو واقف على بعد خطوتين  
منها فدنّت منه وقالت له بصوت خفيض :

أتعدنى بأنك لانضرب أبنائى فى الأيام الأولى ولو لم يحفظوا دروسهم ؟  
نغات عذبة حلوة نظمت بها عادة حسناء فنسى جوليان دفاعه عن  
نفسه ، لأنها نغات يشوبها التضرع .

وكان وجهها قريباً جداً من وجهه ، حتى إنه شم عطر ملابسها الصيفية ؛  
وهو شىء لم يعتده فلاح مثله ، فاحمر وجهه ، وقال لها فى صوت  
خافت مضطرب :

— لاتخشى شيئاً ياسيدتى فساطيعك فى كل ما تأمرين .

وتبددت مخاوف الأم على أظنالمها ، فآن لها أن ترى وجه جوليان  
على حقيقته ، وعندئذ أذهلها جماله ... إنه كوجوه العذارى ! ولم تعد  
تعجب باضطرابه وخجله ، لأنها كانت بطبعها كثيرة الخجل شديدة الحياء .

وكان مظهر الرجولة الذي يحبه غيرها من النساء يخيفها ويزعجها . ودار بينهما وبين الشاب الحديث التالي ، فقالت له :

— كم عمرك ياسيدى ؟

— سأكون عما قريب فى التاسعة عشرة من عمري .

— إن ابنى الأكبر فى الحادية عشرة ، ومن الممكن إذاً أن يكون لك صديقاً ، فتحدث إليه حديثاً يلائم سنه . لقد أراد أبوه مرة أن يضربه فصفعه صنعة خفيفة ، فرض أسبوعاً ولزم الفراش .

ولم يكده جوليان يسمع كلامها حتى أخذ يتول فى نفسه : ما أعظم الفرق بينى وبين ابنها !

لقد ضرب بنى أبى بالأمس ، حقاً ، إن هؤلاء الأغنياء لسعداء ! وكانت السيدة شديدة الانتباه إلى كل ما يدور فى نفسه ، فأبصرت وجهه وقد غطته سحابة خفيفة من الحزن ظنمتها فرط حيائه منها فشجعتة سائلة إياه عن اسمه فى هبة جذابة ، أحسن جوليان كل ما فيها من جمال دون أن يدرك مرماها ثم أجاب :

— أدعى جوليان سورل ياسيدتى ، وإنى لشديد الاضطراب ، فهذه أول مرة فى حياتى أعيش فيها فى منزل لأعرفه .

أنا فى حاجة إلى حمايتك ياسيدتى ، وأرجو أن تصفحى عن المهفوات التى أقترفتها فى الأيام الأولى من حياتى معكم ، فإننى لم أذهب مطلقاً إلى مدرسة لأننى كنت فقيراً ، ولم أتحدث مع رجل ، غير أبى وابن عمى الجراح المعجوز الذى يحمل وسام الشرف ، والقسيس السيد شيلان الذى

سيشهد لي شهادة طيبة . كان إخوتي يضربونني دائماً ؛ فلا تصدقهم إذا قالوا عني قولاً سيئاً ؛ اغتفري لي أخطائي واعتقدي دائماً أنني لا أرتكبها عمداً .

وعاد الهدوء إلى نفسه بعد هذه الخطبة الطويلة ، فتأمل السيدة التي كانت تبدو جميلة ، ظريفة إذا كانت على سجيتها وكان من تتحدث إليه لا يتكلف الظرف معها . ولو أن جوليان سئل عنها في هذه اللحظة لقال صادقاً : أراها لم تتجاوز العشرين من عمرها بعد ، وهو خير بجمال النساء . وبدا له أن يقبل يدها ، لكنه سرعان ما ندم على فكرته وخشى مغيبة عمله . على أنه قال في نفسه : لو أنني أحجمت عن هذا العمل لعدته جبناً ، ومن يدريني لعلّ فيه خيراً لي ، وربما أكسبني احتراماً في نظر هذه السيدة التي تراني عاملاً بأثماً خرج من المصنع منذ قليل .

وتردد ، ثم شجعه ما ذكره من أن بعض الفتيات كن يصفنه بالجمال ، حين كان يلتقي بهنّ أيام الأحاد ، وكان ذلك منذ ستة أشهر . وتكلمت مدام دي رينال ، وهو في صراعه النفسي ، ترشده إلى الطريقة التي يعلم بها أولادها أول الأمر . وكان صراعه النفسي قد أعاد الشحوب إلى وجهه الجميل ، فقال لها وهو يحاول التقلب على ما في نفسه :

— لا يا سيدتي ، لن أضربهم أبداً ؛ وأقسم لك على ذلك أمام الله ، ثم اندفع وتناول يدها وقبلها . وأذهلتها هذه الحركة فكادت تغضب . كان الجوّ شديد الحرارة ، وذراعها عارية لا يسترها إلا لناع ، فانكشفت

حين رفع جوليان يدها إلى شفتيه . ومرت لحظات تدمت بعدها السيدة على أنها لم تؤنبه على ما فعل .

كان السيد دي رينال في غرفة عمله ، فسمع كلاماً في الزدفة ، خرج بعده ، وسار نحوهما في هيئة تدل على حنوء وعظمة . سار في تلك الهيئة التي يصطنعها في حفلات الزواج في دار العمدية ، ثم قال لجوليان .  
— يجب أن أحدث إليك قبل أن يراك الأطفال .

ولما دخلا الغرفة معاً وأغلق الباب ، احتجز زوجه التي كانت تريد أن تتركهما معاً ، ثم جلس دي رينال في وقار وقال :

— أخبرني السيد القس أنك من الرعايا المخلصين ، وسيعاملك جميع من هنا معاملة كلها احترام . وإذا سررتني عملك ، ساعدتك فيما بعد في الحصول على منصب . أما الذي أطلبه منك ، فهو ألا ترى بعد الآن أحداً من أقاربك أو أصدقائك ، لأن انتمهم لا تتفق مع ما أبتغيه لأبنائي من تربية سليمة . هاك ستة وثلاثين فرنسكا ، أجرك عن الشهر الأول ، وعدني بشرفك ألا تعطى منها شيئاً لأبيك .

كان العمدة مغيضاً من الشيخ سورل لأنه كان أكثر منه ذكاء . ودهاء في إتمام هذه الصفقة . ثم استطرد يقول :

والآن أيها السيد لا يحسن أن يراك الأطفال في هذه الملابس . وقد أصدرت أمراً بأن يدعوك كل من في المنزل بالسيد ، وستشعر بعد قليل بالنعف الذي يعود عليك حين تعمل في منزل قوم محترمين .  
ثم سأل زوجه :



— هل رآه الخدم في هذه الثياب ؟ فأجابت وعليها دلائل تفكير شديد .

— كلا يا صديقي .

فتناول العمدة ردمجوتاً من ملابس الخاصة وهو يقول :

— حيناً ، إلبس هذا ، وسنذهب معاً إلى مسيو دوران تاجر الأصواف . وانصرفا ، ثم عادا بعد ساعة ، والمعلم الجديد في حلة سوداء . ولما دخل دى رينال ألقى زوجته في مكانها لم تبرحه . ولشدها اطمانت ، حين وقع بصرها على جوليان حتى نسيت وهي تنظر إليه أنها كانت من قبل منزججة منه .

كان جوليان لا يفكر فيها الآن ، وعلى الرغم من أنه يحذر الأقدار والرجال فإن روحه في تلك اللحظة كانت روح طفل عابث . وخيل إليه أنه عاش سنوات طويلة منذ وقف مضطرباً في الكنيسة قبل ذلك بثلاث ساعات . وألقى نظرة على مدام دى رينال فألفاها ضجرة فأدرك أنها لا تزال غضبي منذ قبل يدها ؛ غير أن ثيابه الجديدة بعثت في نفسه زهواً شديداً ، لأنها تقاير ما اعتاد أن يلبسه من قبل ، فكانت حركاته صاحبة جنونية ، وحاول عبثاً أن يخفي فرحه ، فأخذت السيدة تنظر إليه في دهشة وحتى قال له زوجها :

— عليك بالرزانة يا سيدي إذا أردت أن يحترمك الأطفال والخدم .

فقال له جوليان :

— معذرة يا سيدي ، فإن الحلة الجديدة تضايقتني فما كنت ألبس

من قبل إلا ملابس الفلاحين الفقراء. أسمح لي بالذهاب إلى غرفتي لأغلق على الباب؟

وانصرف فسأل العمدة زوجه :

— ماذا ترين في هذا الكسب الجديد؟ فأشارت إليه إشارة أملتها

عليها التريزة ، دون أن تفتن ، ثم أخفت الحقيقة عن زوجها حين قالت :

— لست متحمسة مثلك لهذا الشاب الزيفي ، وإن مباداتك إياه

بالباشة والكرم ستخلق منه شخصاً سيئ الخلق تضطرّ إلى طرده قبل

أن يمضى على إقامته معنا شهراً واحداً .

— حسناً ! سنرى ما تقولين ، وإذا تحقق ظنك فلن أخسر في هذه

التجربة إلا مائة فرنك فقط ، على أن فريير ستعتاد أن ترى أطفال

السيد دي رينال مع معلم خاص بهم . وهذا الغرض الذي أرمى إليه

لا يتحقق إن تركت جوليان في ملابس العمال . وإذا طردته ، فساخذ ،

ولاشك ، الحلة السوداء الجديدة التي اشتريتها له من تاجر الصوف ؛

ولن أتوك له إلا ما وجدته عند الحائك وهو ما يابسه الآن .

خيل إلى مدام دي رينال أن الساعة التي قضاها جوليان في غرفته

دهراً طويلاً ، لأن أطفالها الذين علموا بقدم معلمهم الجديد أرقهوها

بوابل من الأسئلة ؛ وأخيراً ظهر جوليان ، فكان رجلاً آخر ، لم يكن

رزيناً فحسب وإنما كان الرزانة بعينها . وقدم إلى الأطفال فتحدث

اليهم حديثاً أذهل السيد دي رينال نفسه . وقبل أن يفرغ من حديثه

قال لهم :

— لقد جئت إليكم لأعلمكم اللغة اللاتينية . وأنتم تعلمون ، ولا شك ، كيف يلتقي الإنسان درساً حفظه ساستمع غالباً إلى دروسكم فاستمعوا الآن إلى درسي . هذا الكتاب الصغير الأسود هو الكتاب المقدس الذي يتحدث عن حياة سيدنا عيسى . إنه الجزء من الإنجيل الذي يسمى العهد الجديد .

ثم أعطى الكتاب أدولف أكبر الأولاد سناً وقال له :  
— افتح الكتاب في أي مكان ، وقل لي الكلمة الأولى في أي جزء من الأجزاء ، وسأتلو عليك ما تشاء مما حفظت من هذا الكتاب المقدس الذي يعد مثلنا الأعلى في الحياة ، وسأقرأ حتى تكثني بما أقرأ .  
فتفتح أدولف صفحة ثم قرأ كلمة ، وأخذ جوليان يتلو حتى انتهى من الصفحة كلها في يسر كبير ، كما لو كان يتحدث بالفرنسية . عندئذ ألقى دي رينال على زوجه نظرة اغتباط وفوز ، ورأى الأطفال حيرة أبويهم فذهلوا كذلك . ووقف خادم بياب الصالون ، فسمع جوليان يتحدث باللاتينية ، فأنصت لا يبدى حراكا ، ثم غاب عن الأبصار ؛ ثم جاءت بعد قليل وصيفة مدام دي رينال والطاهية ، ووقفنا بالباب . وكان أدولف حينذاك قد فتح الكتاب في ثمانية مواضع مختلفة ، وجوليان يتلو كما بدأ في سهولة ويسر ، عندئذ صاحت الطاهية في صوت مسموع :  
— آه ! يا إلهي ! ياله من قسّ ورع جميل !

سُرّ السيد دي رينال ، إلا أن كرامته قد جرحت ، فأخذ يبحث في ذاكرته عن بضع كلمات لاتينية ، غير مبتغ أن يمتحن معلم أولاده ،

وأخيراً استطاع أن يتذكر بيتاً من شعر هوراس فأشده . وعندئذ قطب  
جولييان حاجبيه ، لأنه كان لا يعرف إلا لاتينية إنجيله ثم قال :  
— لقد حرّم عليّ الكهنوت أن أقرأ شعر هذا الشاعر الدينيّ  
الذّس .

وأشد السيد دي رينال مرّة أخرى لهوراس ، ثم تحدّث عنه لأطفاله ؛  
لكنّ إعجابهم بجولييان كان بالغاً فلم يلفتوا إلى ما يقوله أبوهم ، ولم يحولوا  
نظراتهم عن معلمهم الجديد .

كان الخدم لا يزالون واقفين بالباب ، فأراد جولييان أن يؤثّر  
في نفوسهم تأثيراً عميقاً لينال إعجابهم أكثر ممّا فعل ، فقال لأصغر  
الأطفال .

— يجب أن تقرأ كلمة من هذا الكتاب لأتو عليك بعض الفقرات .  
فازداد زهو ستانيسلاس كزافييه ، وعالج قراءة كلمة حتى أفلح بقدر  
ما استطاع ، فتلا جولييان صفحة كاملة . وكان انتصار السيد دي رينال  
كبيراً حين دخل عليه في تلك اللحظة السيد قالتو صاحب الجياد  
النورماندية ، والسيد شاركودي موجيرون وكيل حاكم المقاطعة ، فسمعا  
جولييان وهو يتلو الإنجيل عن ظهر قلب ، فاستحق المعلم عن جدارة لقب  
سيد ، ولم يجرؤ الخدم أن يرضوا عليه به .

وفي المساء أقبل كثير من أهل فريير إلى منزل السيد دي رينال  
ليروا بأنفسهم هذه المعجزة الخارقة ، فكان جولييان يجيب عن أسئلتهم  
في إيجاز واعتزاز كبيرين . وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في المدينة

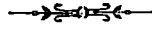
كلها حتى ذاع صيته ، وحتى خشي السيد دي رينال أن يختطفه أحد الأثرياء ، فاقترح عليه أن يوقع عقداً بعامين ، إلا أن جوليان قال في فتور :

— لا يا سيدي ، لو أحببت أن تطردني لخرجت على الرغم مني ، فالمقد الذي يقيّدني دون أن يقيّدك بشيء عقد جائز لا أوافق عليه . ولم يكدمضي شهر على إقامة جوليان عند العمدة ، حتى أصبح يتمتع منه باحترام كبير ، لأنه كان يؤدي واجبه على أكمل وجه . وفسد الأمر بين القسيس الشيخ وبين دي رينال وقاتلو ، فلم يعد جوليان يخشى من افتضاح سرّه القديم ، وهو حمسه لنايليون ، الذي أصبح يتحدث عنه الآن بكل كره وازدراء .

# الفصل السابع

## التقارب المعيشي

[ لا يستطيع الناس أن يمسوا القلوب مساً رقيقاً  
دون أن تصيبها أيديهم بسوء ] . كاتب حديث



أحبّ الأطفال معلمهم حباً شديداً ، أما هو فلم يحبهم لأنه مشغول  
عندهم بأشياء أخرى . على أنه لا يضجر أبداً مما يفعلون . كان مرناً عادلاً ،  
ثبت الجنان ، محبوباً ، لأن إقامته في منزل دي رينال خلقت له لونا  
من البهجة لم يعتده من قبل ، وفوق ذلك كله ، كان معلماً ناجحاً . غير  
أنه كان يشعر في حياته الجديدة بالكراهية والاحتقار لتلك الطبقة التي  
يسمونها الطبقة الراقية . كان يجلس إلى الطرف الأسفل من المائدة ، وربما  
كان هذا سبباً في نفسه من كره لهم . تقام في المنزل حفلات ، يقدم  
فيها الطعام تظاهراً وفخراً ، فينذل جوليان جهداً كبيراً ليكبت كراهيته  
للحاضرين جميعاً . وحدث أن كان السيد قائلو يلعب النرد مع السيد  
دي رينال ، في يوم القديس لويس ، وهو يوم من الأيام الكثيرة التي  
يتردد فيها قائلو على منزل العمدة ، فكاد يفتضح أمر جوليان في ذلك  
اليوم ، لولا أن فرّ إلى الحديقة بحجة أن يرى الأطفال . وأخذ يحدث  
نفسه : يا له من ثناء مستطاب ، يسمعه المرء فيظن العمدة الفضيلة بعينها !  
وهو لا يعدو أن يكون تبجيلاً وضعياً واحتراماً رخيصاً ! لأن ذلك الرجل

قد ضاعف ثروته أوزادها إلى ثلاثة أمثالها منذ أن بدأ يشرف على أموال الفقراء ! وأنا لأشك في أن يده تمتد إلى أموال اللقطاء<sup>(١)</sup> الذين هم في أشد الحاجة إلى المعونة والإحسان ! آه ! يا لهم من وحوش ! تبّأ لهم من قساة جشعين ! وأنا من أكون ؟ إنني لقيط أيضاً ، لأن أبي وإخوتي وأسرتي يكرهونني ! كان جوليان قبل يوم القديس لويس ببضعة أيام يتنزه وحده في غابة صغيرة يسمونها بلفيدير ( المنظر الجميل ) ، مطلة على ممرّ الإخلاص ويقرأ في كتاب الصلوات ، فرأى على بعد أخويه مقبلين ، ولم يتمكن من أن يتعد عن طريقهما ، حتى لاقياه ، فكانت غيرة هذين العاملين الفظين من أخيهما شديدة لا تحتمل ، لأنه نظيف في ملابسه الجميلة السوداء ، وهو ينظر إليهما في ازدراء شديد . من أجل ذلك انهالا عليه ضرباً ، ولم يتركاه إلا مغشياً عليه ، تسيل منه الدماء .

وبعد قليل ، مرت مدام دي رينال تنزهه مع قائلو ونائب الحاكم في هذه الغابة الصغيرة ، فارتاعت كثيراً حين رآته ممدداً على الأرض ، وظنت أنه فارق الحياة . وقد بعث خوفها عليه غيرة شديدة في نفس قائلو . وهكذا ارتاع قائلو قبل الأوان ، مع أن جوليان كان يرى مدام دي رينال رائحة الجمال ، ويكرهها لروعة جمالها . وهذه هي الصخرة الأولى التي كادت تصطدم بها مشروعاته في سبيل الحياة والثروة . كان لا يتحدث إليها إلا قليلاً ، حتى ينسيها ما أقدم عليه من تقبيل يدها في أول يوم قدم إلى منزلها .

(١) في نسخة مخطوطة كتب (ستندال) عبارة توضح فكرته فقد أضاف قائلاً : « كانوا يسرقون أربعة ملايين من الفرنكات باسم الأطفال اللقطاء » . « العرب » .

أما إليزا وصيفة مدام دي رينال فقد أحببت هذا المعلم الشاب ، وكثيراً ما كانت تتحدث عنه إلى مولاتها ، وقد سبب حبها هذا كراهة أحد الخدم لجوليان ، الذي سمع الخادم يتحدث إلى إليزا قائلاً :

— لم تعودى ترغبين فى التحدث إلى ، بعد أن وفد علينا هذا المعلم القذر . ولم يكن جوليان فى الواقع يستحق هذه الإهانة . إلا أن شعوره بجماله جعله يضاعف العناية بهذه الوصفة . وأصبح قائمواً كذلك يكرهه كثيراً . وطلما أعلن على الملأ أن الحرص على أناقة اللبس لا تتفق مع الروح الدينية التى يبغىها هذا الشماس الشاب . وكان جوليان يلبس حلة تقارب ثياب الكهنة .

لحظت مدام دي رينال أن جوليان يطيل الحديث فى كثير من الحالات مع إليزا ، ثم أعلنت بعد ذلك أن هذه الأحاديث الطويلة كانت لحاجته الشديدة إلى الملابس . لقد كان قليل الثياب ، ولذلك كان يضطر غالباً إلى غسلها خارج المنزل ، ومن يقوم له بهذا العمل الجليل غير إليزا؟! وفاضت نفس مدام دي رينال بالعطف عليه لما عرفت فقره المدقع ، وودت لو قدمت إليه بعض الهدايا ، ولكن كيف السبيل ؟ واعتكرت فى صدرها عوامل تتصارع ، نشأ منها أول ألم سببه لها جوليان . وكان من قبل ، مرادفاً عندها معنى السرور البرىء واللذة العقلية . وألح عليها الأمر وضايقها ما فيه جوليان من فقر شديد ، فقالت زوجها وطلبت منه أن يقدم إلى المعلم بعض ثياب على سبيل الهدية . فما كان جوابه إلا أن قال : — إن من الغفلة أن تقدم هدية إلى رجل يفنى فى عمله ، ولا يرى



منه إلا الإخلاص والغيرة ! إن تقدم إليه شيئاً إلا حين يفتر نشاطه فيكون هذا بمثابة حافز له على العمل .

ففضبت وأشمازت من طريقة تفكيره التي لم تدركها قبل أن يعيش معهم جوليان ؛ وأصبحت كلما رأته نظافة ثيابه البسيطة لا تتألك أن تسأل نفسها : ماذا عسى أن يفعله ذلك الشاب المسكين ، وكيف يعيش بهذا المال القليل ؟ أصبحت تشفق عليه شيئاً فشيئاً وتأسى لفقره ، لا تتضايق منه ولا تستاء .

إن مدام دى رينال من أولئك اللاتي يعشن في الريف ، ويحسب من بحالطن في الخمسة عشر يوماً الأولى أنهن على شيء من الغفلة .

كانت قليلة التجارب بأمر الحياة ، ولا تعباً إذا لزم الصمت ؛ نفسها رقيقة ترفع عن الدنيا ولا تأبه كثيراً بما يقترفه أصدقاء المصادفة من سخافات ، فتمتعت بقدر طبيعي من السعادة يتمتع به الناس جميعاً .

ولأنها أوتيت حظاً يسيراً من التعليم لصقلت نفسها القوية وسجايهاها الطبيعية ، ولكنها كانت وريثة ثروة ، فتلقت تعليمها في دير القلب

المقدس للمسيح على أيدي راهبات قانتات متعصبات ، يكرهن الفرنسيين المناوئين لليسوعيين كراهية شديدة . وعلى الرغم من كل ذلك فقد نسيت

ما تعلمته في ذلك الدير . وهدتها سلامة ذوقها إلى أن هذا النوع من التعليم هراء لا طائل تحته . نسيت التعليم القديم ولم تتلق جديداً فأصبحت

لا تعرف شيئاً . وكانت منذ شبابها مدللة تسمع الكثير من المدح والثناء ، لأنها ترث ثروة طائلة ، لكنها بفطرتها كانت شديدة الثقي والإيمان ،

فاختطت نهجاً جديداً في الحياة : انطوت على نفسها ، ودلت كل الظواهر على أنها مطيعة إلى أبعد حد ، تفتى إرادتها في إرادة زوجها ، فضرب الأزواج في ثريير لزوجاتهم بسلوكها الأمثال . وكان هذا ولا شك ، مبعث زهو السيدى رينال . ثم هي ، على الرغم من ذلك كله ، ذات نفس كثيراً ما يغزوها الكبر وتستولى عليها العظمة . وكانت هذه الأميرة المتكبرة تهتم بما يقوله لها السادة الذين يحومون حولها وتنتبه إليه ، وتعيه أكثر مما تعي تلك الزوجة الرقيقة المتواضعة في الظاهر ما يقوله لها زوجها أو ما يصدر عنه من أعمال . وقبل أن يدخل جوليان في حياتها ، لم تكن تهتم حقاً إلا بأطفالها ولا تصنعى إلا إليهم : تُشغل بأمراضهم وأفراحهم وأتراحهم أكثر مما تشغل بأى شيء آخر في الحياة . ولم تعبد حقاً إلا الله أيام أن كانت في دير القلب المقدس ببيزانسون .

وإذا أصيب أحد أبنائها بالحمى ، تأملت له كثيراً كما لو كان قد فارق الحياة . وهي مع كل ذلك لا تتف أحداً من الناس على حقيقة مشاعرها . درجت مدام دى رينال في السنوات الأولى من حياتها الزوجية على أن تكشف زوجها بكل ما يدور في نفسها من مخاوف على أبنائها . وكانت إجاباته دائماً على نمط واحد ؛ يضحك ضحكة خشنة أو يهز كتفيه ، ثم يقول بعض عبارات مردولة عمماً يسميه جنون النساء حين يشفقن على أبنائهن . فتزيد هذه الدعايات الثقيلة ألماً حين تصدر من زوجها وأحد أبنائها مريض . وهذا هو لون المعاملة التي لقيته في حياتها الزوجية ، بعد

أن اعتادت الإطراء العذب والثناء المعسول في دير اليسوعيين الذي قضت شبابها فيه .

كان تعليمها مطبوعاً بطابع الألم ، وعزة نفسها لا تسمح لها بأن تبوح بألمها حتى إلى صديقتها مدام درثيل ، وظنت أن جميع الرجال يشبهون زوجها أو السيدين قائلو وشاركودي موجيرون نائب الحاكم ، أولئك الذين لا يصدر عنهم إلا الفظاظة والغلظة والوحشية في كل ما لا يدور عليهم مالا أو يعطيهم حق الصدارة أو يجلب لهم وساماً . وكانوا يكرهون كثيراً من يخالفهم في الرأي ، فأصبحت مدام دي رينال تعتقد أن هذه صفات لازمة للرجال جميعاً ، ضرورة لهم كالأحذية والقبعات الصوفية تماماً .

وعاشت مدام دي رينال سنوات طويلة مع عبدة المال . قضت عليها الحياة أن تعيش مع أشخاصهم ، لكنها عاشت بتناهي عن أخلاقهم .

وكان هذا سرّ النجاح الذي لقيه جوليان الشاب الريفي حين بدأ يعيش في منزلها ، فقد أخذت مدام دي رينال تحس لونها جديداً من الحياة ، فيه كثير من الظرف واللذة .

رأت نفسها شريفة عزيزة فشعرت نحوه بميل لم تعهده من قبل . وسرعان ما اغتفرت له جهله بكثير من الأشياء ، وأصبح جهله في نظرها بعد ذلك مبعث ظرف ومثار إعجاب . ثم استطاعت أن تقوم من حركاته الخسنة الفجائية . وقد وجدت لذة في الاستماع إليه ، ولو تناول الحديث أشياء عادية تافهة كقتل كلب تحت عربة فلاح كانت تسير بسرعة . كان هذا المنظر المؤلم لا يثير في زوجها إلا قهقهة عالية ، أما جوليان فكان

حاجباه الأسودان الجميلان ينقبضان في تأثر وحزن . ومرّت الأيام ، فأصبحت مدام دي رينال تعتقد أن شرف النفس والمشاعر الإنسانية وكرم الأخلاق لا محلّ لها إلا عند هذا الشاب الريفى ، فزاد إعجابها به وأصبح محبباً إلى نفسها بقدر ما تخلق هذه الفضائل من قوة في النفوس الكريمة .

ولو أنهما كانا يعيشان معاً في باريس ، لكان سلوك جوليان نحوها سهلاً واضحاً لا تعقيد فيه ، لأن الحب في باريس وليد القصص . وإذا لوجد هذا المعلم الشاب في تلك القصص الخطة التي ينبغي له أن يتبعها مع سيدة طبعت على الخجل ؛ نعم لو كانا يعيشان في باريس لرسمت لهما الروايات أو بعض أشعار جيمناز الدور الذى يقوم به كلّ منهما ، ولرسمت للشاب المثل الذى يحتذيه ، والطريق الذى يترسمه ، وإن خلا من سرور ، فإن كبريائه تفرض عليه أن يمضى فيه مهما يجد من عنت وصدّ .

أما في المدن الصغيرة من مقاطعتى أفيرون أو البرانس ، فإن أقلّ حدث يؤدى إلى النتيجة الأخيرة بفضل شدة الحرارة هناك . وأما في المدن التى تظلمها الغيوم وتحجب سماءها السحب ، فإن الأمور تسير فيها فى هواده وبطء . ونحن هنا نرى شاباً فقيراً طموحاً ، دفعته رقة نفسه إلى أن يبحث عن المال ليحقق بعض لذات لاتتاح إلا لذوى الثراء ، ويقع بصر هذا الشاب كلّ يوم على امرأة فى الثلاثين من عمرها ، وهى حقاً عفيفة شريفة مشغولة بأطفالها ، ولا تحاول أبداً أن تتخذ من نماذج القصص مثلاً تحتذيها فى حياتها . وفى الريف تتمّ الأمور رويدا رويدا

وتسير الهويناء ، وهذا يجعلها دائماً أميل إلى طبيعة الأشياء .  
كانت مدام دي رينال حينما تفكر في فقر هذا المعلم تأخذها  
عليه الشفقة ، حتى تسيل من عينيها الدموع . وباغتها جوليان يوماً  
وهي تبكي فقال لها :

— ماذا بك ياسيدتي ؟ أنت حزينة من شيء ؟

— لا يا صديقي ، أرجوك أن تستدعي الأطفال ، وهيا بنا ننزه .  
واستندت إلى ذراعه ، وضغطت عليه بصورة لم يعتدها من قبل ،  
فجذب وبخاصة لأنها قالت له لأول مرة : يا صديقي .  
ولما كادوا يفرغون من نزهتهم ، رأى جوليان وجهها وقد صبغته  
حمرة شديدة ، وراها تبطئ في سيرها وتتحدث إليه دون أن تنظر  
إلى وجهه وتقول :

— لعلك سمعت قبل ذلك أنني الوريثة الوحيدة لعمة ذات ثراء  
واسع تعيش في بيزانسون ، وهي تغدق عليّ عطايا كثيرة . وقد تقدم  
أولادي تقدماً كبيراً ، ومن أجل ذلك أرجو أن تتقبل مني هدية  
صغيرة تدل على اعترافي بفضلك . إنه مبلغ زهيد أعرضه عليك  
لتشتري به ملابس لنفسك ، ولكن ....

ثم سكنت وزاد وجهها احمراراً فقال جوليان :

— ولكن ماذا يا سيدتي ؟ فطأطأت رأسها قائلة :

— يحسن بك ألا تتحدث إلى زوجي عن هذا .

فأجابها وقد توقف عن المسير ، والغضب يبدو في عينيه ، وهو  
تحت سيطرة الكبرياء :

— أنا فقير يا سيدتى ولكنى لست وضيعا ، وبخيل إلى أنك لم تدركى ذلك من قبل . ولو أخفيت عن زوجك شيئا يتعلق بالمال ، لكنت بذلك كأقل خادم فى منزلكم .

فخرنت مدام دى رينال ولكنّ جوليان واصل حديثه :

— إنّ سيدى العمدة أعطانى منذ عشت معكم خمس مرات مبلغ ستة وثلاثين فرنكا ، وأنا على أتم اعتماد لأن أطلع العمدة على الكراسة التى أقيّد فيها نفقاتى كلها ، أطلعه هو أو من يشاء من الناس حتى ولو كان السيد قائلو ، الذى أعلم أنه مغيظ منى حائق على ! وانتهت النزهة دون أن يستطيع أحدهما التحدث إلى الآخر أو أن يجد إلى الكلام سبيلا .

وظلت مدام دى رينال بعدها مضطربة شاحبة الوجه ؛ وأوحى إلى جوليان قلبه المتكبر أنه لن يستطيع التعلّق بحب هذه السيدة ؛ وأما هى فقد احترمتها وأكبرته وأعجبت به ، وأخذت تؤنّب نفسها على ما فعلت . ثم أرادت أن تصلح خطأها الذى جرحت به شعور صديقها دون أن تقصد ، فأقبلت عليه تعنى به عناية شديدة فى رقة وعطف ، ووجدت فى ذلك لذة كبيرة ، وشعرت بسعادة لاحدة لها ثمانية أيام كوامل ، واستطاعت أن تهدى بعض الشيء من ثورة صديقها الذى ما كان يرى فى عنايةها به إلا أنها تخضع لما تمليه عليها طبيعتها . وظالما حدثت نفسه قائلا : هذه عادة الأغنياء ، يزدرون الناس ثم يظنون بعد ذلك أنهم يصلحون كلّ شىء بما يأتونه من أعمال تافهة !

فاضت نفس مدام دي رينال - وكانت تؤمن بأنها خالصة النية حين اقترحت على جوليان أن يتقبل منها هدية ييرة - فلم تستطع أن تخفى عن زوجها ما دار بينها وبين المعلم من حديث ، فعجب زوجها ثم قال كمن جرحت كبرياؤه :

- وكيف استطعت أن تسمحي لخادم بأن يرفض لك طلبا ؟

فصاحت في دهشة كبيرة ، قال لها العمدة على إثرها :

- إنني أتحدث إليك ياسيدتي كما تحدث الأمير كوندنيه إلى زوجته الجديدة وهو يقدم لها حجابها إذا قال لها : « هؤلاء الناس جميعاً خدمنا » ولقد قرأت عليك هذه الفقرة من مذكرات بيزنثال ، وهي فقرة لا ينبغي لنا أن ننساها وهو يقول :

« كل من لا ينتمي إلى طبقة الأشراف ، ويعيش في منزلك ويتلقى منك أجرا يعدّ خادما لك » سأحدث إلى هذا السيد جوليان ثم أعطيه بعد ذلك مائة فرنك .

فاضطربت مدام دي رينال اضطرابا شديدا ثم قالت :

- آه يا صديقي ! أرجو ألا يكون هذا على مرأى ومسمع من الخدم !

فأجابها وهو يغادرها مفكراً في جسامة المبلغ :

- أنت على صواب ، فربما دبّ في نفوسهم الحسد ، ويحقّ لهم أن يحسدوه .

ولم يكد السيد دي رينال يغادر الغرفة حتى سقطت زوجته فوق

كرسي ، وكاد الألم يفقدها رشدها ، ثم أخذت تحدث نفسها قائلة :

- هأنذا سأكون سبباً في جرح كبرياء جوليان مرة أخرى ! وكرهت

زوجها في هذه اللحظة أشد الكراهية ، ثم أخفت وجهها بين يديها ، وأخذت على نفسها ألا تتحدث إليه بعد ذلك بما يحول في نفسها من خواطر ، أو ما تكنه في قلبها من أسرار . وحينما رأت جوليان ، كانت لا تزال شديدة الاضطراب ، قد استولى الجزع على نفسها فلم تستطع أن تقول له شيئاً ، ووقعت في حرج شديد فأخذت يديه بين يديها وضغطت عليهما قائلة :

— حسنا يا صديقي ، أنت مسرور بما فعل زوجي ؟ فابتسم ابتسامة مرّة ثم قال :

— ولم لا وقد أعطاني مائة فرنك ؟ فنظرت إليه نظرة المرتاب ، ثم تشجعت وقالت :

— هات ذراعك يا صديقي . فدهش لأنه لم يرفها من قبل هذه الشجاعة . لقد أقدمت مدام دي رينال على الذهاب لأول مرة في حياتها إلى صاحب مكتبة قرير ، وهو رجل سيء السمعة في البلد كلها لأنه من الأحرار ؛ ذهبت إليه واشترت منه كتباً دفعت فيها عشر لويسات ، ثم وزعتها على أبنائها . وطلبت إلى كل منهم أن يكتب اسمه على الكتب التي تحبّه قبل أن يغادروا المكتبة ، على حين كانت تعلم أنّ جوليان يودّ لو استطاع قراءة هذه الكتب . فعلت ذلك وكانت سعيدة بما فعلت ، لأنها اعتقدت أنها أصلحت بعض الخطأ الذي وقعت فيه . كل ذلك وجوليان ينظر في دهشة كبيرة إلى الكتب الكثيرة المكدّسة في هذه المكتبة . ولم يكن يفكر مطلقاً في أن تطأ قدماه هذا المكان الدنس ،



فاضطرب قلبه ، ولم يشعر بما كان يشغل نفس مدام دي رينال ، لأنّ ذهنه محصور في معرفة الطريقة التي يستطيع بها طالب اللاهوت الحصول على بعض الكتب التي يراها أمامه . وأخيرا خطر له أن يستعمل المهارة مع السيد دي رينال فيقنعه بأنّ أبناءه في حاجة إلى معرفة تاريخ مشاهير الرجال ذوي المحدث الكريم ممن ولدوا في الريف . فكّر في هذه المحاولة ، وحدثّ بها العمدة شهرا كاملا ، حتى انتزع منه الموافقة انتزاعا ؛ ونجح مشروعه نجاحا باهرا ، فتمكنّ بعد قليل من أن يحمل دي رينال على الاشتراك في مكتبة هذا الرجل الذي عرف بميول وأتجاهات تخالف ما فطر عليه عمدة قرير الذي يساهم الآن بنصيب في جلب الثروة لمناهض له في المبادئ . ثم وافق على أنّه من الحكمة أن يطلع ابنه الأكبر على كثير من الكتب التي سيسمع اسمها حين يدخل المدرسة الحربية ، لكنّه لم يوافق على أكثر من ذلك ، ففطن جوليان إلى أنّ هناك أمرا لم يستطع أن يدرك كنهه .

وذاث يوم قال للعمدة :

— يخيل إلىّ يا سيدي أنّه لا يليق بكرامة فرد من أسرة دي رينال أن يكتب اسمه في هذا السجل القدر، سجلّ المكتبة . فضحكت لذلك أسرار العمدة ، على حين استطرد جوليان في ضراعة وخشوع : كما أنّه لا يليق أن يكتب اسم طالب فقير في علم اللاهوت في هذا السجل ، فهذا يشينه ، ولوا كتشف الأحرار اسمي في دفتر رجل يؤجّر الكتب لاتهموني بأنّي كنت أستعير الكتب المحلّة بالكرامة والشرف ؛ ورّ اذهبوا إلى أبعد

من هذا ، فكتبوا عناوين هذه الكتب اللعينة أمام اسمي . وحمل هذا الاستطرد جوليان على أن يتعد عما كان يرمى إليه . فقطب العمدة وجهه من جديد ، وبدأ الشك يساوره ، فسكت جوليان ولم يشأ المضي في حديثه ، لكنه قال في نفسه : إنني لقد رعى على أن أوجه هذا الرجل إلى حيث أريد .

ومضت أيام ، فسأل الولد الأكبر معلمه في حضرة أبيه عن كتاب أعلن عنه في صحيفة أخبار اليوم فقال جوليان مخاطباً الأب :

— لكي تتخلص من مضايقات العقويين ، ولا تتيح لهم أن ينتصروا علينا ، أرى أن نكل إلى أقلّ رجالك شأننا أمر الاشتراك في المكتبة ، فتصبح بين يدي المراجع التي أعتمد عليها في الإجابة عن أسئلة مسيو أوداف . فسرّ العمدة بذلك سرورا كبيرا ثم قال :

— لا بأس بهذا الرأي . فاصطبح وجه جوليان يوقار لا يخلو من ذلة ومسكنة تلاثم الذين يحققون بعد لأي ماتصو إليه نفوسهم ، ثم قال :

— على أنه يجب أن تتخير الكتب ، فينبغي للخادم ألا يحضر الروايات ، لأنها نوع خطر يفسد أخلاق بنات سيدتي وأخلاق الخدم أنفسهم . فقال له العمدة في عظمة وكبرياء :

— ولا تنس أيضا الرسائل السياسية . وكان الأب يرمي من وراء هذا ألا يبدى إعجابه بالآراء التي تصدر عن معلم أولاده . وكذلك أصبحت حياة جوليان سلسلة من مفاوضات هيئة كتب له التوفيق فيها ، فشغله النجاح عن أن يقرأ في قلب مدام دي رينال ما سطر له فيه من عواطف حب وإجلال وإعجاب لا يستطيع أن يقرأها سواه .

وتجدد في نفسه شعور قديم فطر عليه : كان يكره عمدة ثريير ولو أنه مقيم في منزله ، مشرف على تعليم أولاده . ومثله في هذا هو مثله في الفترة التي أقامها في مصنع أبيه يكره والده وأخويه وهم كذلك يكرهونه . وكان كل يوم يسمع قصصاً وآراء مختلفة يرويها العمدة والسيد قائلين ونائب الحاكم وغيرهم ممن يترددون على منزل دي رينال ، فيراها مغايرة للحقيقة كل المغايرة ، لأن ما يتحدثون عنه وقع تحت سمعه وبصره .

وإذا أعجب هو بشيء خالفوه ، وصبوا اللعنات على ما أعجب به ، ولم يكن يردّ على كل ذلك إلا بصيحة داخلية تتردد في نفسه : يالهم من حتمى ويالهم من شياطين !.. والغريب في أمره أنه لم يكن يستطيع أن يدرك بدقة كثيراً مما يدور حوله الحديث ، على الرغم مما فطر عليه من عزة وكبرياء . لم يعتد من قبل أن يتحدث في صراحة إلا مع الجراح العجوز ، فكانت الآراء القليلة التي يعرفها لا تعدو بعض معلومات عن خروب ناپليون في إيطاليا ، أو معلومات عن الجراحة . فكان يتحدث عن العمليات الخطيرة مطنّباً ، كما يتحدث شاب تدفعه شجاعته إلى أن ينزع الخوف من قلبه .

وبدا لمدام دي رينال يوماً أن تتحدث إليه في أشياء لا تتعلق بتعليم الأطفال ، فحدثها عن العمليات الجراحية ، فاصفر لونها ورجته الأيمضى في حديثه .

كان هذا هو اللون الوحيد الذي يحسن جوليان التحدث عنه ، من أجل ذلك كان يسود صمت طويل كلما جلس إلى مدام دي رينال . أما إذا جلس مع غيره من الرجال في الصالون ، فإن السيدة كانت ترى في نظراته

سواءً عقلياً لا يتاح لغيره من الحاضرين على الرغم من حقارة مظهره ...  
وعلى نقيض ذلك إذا خلت به في أي مكان ، فإنها تحسّ اضطراباً شديداً  
يخالج نفسه ، فتقلق لذلك لأنّ غريزتها النسوية أوحى إليها أنّ اضطرابه  
لا تبعثه فيه عاطفة رقيقة .

ولا تزال في ذهن جوليان فكوة ترددها الطبقة الراقية ، وعلمها من  
صديقه الجراح العجوز ، هي أنه إذا اجتمع رجل وامرأة وساد بينهما  
الصمت ، كان الذنب في ذلك ذنب الرجل وحده . فليحق جوليان من  
ذلك خزي شديد تزايد إحساسه به كلما انفرد بدمام دي رينال .

وعلى الرغم من خياله الخصب الذي كان يمدّه بآراء مبالغ فيها ، ذات  
طابع فكريّ أسباني ، يستطيع الرجل أن يقولها لسيدة حين ينفرد بها ،  
على الرغم من كل هذا كان لا يجد شيئاً يقوله لدمام دي رينال إلا بعض  
آراء تافهة . كانت نفسه دائماً التحليق ، ولكن لسانه لا يجد ما يقول .  
وهو لذلك دائم العبوس في الزهات الطويلة التي يقضيها معها ومع أطفالها .  
كان فريسة لآلام نفسية شديدة زادت عبوساً وتقطياً . فاحتقر نفسه  
لذلك ؛ وإذا واتته الشجاعة وقال لها شيئاً جاء غثاً تافهاً .

ومما زاد الطين بلة حساسيته التي تربه تفاهته وتغالي له فيها ، حتى  
نسى جوليان وجهل تماماً أن له نظرات قوية تبعثها عينان جميلتان ، نظرات  
توحى بمعان سامية تغني بها النفس ، هي كنظرات البارعين من المثليين  
تضفي في بعض الأحيان جمالا على ما لا جمال فيه .

ولحظت مدام دي رينال أنه لا يُحسن الكلام ، إذا انفردت به ،

إلا إذا كان ذهنه منصرفاً للتفكير في شيء آخر ، فهو لا يحاول أن يزين حديثه ليثنى عليها ؛ ولم يعتد المترددون على منزلها من الرجال أن يتحببوا إليها بما يُسمعونها من آراء جديدة طريفة ، ولذلك كانت تستمع في لذة كبيرة بمخاطب جوليان السريعة التي كان يبديها .

ومنذ أن سقط نابليون ، أختفت جميع مظاهر الظرف والرفق من أخلاق الناس في الريف ، وخشى كل إنسان أن يفتضح أمره إذا هو تظرف . ووجد الخبثاء دعامة قوية في جمعيات المؤاخاة ، وصادف النفاق مرتعاً خصباً في جميع الطبقات والأحزاب ، واستطاع كذلك أن يشق طريقه بين صفوف الأحرار . وعمّ الناس سأم ، وانحصرت لذاتهم في القراءة والزراعة .

نشأت مدام دي رينال غنية بفضل ميراث تركته لها عمّة تقيّة ، فتزوجت في السادسة عشرة من عمرها بسيد من سادات قومه ، من أجل ذلك لم ترف في حياتها ولم تحس إطلاقاً ما يسمونه الحب ، اللهم إلا ما كانت تسمعه عنه من فم القس الورع الأب شيلان ، حين كان يمدحها عنه وهي تعترف له بمضايقات السيد قائلو لها — وكان القس يصور الحب لها في صورة كريهة ، حتى أصبح اسمه يرادف في نفسها معنى الإباحية والامحلال . أما ما قرأته عن الحب في روايات قليلة وقعت بين يديها ، فقد كان في نظرها شيئاً خارقاً للعادة ، لا وجود له في حياة الإنسان . وكانت سعيدة كل السعادة بمجهلها ، ولم تجد في نفسها لوماً أو عتاباً لعنايتها الشديدة بجوليان .

# الفصل الثامن

## حوادث صغيرة

حينذاك كانت هناك تهديدات زارها الإخفاء عمقاً ،  
ونظرات مختلطة زارها الاختلاس حلاوة ، واحتران  
خجل ملتهب من غير ما خطيئة .

[ دون جوان : الفصل الأول ، فقرة ٧٤ ]



لدام دي رينال ظرف ملائكي مستمد من خلقها وسعادتها في حياتها  
الحاضرة ، يلزمها دائماً إلا إذا فكرت في وصيقتها إليزا . كانت هذه  
الفتاة قد ورثت بعض المال ، فذهبت إلى القس شيلان ، واعترفت بأنها  
تريد أن تزوج جوليان ؛ فشعر القس بلذة لما توقعه من سعادة لصديقه  
الشاب ؛ لكنه كاد يصعق حين أخبره جوليان في إصرار بأنه لا يقرّ  
مشروع إليزا فقطب القسيس حاجبيه وقال :

— كن على حذريا بنى مما يدور الآن في نفسك ؛ ولا يسعنى إلا أن  
أهنتك بتقواك ، إذا كان الورع وحده هو الذى حملك على رفض ثروة  
كعده تعدّ ثروة كبيرة . ولقد مضى على الآن ست وخمسون سنة وأنا قسّ  
قريب ، والقرائن كلها تدلّ على أنى سأعزل من هذا المنصب عن قريب ،  
وسيسبب لى فصلى حزناً عميقاً وإن بلغ دخلى فى العام ثمانمائة فرنك .  
أقول لك هذا لتحتاط لأمرك ، ولكيلا تبني فى الهوء قصوراً باعتقادك  
أنك ستكون غنياً إذا صرت قسيساً . أما إذا فكرت فى أن تتملق  
( م — • ستندال — ج ١ )

العطاء من أولى الأمر ، فتق أنك مضّيع نفسك إلى الأبد . في مقدورك أن تصبح غنياً ، ولكنّ الوسيلة إلى الغنى هي في أن تطمع في أموال الفقراء والمساكين ، وأن تتقرب إلى العمدة ونائب الحاكم وكل ذى سلطان ، وأن تكون طوع بنانهم ، تنزل دائماً عند رغباتهم وشهواتهم ؛ هذا هو الخلق الذى يجوز أن يتّصف به رجل من رجال الدنيا وبسميه : فن معرفة الحياة . وقد لا يتناقى مع مسلكه في الحياة ، أما نحن ، رجال الدين ، فطينا أن نختار بين الغنى والجاه في الدنيا وبين السعادة الأبدية في الآخرة . أمران لا ثالث لهما ؛ فاذهب الآن يا بنى وفكر في الأمر ملياً ، ثم عدّ إلى بعد ثلاثة أيام لتخبرنى برأيك الأخير . أكاد ألمح في نفسك لوناً معقداً من الحماسة يدلتى على أنك لن تكون قسيساً صالحاً ، معتدلاً ، زاهداً في متاع الدنيا . وأنا كثير التشاؤم من ذكائك ، واسمح لى أن أقول لك فى صراحة وصدق إنك لن تكون قسيساً صالحاً !

قال الكاهن الطيب هذه العبارة الأخيرة والدموع تترقرق فى عينيه . خجل جوليان من تأثيره وضعفه ، فقد رأى نفسه ، لأول مرة فى الحياة ، محبوباً تحاول فتاة أن تفنى فيه ؛ فبكى بكاء الفرح والغبطة ، وهُرع إلى الغابات الواقعة فوق مستوى قرير ليخفى هنالك دموعه عن الناس ، ثم أخذ يتحدث إلى نفسه : لماذا أشعر بهذا الاضطراب ؟ إنى لأحس فى قرارة نفسى أنى على أتم استعداد لأن أضحي حياتى من أجل هذا القس الطيب القلب ، ولو أنه برهن لى منذ لحظة على أننى غرّ أحق . إنى أحاول أن أخدعه هو من دون الناس جميعاً ، ولكنّ محاولتى لم تخف

عليه . والحماسة التي أخفيها بين جوانحي هي سرى الذي أحرص عليه ، هي رغبتى في أن أكون غنياً . إنه يعتقد أنى لا أصلح قيساً ، على حين كنت أظنه يصفنى بالزهد والتقى والصلاح حين أرفض على مسمع منه دخلاً يقدر بخمسين لويساً . تعلمت منه اليوم درساً جديداً هو أنى لا أعتد في المستقبل إلا على النواحي الخلقية التي خبرتها ، وعلمت بفضلها كذلك أن في البكاء راحة ولذة ! لشد ما أحببت هذا الرجل الذى دلتى على حماقة نفسى !

ثم عاد إليه بعد ثلاثة أيام ليجدد أمامه رفضه زواج أليزا ، وادعى كذباً أنها متهمة في أخلاقها ، وهي حجة كان ينبغى له أن يتذرع بها في المرة الأولى . ومادا يضيره لو افترى عليها أمام الكاهن ؟ وقد اعترف له جوليان في كثير من التردد بأنه لا يريد أن يخبره بالتفاصيل كلها حتى لا يؤذى شخصاً ثالثاً في سمعته ، وسلوك إليزا هو الذى حال بينه وبين إجابتها إلى رغبتها . وتبين شيلان في لهجة صديقه الشاب حمية دينوية شديدة لا يتصف بها من أعد نفسه ليكون من رجال الدين ، فقال له :

— إستمع إلى يا صديقى ، خير لك أن تكون رجلاً برجوازيًا محترمًا ومثقفًا من أن تكون قسًا غير تقى !

فأجاب جوليان على هذا الزجر الجديد إجابة قوية الأسلوب حين واثته كلمات وجبهة تجدر بطالب في علم اللاهوت يتصف بالحماسة ؛ غير أن لهجته كانت تحونه ، والحرارة التي تبدو في عينيه تخيف الأب شيلان .



ويجب علينا ألاّ نتنبأ لجوليان بالفشل ، لأنه كان يحسن إلتقاء كلماته التي ينطق بها في نفاق يدل على مراوغة وحذر وفطنة . وهذا ولاشك مجاح بالنسبة إلى سنه الصغيرة ؛ وأما لهجته وحركاته فقد كسبها من معاشره الريفين ، لأنه لم تتح له من قبل فرصة يشاهد فيها النماذج الحسنة . ثم إنه لم يكدها معاشر ساداته الجدد حتى تقدم في حركاته وأحاديثه تقدماً عظيماً .

عجبت مدام دي رينال حين رأت أن الثروة التي هبطت على وصيفتها لم تسعدها ، بل أصبحت تتردد على القس كثيراً ، ثم تعود باكية حزينة ، وأخيراً تحدّثت إليزا إلى مولانها عن أمر زوجها بجوليان . وسمعت مدام دي رينال هذا ، فسرت في بدنها العلة وانتابها حمّى حالت بينها وبين النوم ، لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا إذا وجدت بجانبها وصيفتها أوجوليان . ولم تتمكن من التفكير في شيء غير السعادة التي تنتظر الزوجين في حياتهما الجديدة ، وإن كانا فقيرين لأن دخلهما لا يزيد على خمسين لويساً ؛ تصورتها يعيشان عيشة هائلة سعيدة ، لأن جوليان يستطيع أن يكون محامياً في مدينة براى ، وهي مركز يبعد ميلين عن فريير ؛ وإذا حدث هذا فهي تستطيع أن تراه بين حين وحين .

واعتقدت مدام دي رينال حقاً أنها ستفقد رشدها ، وقد أفضت إلى زوجها بذلك ثم مرضت . وفي نفس المساء ، رأت وصيفتها تبكي وهي قائمة على خدمتها ، وكانت تحسّ كراهتها وقتذاك فقهرتها ، ثم طلبت منها بعد ذلك أن تصفح عن خشوتها وجفوتها ، فانهمرت دموع الوصيفة ، ثم طلبت من سيدتها أن تأذن لها لتفحص عليها سبب ألما ونكبتها .

فأجابتها مدام دي رينال :

— قولى .

— إنه يرفض أن يتزوج منى ، لقد قال له أهل الشرّ مقالة سوء فصدق!  
فتنقّست مدام دي رينال بصعوبة ثم سألتها :

— ومن هذا الذى يرفض الزواج منك ! فبكت الوصيفة قائلة :

— من يا مولاتى غير السيد چوليان ؟ لم يستطع القس أن يقنعه بالعدول عن رأيه . وقد أخبرنى القس نفسه أنه ليس محقاً فى أن يرفض فتاة أمينة لأنها تعمل وصيفة ، ومع كلِّ فوالد السيد چوليان ليس إلا نجاراً ، ثم كيف كان يعيش المسيو چوليان قبل أن يأتى إلى منزل مولاتى ؟ . .

فشعرت مدام دي رينال براحة وسعادة حين علمت ذلك ، ولم تنصت إلى بقية الحديث لأنها شغلت بالتفكير فى رفضه يد إليزا ، بعد أن استعادت حديث وضيقتها عدة مرات ، وتأكّدت أن رفض چوليان كان نهائياً ، ثم قالت لوصيفتها :

— سأحاول أن أعالج الأمر بنفسى ، وسأتحدث إلى السيد چوليان .

وبعد الغداء فى اليوم التالى ، تحدّثت مدام دي رينال إلى چوليان فى أمر غريمتهما إليزا ساعة كاملة ؛ ولشدّ ما كان سرورها عظيماً حين رآته يرفض يدها وثروتها رفضاً جازماً .

وهكذا آن لچوليان أن يتخلص شيئاً فشيئاً من أجوبته الرقيقة ، فاستطاع أن ينقض فى كثير من الفطنة حجج مدام دي رينال التى لا تخلو من تعقل ، ومداورة وحكمة ، وانهى الأمر برفضه الزواج فغمر السيدة تيار

جارف من السعادة ملأ قلبها بعد أن نهشتها الآلام والأحزان أياماً طويلة .  
لم تستطع أن تقاوم سعادتها فشعرت بضعف وإعياء ، وعادت إلى غرفتها  
فاستردت قوتها ، ثم طلبت أن تظل وحدها ؛ فغادر الحجر من كان فيها ،  
فعجبت من أمرها أشد العجب ثم سألت نفسها : أترانى أحبّ جوليان ؟  
لم يثر هذا الا اكتشاف في نفسها ما كان يثيره من قبل من وخز  
واضطراب شديدين ، بل كان مثلها منه كمثل مشاهد يرى الأشياء ولا يتأثر  
بها . وقد أصبحت نفسها متعبة بسبب ما كشفته ، فلم تعد تتأثر بما تلميه  
عليها المشاعر . وأرادت أن تقوم ببعض أعمال ولكن غلبها النوم ،  
فاستسلمت له . ولما استيقظت لم تكن جدّ منزعجة ، وكان عليها أن تكون  
شديدة الفرع . لقد ملكت عليها السعادة نفسها فرأت الدنيا بمنظار جديد  
وما كانت هذه الرفية الطيبة المطبوعة على السداجة والطهر ، لتعذب  
نفسها فتستخلص منها بعض الحساسية لما يطرأ عليها من عواطف أو يصيبها  
من شر . كانت قبل وصول جوليان دءوبا كثيرة العمل ، مما يعد نصيب  
كل ربة بيت فاضلة بعيدة عن باريس ، تفكر في الحب كما تفكر نحن  
في ألعاب النصيب : خديعة حقيقية وسعادة لا يبحث عنها إلا المجانين !  
دق جرس الغداء ، وسمعت مدام دي رينال صوت جوليان قادماً مع  
الأطفال فالتهبت وجنتها بحمرة شديدة ؛ لكنها أصبحت ماهرة منذ أن  
أحبت ، وأرادت أن تخفي سبب إحمرارها فادعت أنها تعاني صداعاً شديداً .  
فضحك زوجها من ذلك قائلاً :  
— هذا شأن كل النساء ، هن كالألات في حاجة دأمة إلى بعض الإصلاح !

وكانت قد اعتادت سماع مثل هذه النكات منه ، ولكن صوته أزعجها في هذه اللحظة ؛ وأرادت أن تسمى عن نفسها فنظرت في وجه جوليان ؛ ولو أنه كان أقبح الرجال جميعا في تلك اللحظة لأعجب مدام دي رينال . وكان السيد دي رينال حريصا على أن يحاكي رجال البلاط في أعمالهم ، لذلك كان يذهب إذا ما أقبل الربيع إلى قرية فرجى التي أصبحت شهيرة منذ المحاطرة الأليمة التي وقعت لجبريل<sup>(١)</sup> . فعلى بعد بضعة مئات من الخطوات من الأطلال البديعة التي كانت يوماً ما كنيسة قوطية ، يرى الإنسان قصراً يملكه السيد دي رينال ، وهو قصر قديم ذو أربعة أبراج وحديقة كحديقة التويلارى ، فيها دوائر كثيرة من شجر البقس ، وطرقات تحفها أشجار الكستناء التي تشذب مرتين في العام . يجاورها حقل ينتزه فيه سكان القصر وقد غرست فيه أشجار التفاح ، وكان في طرف البستان بعض أشجار من الجوز تبلغ ثمانى شجرات أو عشرأ ، طول كل منها يقارب ثمانين قدما . وقد أبدت مدام دي رينال إعجابها بهذه الأشجار فقال لها زوجها :

— إن كل شجرة من هذه الأشجار اللعينة تضع على في العام محصول نصف فدان لأن القمح لا يستطيع النمو في ظلها .

خيل لمدام دي رينال أنها ترى الريف للمرة الأولى ، فكان إعجابها

---

(١) كانت مغامرات صاحبة قصر فرجى مشهورة ، وبما لا ريب فيه أن الكاتب كان يعرف « أوبرا كرافا » التي كانت تسمى جيريلادى فرجى ، والتي كانت تمثل بنجاح كبير في إيطاليا منذ عام ١٨١٦ ، وفضلا عن هذا فقد ظهرت نسخة فرنسية لقصة شعرية ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى وتسمى « صاحبة قصر فرجى » طبعها كربليه سنة ١٨٢٩ . « العرب »

به شديداً ، وقد سبغت عليها العاطفة الجديدة كثيراً من الفطنة والعزم .  
واقترح عليها جوليان أن يهدرا في الحديقة طريقاً رملياً صغيراً ، يدور حول  
جنباتها ويمرّ تحت أشجار الجوز ، ليستطيع الأطفال أن يتنزهوا فيها منذ  
الصباح الباكر دون أن يؤذي الندى أحذيتهم . واستجابت مدام دي رينال  
إلى ما اقترح بعد وصولهم بيوم واحد . وكان زوجها قد غادر فرجى لأن  
مهام منصبه استدعته إلى فريير ، وأحضرت عمالاً على نفقتها ليمهدوا الطريق ،  
وقضت يوماً سعيداً مع جوليان في الإشراف على هذا العمل .

ذهل العمدة حين عاد من المدينة فرأى عمراً معبداً ، وذهلت مدام  
دي رينال حين رآته ، لأنها كانت قد نسيت وجوده .

وظلّ الزوج غاضباً على امرأته شهرين كاملين لأنها جرّوت على عمل  
هذا الإصلاح الخطير دون أن تستشيريه ، وإن كانت حدثه قد خفت حين  
رآها قد دفعت من مالها أجر هذا العمل .

كانت تقضى أيامها مع أطفالها في الحديقة لاهية عابثة ، تشاركهم  
مطاردة الفراش وصيدته ؛ وهم يلبسون قلائس كبيرة من نسيج شفاف  
ليصطادوا بها الحشرات ذات الأجنحة الصدفية . وكان جوليان يقصّ  
عليها بعض ما قرأ في كتاب چودار عن عادات هذه الحشرات ، وهو  
كتاب أحضرته له مدام دي رينال من بيزانسون . وكانوا يثبتون صيدهم  
من الحشرات في غير رافة بدبايس على ورقة غليظة أعدّها جوليان لذلك .

وهكذا لم يعد جوليان فريسة للآلام ، لم يعد يجلس صامتاً معها لأنه  
وجد أخيراً موضوعاً للأحاديث ، وبات الحديث بينهما غير منقطع بل

أصبح متواصلاً في شغف ولذة وإن تناول دائماً أشياء بريئة . وهذا اللون من الحياة القوية المرححة يستهوى من في المنزل جميعاً إلا الآنسة إليزا لأنها كانت مرهقة بالعمل ؛ وكانت تحدث نفسها قائلة : إن سيدتي لم تعتد من قبل أن تعنى بالزينة هذه العناية الكبيرة حتى في أيام حفلات فريير ، أما الآن فأراها تغير ملابسها ثلاث مرات كل يوم !

إننا لا نرى أبداً إلى التحيز لأحد أشخاص هذه القصة ، ولذلك لا نتمنى أن مدام دي رينال قد عمدت إلى حياكة ثيابها بطريقة تكشف عن ذراعيها وصدرها ، ليظهر لون بشرتها الناصع وجمالها الرائع ، فكانت في ثيابها الجديدة آية فنية بديعة . لذلك كان أصدقاؤها الذين يقدون عليها من فريير لتناول الطعام في فرجى يقولون لها :

— إننا لم نرك في حياتك يوماً أكثر شباباً منك الآن (وهي عبارة ألفها الناس في هذا الإقليم) .

والشيء الذي لا نكاد نصدقه ، أنها كانت تقوم بكل هذه الأعمال دون أن تفكر في غرض أو ترمى إلى هدف ، ولكنها تعمل لأنها تجد لذة فيما تعمل ؛ فساعاتها موزعة بين صيد الفراش مع جوليان وأولادها وبين صنع ثيابها الجديدة مع أليزا . ولم تذهب إلى فريير إلا مرة واحدة لتشتري لها ملابس صيفية كانت قد أحضرت من مولهوز . ثم اصطحبت معها إلى فرجى مدام ذرفيل إحدى قريباتها التي تربطها بها روابط وثيقة منذ كانتا معاً في دير القلب المقدس . وكانت مدام ذرفيل تضحك كثيراً مما تسميه الآراء الجنونية التي تصدر عن قريبتها ، إلا أن مدام دي رينال

كثيراً ما كانت تحدث نفسها قائلة: « لو أنني كنت وحدي ما فكرت على هذا النحو ». وهذه الآراء المفاجئة التي ترد دائماً على خاطر مدام دي رينال كانت تخفيها وهي مع زوجها كما تخشى ارتكاب حماقة كبيرة، وإن كان الباريسيون يعدّون مثل هذه الآراء ملجأً وظرائف. غير أن وجود مدام درقييل بعث في نفسها الشجاعة، فكانت تفضي إليها بما يجول في خاطرها في خجل واستحياء وبصوت يكاد يكون همساً؛ وإذا مكنتها معاً وقتاً طويلاً فإن نفس مدام دي رينال تقوى وتضطرم شيئاً فشيئاً، وكثيراً ما مرّت عليهما ساعات الصباح الطويلة وهما تتحدثان في فرح وسرور، دون أن تشعرًا بملل وكأنهما بدأتا الحديث منذ فترة قصيرة. وقد لاحظت مدام درقييل بما أوتيت من فراسة أن مدام دي رينال كانت في هذه المرة أكثر سعادة وأقل سروراً منها في المرات السابقة.

أما جوليان فكانت حياته في هذه القرية كحياة الأطفال، كلها هو وعبث. يجرى وراء الفراش أكثر مما يجرى تلاميذه. لقد أصبح بعيداً عن أعين الرجال، فليس في حاجة إلى اتباع سياسة ماهرة في ضبط عواطفه وكبت مشاعره، وأصبح لا يخشى مدام دي رينال بوحى من غريزته، فأطلق لنفسه عنان المرح والسرور، وما أشدّ الفرح بالحياة في مثل سنه وبين جبال هي أجمل جبال العالم!

وما كاد جوليان يرى مدام درقييل حتى ظنّها صديقة له منذ أمد بعيد، فأسرع إلى مصاحبتها ليطلعها على المنظر الرائع الذي يبدو عند طرف الطريق الجديد تحت أشجار الجوز الباسقة؛ وحقيقة إنّه كان منظرًا رائعاً إن لم

يفق مشاهد سويسرا وبحيرات إيطاليا فليس بأقل منها جمالا وبهاء .  
يصعد الإنسان فوق الجانب الجبليّ الواقع على بضع خطوات من الممرّ  
الجديد ، فسرعان ما يصل إلى وهاد كبيرة تحفها غابات السنديان ممتدة حتى  
تكاد تصل إلى النهر . وكان جوليان يتسلق قم الصخور العمودية فيشعر  
بالسعادة تغمر نفسه ، وبالحرية المطلقة ثم بشيء أكثر من هذا وذلك هو  
أنه سيّد هذا المنزل ، يصطحب الصديقتين ويمتّع نفسه بما تبدياته من  
إعجاب وتقدير لتلك المناظر الرائعة الجمال .

وكثيراً ما كانت مدام درقيل تقول :

— هذه المناظر تحدث في نفسى من التأثير ما تحدّثه موسيقى موزار تماماً .

لم يكن جوليان قد تمتّع من قبل بجمال الريف في ضواحي ثريبير لأن  
غيره أخويه منه ، وشخص أبيه الطاغية الغضوب أفسد في ناظريه كلّ  
موجود . وتخلّص في ثرچى من هذه الذكريات المريرة ، وشعر لأول  
مرة أن ليس له عدو في الحياة . وإذا كان السيد دى رينال غائباً في المدينة  
جرؤ جوليان على القراءة ، على أنه كثيراً ما كان العمدة يتخلّف في ثريبير .  
كان يخني مصباحه وهو يقرأ في زهرية يقبلها فوق المصباح ، لكنه كثيراً  
ما كان النعاس يحول بينه وبين القراءة في الليل . أمّا في النهار ، فكان  
يتسلّل إلى الصخور في الفترات التي لا يتلقى فيها الأولاد درسا ، مصطحباً  
كتابه الذي يقبّس منه مثله العليا وما يتأجج في نفسه من حمية ونشاط ؛  
ذلك الكتاب الذي كان يمده بالسعادة ، ويبعث في نفسه الإعجاب  
والدهشة والعزاء في ساعات حزنه ويأسه .



كان يقرأ بعض عبارات قالها ناپليون في المرأة ، و بعض مناقشات حول قيمة القمص المعروفة في عصره ، فكانت هذه كلها ثروة عقلية له ، و إن كان أقرانه قد عرفوها قبله بزمن طويل .

أشدت القيظ في فرجى فأخذت مدام دي رينال ومن معها يقضون سهراتهم تحت شجرة زيزفون ضخمة على بعد خطوات من المنزل وفي ليلة حالكة الظلام ، جلس جوليان يتحدث في حماسة وقد غمرته سعادة كبيرة حين أحس أنه يحسن الحديث إلى سيدتين جميلتين لا تزالان في ريعان الشباب ، كان كثير الحركات وهو يتكلم ، فلمست يده يد مدام دي رينال التي كانت تتكى بها على ظهر كرسى منقوش من تلك الكراسي التي توضع عادة في الحدائق ، فسحبت السيدة يدها بسرعة خاطفة ؛ فكر جوليان بعدها في أن واجبه يفرض عليه أن يعلمها ألاّ تسحب يدها إذا إذا لمستها يده ، وسرعان ما تغير سروره إلى حزن ، لأن فكرة القيام بالواجب أو السخرية منه أو على الأصح الشعور بمركب النقص قد استولت على نفسه ، فغاض من قلبه في الحال كل سرور .

# الفصل التاسع

## سهرة في الريف



رآها في اليوم التالي ، فأخذ ينظر إليها نظرات غريبة تتمّ عن عداوة حديثة العهد ؛ وأزعجتها نظراته إزعاجا شديدا لأنها من نوع جديد يغيّر ما ألقته منه إلى حدّ بعيد . لقد كانت رقيقة القلب كيّسة معه إلى درجة كبيرة ، ومع ذلك كان يبدو على وجهه الغضب فلم تفارق عيناها عينيه لتعرف سرّ غضبه عليها .

وأتاح وجود مدام درثيل فرصة لالتزام الصمت ، فتكلّم قليلا وفكّر كثيرا فيما يعتمل في نفسه . وقضى يومه في قراءة كتابه ذى الأُ العجيب في تهديئة خواطره وإعادة السكينة إلى نفسه ، حينما يكون حزينا مهموما ؛ ثم اشتغل قليلا مع تلاميذه ، ولما رآها تعنى به وتبذل له من نفسها ومشاعرها ما تبذل ، عزم على أن يحملها بأى وجه لتبقى يدها في يده هذه الليلة .

وغربت الشمس وأزفت الساعة للمعودة ، فدقّ قلبه سريعا ، ثم أرخى الليل سدوله ، فرأى في فرح شديد أن الظلام سيكون حالكا فزايله بعض ما كان يعانيه من ألم . كانت السماء مثقلة بسحب كبيرة متكاثفة تدفعها رياح حارة ، والجوّ يندربهبوب عاصفة . وظلت الصديقتان في نزهتهما إلى ساعة متأخرة ، وبدا له أن كلّ ما تعملانه الليلة غريب عليه ، لا عهد له به من قبل ؛ فقد كانتا تسعدان بهذا الجو الذي يزيد الأرواح الرقيقة فرحا على فرح ، ويدكي فيها جذوة الحب . . . ثم جلسنا

بعد طول الانتظار ، وأخذت مدام دي رينال مقعدها بجوار چوليان ، وجالست مدام درقيل على مقربة من صديقتها . كان چوليان مضطرب النفس ، مببل الخاطر لما اعتزم الأقدام عليه ، فلم يجد ما يقوله لهما ، وفترا الحديث فأخذ يسائل نفسه : كيف أضعف هكذا وأضطرب في أول صراع؟! وما كان يرى نفسه على حقيقتها ؛ لحذره الشديد من نفسه ومن الناس كذلك .

كان ضيق النفس كثير الاضطراب ، وخيل إليه أنه يهزأ بجميع الأخطار التي تعترض سبيله ، ثم عاد فتمنى أن يقع ما يضطر مدام دي رينال إلى مغادرة الحديقة والعودة إلى المنزل ! وكان الصراع الداخلي شديدا في نفسه ، ظهر أثره ظهورا واضحا في صوته الذي تغيرت نبراته ؛ ومرت فترة فاضطرب صوت مدام دي رينال ، ولكن چوليان لم يفتن لذلك لأنه مشغول بالمعركة القاسية التي تدور في نفسه بين الواجب والخجل . فلم يتنبه إلى شيء سوى ذلك . ودقت ساعة القصر العاشرة إلا ربعا والعجز لا يزال يقعه عن تنفيذ ما يريد ، فأسخطه جنبه وقال في نفسه : سأنفذ ما اعتزمت وما فكرت فيه طول يومى حينما تدق العاشرة تماما ، وإلا صعدت إلى غرفتى وقتلت نفسى .

ومرت لحظة كأنها دهر لما انتابه فيها من قلق واضطراب وفقد كل سيطرة على نفسه ؛ ثم دقت الساعة التي كانت فوق رأسه دقائق العشر ، فاضطرب قلبه في إثر كل دقة ، وأحسّ صداها في نفسه حتى كأنها حركة جسمانية . وبينما كانت الدقة الأخيرة لا يزال صداها يرن في أذنه ونفسه ،

مدّ يده وأمسك بيدها ، فأسرعت هي في إستردادها ؛ وكان في حالة لا تسمح له بأن يفهم ما يعمل ، فأمسك بيدها مرة أخرى ، وهو ناثرا النفس مضطرب المشاعر ؛ ولشدّ ما دهش حينما أحسّ أنها باردة لا حرارة فيها فضغطها في رعشة وارجفاج : وحاولت السيدة مرة أخرى أن تبعد يدها لكنه لم يمكنها من ذلك ، بل ظلّت بين يديه يداعبها ويضغط عليها .

وغمرت البعادة نفسه لا لأنه كان يحبّ مدام دي رينال ، بل لأنه تخلّص من عذاب أليم كان يساوره طول يومه . وبدأ يتحدّث حتى لا يثير شكوك مدام درثيل بصوت قوىّ باهر في هذه المرة ، أما صوت مدام دي رينال فكان مضطربا متعثرا ينم عن انفعالات كثيرة ، فظنّتها صديقتها مريضة واقترحت عليها أن تعود إلى المنزل . وعندئذ شعر جوليان بالخطر ، وقال في نفسه : لو أنّها سمعت نصيحة صديقتها وذهبت إلى الصالون لعادوني الألم المرّة الذي صاحبني طول النهار ، لأن إمساك يدها وقتا قصيرا لا يعد نجاحاً ولا يشفي غليلا .

واقترحت عليها صديقتها مرة أخرى أن تعود إلى البيت ، فضغط جوليان يدها بشدة فلم تستأ ولم تتألم . وكانت قد نهضت فجلست من جديد قائلة في صوت ضعيف خافت :

— حقاً إنني أشعر بديب المرض لكنني أظن أن الهواء الطلق ينعشني .

ووقعت هذه الكلمات من نفس جوليان موقعا جميلا وزادت في سعادته حتى أصبحت حقلا مرية فيه ؛ فتكلم في طلاقة ونسى مكره

وخبثه ، وخيّل للصديقتين وهما تنصتان إليه أنه أظرف رجل عرفه الوجود .  
غير أن فصاحته التي بدت فجأة كانت لاتزال فقيرة إلى الشجاعة ، لأنه  
كان يخشى أن تكون مدام درقييل شعرت بتعب من الرياح التي بدأت  
تهبّ والتي تنذر عادة بالعواصف ، فتعود وحدها إلى الصالون ويبقى هو  
ومدام دي رينال منفردين . لقد واتته شجاعة عمياء ، هبطت عليه مصادفة  
فأقدم على فعلته الجريئة ، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه بالعجز الشديد  
عن أن يقول لها كلمة واحدة . وخشى إن هي لامته في وحدتهما أن يُقلب  
على أمره ، وأن يذهب أدراج الرياح ما ناله من توفيق وما أدركه من نجاح .  
على أن الحظ واتاه في هذه الليلة ، فأعجبت مدام درقييل بحديثه البليغ  
المؤثر ؛ وكانت تصفه دائماً بأنه طفل أخرج يكون مسلماً في بعض  
الأحيان . أما مدام دي رينال فكانت لا تفكر في شيء على الإطلاق ،  
بل تركت نفسها على سجيتهما ؛ وشعرت بلذة كبيرة ويدها في يد چوليان .  
وأصبحت تلك الساعات التي قضتها تحت شجرة الزيزفون التي يقال إن  
شارل الجسور هو غارسها — أصبحت ساعات سعادة حقّة . كانت تنصت  
في لذة وارتياح إلى هزيز الريح وخفيف ورق الزيزفون وقطرات المطر  
التي بدأت تتساقط على الشجر . ثم نهضت لتساعد صديقتها على إعادة إناء  
من أواني الزهر إلى مكانه بعد أن دفعته الريح عند أقدامها ؟ فاستلمت  
يدها من يده ، لكنها أرجعتها إليه من غير تأبّ حين عادت إلى مجلسها  
كما لو كان ذلك شيئاً قد اتفق عليه من قبل ، فسر چوليان لهذا كل السرور  
واطمانت إليه نفسه اطمئناناً كبيراً .

كان الليل قد انتصف منذ وقت طويل ، فغادروا الحديقة جميعاً ومضى كل إلى مخدعه . وكانت مدام دي رينال سعيدة بحبها كل السعادة ؛ غيرها الحب فلم توجه لنفسها لوماً ولا عتاباً ؛ ولم تنم من سعادتها طول الليل . أما جوليان فقد أجده الصراع الداخلى الذى ثار فى قلبه بين الكبرياء والحجل فنام ليلته نوماً عميقاً .

وأوقف فى الساعة الخامسة من اليوم التالى ، فشعر بأنه قام بعمل مجيد ، قام بواجبه وهو واجب ينطوى على البطولة ؛ وإنه لشعور يؤذى مدام دي رينال كثيراً لو أنها علمته أو خطر ببالها . ثم غلبه شعوره بالسعادة فأغلق الباب وبقى فى غرفته يقرأ مغامرات بطله فى لذة جديدة فائقة . ودقّ الجرس لتناول العشاء فنسى ، وهو يقرأ نشرات الجيش الأكبر ، ما أصاب البارحة من توفيق كبير فأخذ يقول فى لهجة استهتار وهو هابط إلى الصالون : يجب أن أقول لهذه السيدة إنى أحبها .

وكان يمتنى نفسه بأنه سيرى النظرات المشتهاة التى توقع أن يراها ، لكنه لم يكده يدخل الصالون حتى وقع بصره على الوجه القاسى ، وجه السيد دي رينال الذى وصل إلى المنزل منذ ساعتين . وقد استاء لما علم أن جوليان قضى يومه فى غرفته ولم يعلم الأولاد شيئاً . ولشد ما يزداد السيد دي رينال قبحاً وشناعة حين يفضب ، ويريد أن يظهر غضبه ؛ فكانت كل كلمة قاسية ينطق بها تجرح قلب زوجته . كان جوليان لا يزال ينعم بذكرى تلك اللحظات السعيدة التى قضاهامس ؛ من أجل ذلك كان فى شغل عما يقوله السيد دي رينال ، لكنه حين نزل من علياء

تفكيره ليسمع ما يقوله العمدة في خشونة وقسوة ، أجابه على الفور في جفوة :

— لقد كنت مريضاً .

وكانت لهجة جوليان جارحة لا يحتملها من كان أقل نزقاً وسرعة انفعال من عمدة فريير ، فقبل إلى دي رينال أن يجيبه في قسوة ويطرده في الحال من منزله ، لكنه تريت نزولاً على الحكمة والأناة والصبر في كل أعماله ، ثم أخذ يحدث نفسه : هذا الأحق قد اشتمر في منزلي ، ولن يتردد قائلو في أن يتخذة معلماً لأولاده ، وربما تزوج إليزا . وعلى كل حال فسيسخر مني لو تم له هذا أو ذاك ، وإن كان هو لن يستطيع الجهر بهذه السخرية .

وعلى الرغم مما تملبه عليه نفسه باتباع الحكمة ، ثارت ثورة عنيفة ، وسب جوليان سباً مقدعاً فغضب ؛ وكادت مدام دي رينال تنفجر باكياً .  
وانتهوا من الغداء ، فطلبت زوج العمدة من جوليان أن يقدم لها ذراعه ويذهب معها إلى الزهرة ، وأخذت تضغط على ذراعه في صورة ظاهرة ، وتحدث إليه وهو يجيبها دائماً عن كل ماتقول في صوت منخفض :  
— هكذا خلق الأغنياء !

وكان الزوج يسير على مقربة منهما ، وقد زاد وجوده جوليان غضباً على غضب . وشعر فجأة بأن مدام دي رينال تتكلم على ذراعه اتسكاً ملحوظاً فألكه هذا ودفعا بقوة وخلّص ذراعه من ذراعها ، ولم ير السيد دي رينال من حسن الحظ هذا اللون الجديد من القحة ؛ لكن مدام

درقيل رأت ما حدث ، وأبصرت صديقتها تبكي بكاء مرأ ، أما دى رينال فقد شغل بفتاة قروية رآها تعبر طريقاً يدخل في ممتلكاته وتسير في بجانب من جوانب الحديقة ، فأخذ يرميها بالحجارة .

عندئذ قالت له مدام درقيل في سرعة ولهفة :

— خفف من حدتك يا سيد جوليان إن تفضلت ، ولا تنس

أن للناس جميعاً لحظات يغضبون فيها... فنظر إليها نظرات تنطوي على التحقير الشديد ، فعجبت من ذلك . ولو أنها استطاعت أن تفطن إلى ما تقوله نظراته لكان مجبها أشد وذهولها أقوى ، ولقرأت في نظراته أملا غامضاً في أن ينتقم لنفسه انتقاماً شديداً . وبما لا شك فيه أن مثل هذه اللحظات التي تصاب النفوس فيها بألم الأزراء هي اللحظات التي تخلق رجالاً أمثال روبسيير .

ثم حدثت مدام درقيل صديقتها في صوت منخفض :

— إن « جوليانك » لسريع الانفعال ، شديد الغضب ، إنه يخيفني !

— إنه محق في غضبه ؛ لقد تقدم الأطفال على يديه تقدماً كبيراً ،

فأى خطأ اقترفه حين قضى ساعات الصباح في غرفته ولم يعلم الأولاد شيئاً ،

يجب أن نعترف بأن الرجال قساة القلوب

ولأول مرة في حياة مدام دى رينال أحسَّت في نفسها شهوة الانتقام

من زوجها . وقد ثار جوليان على الأغنياء ثورة عنيفة ؛ وأظهر ما يضره لهم

من كراهية وبقضاء . ومن حسن حظه استدعى السيد دى رينال البستاني

وأخذ يعمل معه في وضع حواجز من الشوك في الطريق المؤدى إلى الحديقة .



ولزم جوليان الصمت طوال النزهة فلم يجب عما وُجّه إليه من حديث ، وأغفل ما أظهرته السيدتان من ودّ ورعاية ، فإنه ما كاد السيد دي رينال يتعدى حتى أستندت كلّ إلى ذراع من ذراعيه بحجة أنهما متعبتان .

وسار جوليان بينهما وقد احمر وجهها خجلاً واضطراباً ، أمّا هو فكان شاحباً في عظمة ، يبدو على محياه صلابة وحزم وجدّ ، تدلّ كلها على أنه يحقرها ويستهن بكل العواطف الرقيقة ، فكان التباين بين حالهما شديداً . على أنه كان يقول في نفسه : ماذا ! لو أن لي دخلاً يبلغ خمسمائة فرنك لأتمّ به دراستي ! آه ! إذن ما أقمت له وزناً !

كانت تلك الآراء الصارمة تشغل لته ، فلم يشأ أن يسمع من كلامهما الخلو إلا يضع كلمات حكم عليها بأنها تافهة ، ، ضعيفة ، سقيمة ، هي في الجملة أحاديث نساء .

وأرادت مدام دي رينال أن تتكلم من أجل الكلام ليظلّ الحديث متصلًا قوياً ، فذكرت لهما أن زوجها قدم من ثريير لأنه اشترى من بعض فلاحيه عيدان الذرة . ( وقد اعتاد أهل هذا الأقليم أن يحشوا حشايا الأسيرة بهذه الأعواد ) . ثم استطردت تقول :

— إن زوجي لن يلحق بنا الآن لأنه يعمل مع البستاني وخدام آخر في تجديد حشو الفراش ، وقد فرغ في الصباح من حشايا سرر الطابق الأول . ويعمل الآن في حشايا الطابق الثاني .

فامتقع وجه جوليان ، ونظر إليها نظرة غريبة ، ثم انفرد بها بأن جدّ

في سيره قليلا ، فأدركت مدام درقيل ما يرمى إليه وتركتهما يتعدان عنها ،  
ثم قال لمدام دي رينال :

— أتقضى حياتي يا سيدتي فأنت وحدك التي تستطيعين ذلك ؛ إن

الخدم يكرهني كما تعلمين حتى ليمنى موتي ، ويجب أن أعترف لك بأنني  
قد أخفيت صورة في حشية سريري .

فامتقع لونها ولكنه ظل يقول :

— أنت وحدك يا سيدتي التي تستطيعين دخول غرفتي في هذا الوقت ،

فأذهبي وقشّي حشيتي ، دون أن يشعر أحد ، وستجدين في الزاوية القريبة  
من النافذة صندوقاً صغيراً من الورق المقوى أسود اللون ناعم الملمس .

فتحاملت على نفسها ووقفت متهاككة تسأله :

— والصورة داخل الصندوق !؟

فاتهز جوليان ما رأى على وجهها من علامات القنوط وقال :

— لي رجاء آخر يا سيدتي هو ألا تلتقي عليها نظرة واحدة ، لأنّ

هذا من أسراري .

فقال في صوت خافت :

— هذا سرّ !

لقد نشأت بين أناس يعتزون بالمال ، ولا يباليون بشيء ، إلا بالثروة ،

ولكن الحب أكسب نفسها طيبة ونبلا ، وهي ، وإن جرحت جرحاً بالغاً ،

مخلصة لجوليان إخلاصاً شديداً ؛ فألقبت عليه بعض أسئلة تمكنها من

التقيام بالمهمة على أمّ وجه ، ثم قالت له وهي تفارقه :

— إذن هو صندوق صغير مستدير ناعم الملمس من الورق المقوى .  
فقال لها والجدّ يتمثل في وجهه إزاء خطر يهدده :  
— نعم ياسيدتي هو كذلك .

صعدت مدام دي رينال إلى الطبة الثانية من المنزل شاحبة الوجه  
كأنما تساق إلى الموت ؛ وشعرت لسوء حظها أنها تكاد تسقط من الإعياء ،  
لكن الفكرة التي تسلطت عليها وهي أنها تؤدي خدمة لجوليان شدت  
من أزرها ، فأسرعت خطاها وهي تقول :  
— يجب أن أعر على الصندوق .

وسمعت زوجها يحدث الخادم في غرفة جوليان ، ولكن التوفيق  
رافقها فذهبا إلى غرفة الأطفال ، فأسرعت هي إلى حجرة جوليان ورفعت  
الحشية ودست يدها في عيدان الذرة بقوة شديدة ولهفة فجرحت أصابعها .  
وهي وإن كانت شديدة الحساسية لا تقوى عادة على أخف الآلام ، إلا  
أنها لم تشعر بجراحها هذه ، لأنها وجدت الصندوق الصغير الأملس وقما  
جرحت ، فأخذته واختفت مسرعة .

ولما نجت من خطر أن يقع بصر زوجها عليها في غرفة جوليان ،  
شعرت بكرهية شديدة لهذا الصندوق كادت تفقدتها رشدها ؛ وقالت  
في نفسها : إنه لا بدّ عاشق وما هذه إلا صورة الحبيبة !

وجلست على مقعد عند مدخل الشقة التي كانت بها ، فأحست آلام  
الغيرة . لكن جهلها بالحب أفادها ، وخفف أثر عجبها من شدة ألمها . ثم  
أتى جوليان وأخذ صندوقه دون أن يتكلم ، أو يشكر وأمرع إلى غرفته

وأحرقه في الحال . كان شاحب اللون مضعضع القوى ، لأنه كان يباليغ في الخطر الذي يتهدده ؛ ولكنه سرعان ما قال في نفسه وهو يهز رأسه : صورة نابليون تُحباً في منزل رجل يعلن دائماً كراهيته البالغة لهذا الغاصب ! صورة نابليون يجدها السيد دي رينال الأهوج في غضبه ، المبالغ في تطرفه ! وبلغت حماقتي منتهاها حينما كتبت على الناحية الأخرى من الصندوق بضعة سطور بخطي تدل تماماً على إعجابي الشديد بنابليون ! وكل عبارة بتاريخها ، وآخرها كتبتة أمس الأول فقط .

نعم ، لو أنهم اكتشفوا سرى لضعبت شهرتي في طرفة عين ولا نمت تماماً تلك الشهرة التي أعدها ثروتى ، والتي أعيش من أجلها ... ولكن أية حياة أحيهاها يا إلهى ! قال هذا وهو يرى الصندوق تلتهمه النار . ومرّت ساعة واحدة بعد تعب عاناه ، وإشفاق من نفسه على نفسه ، فبعث ذلك في قلبه رقة ولينا ؛ ورأى مدام دي رينال فأخذ يدها مقبلاً إيها في إخلاص شديد لم يشعر به من قبل . فغمرتها السعادة واحمرت وجنتها ، ولكن سرعان ما استولى عليها غضب الغيرة فدفعته عنها .

وكانت كرامته لا تزال تعاني أثر ذلك الجرح القريب ، فما كادت تفعل هذا حتى عاوده حمقه ، فترك يدها في امتهان وإزدراء ، وولى مبعداً مسرعاً ، لأنه كان لا يراها إلا بمنظار واحد وهو أنها سيدة غنية . ذهب بعد ذلك إلى الحديقة يتنزه مفكراً في أمره وسرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة :

إني أسير ههنا كأنى سيد حرّ طليق ، لا أعبأ بتلاميذى ! إننى  
أعرض نفسى لقوارص كلمات السيد دى رينال وهو محقّ إن فعل . ثم  
عدا إلى غرفة الأطفال .

وأخذ أصغر الأولاد يلاطفه ويداعبه ، وكان جوليان يحبه كثيراً ،  
فهدأت ثورته وكاد يزايله الغضب ، وأخذ يقول فى نفسه :

لم يتعلم هذا الطفل بعد كيف يحقرنى ! وسرعان ما عاد يلوم نفسه على  
أن زايها الغضب ويقول: إن هؤلاء الأطفال يداعبوننى كما يداعبون الكلب  
الصغير الذى اشتروه بالأمس .

# الفصل العاشر

## قلب كبير ومال قليل

غير أن الحزن لا ينفطى المظهر الحقيقي ، بل قد يندفع  
بظلمته ، كما تنبئ السماء الخالكة بأعنف العواصف .  
[ دون جوان ١ ، فقرة ٧٣ ]



جاء السيد دي رينال خلال غرف القصر كلها ، ثم عاد إلى غرفة  
الأطفال يتبعه الخدم يحملون عيدان الذرة . فكان دخوله المبالغت كقطرة  
طفح بها الأبناء ، فسرعان ما اشتدّ شحوب جوليان وازداد عبوسه ، واندفع  
نحو العمدة الذي جمد في مكانه ينظر إلى خدمه ، ثم قال له :

— أعتقد يا سيدى أن أولادك كانوا يصيبون من التقدم ما أصابوا  
معى لو وكل أمرهم إلى معلم آخر ؟ وإذا كان جوابك بالنفى ، فكيف  
تجروء على أن تلومنى وتتهمنى بالتقصير فى تعليمهم ؟

فدب الخوف فى نفس دي رينال ، ولما أفاق من عجمه ؛ استنتج أن لدى  
الفلاح الشاب طلبات أو مقترحات حياة أيسر من حياته فى منزل العمدة ،  
وأنّ جوليان سيترك الأطفال . وكان غضب المعلم يزداد شيئاً فشيئاً كلما  
مضى فى الحديث إلى أن قال للعمدة :

— فى استطاعتى أن أعيش لو غادرت منزلك يا سيدى !

فأجابه فى تلعم قليل :

— يؤسفنى أن أراك شديد الانفعال .

وكان الخدم على بعد عشر خطوات ، مكتبين على ترتيب حشايا السرور ، فلم يبال بهم جوليان وقال في حدة بالغة :

— لا أقصد إلى ذلك ، وعليك أن تفكر في بذاة ما قلت ، وبما زاد الظن بلة أن سيدتين قد سمعتا ما قلت !

وخيل إلى العمدة أنه يفهم تماما ما يرمى إليه جوليان ، فأثار هذا في نفسه آلاما شديدة ، وكان العلم في ذلك الحين قد وصل إلى حد كبير من العيظ والحقق فصاح :

— أنا أعرف ياسيدى أين أذهب إذا غادرت منزلك هذا .  
ورأى العمدة بثاقب نظره أن جوليان قد اعتزم المعيشة في منزل قائلو ، فتهد وامتنع لونه كما لو كان أمام جراح يدعو إلى التهيؤ لأخطر العمليات المأتم قال :

— حسنا أيها السيد! أنا أقبل ما تعرضه على ، وبما أن أول الشهر بعد غد فسيكون أجرك خمسين فرنكا في الشهر .

كان جوليان على وشك أن يفرق في الضحك ، لكنه ظل مذهولا ، وسكت عنه الغضب ، ثم قال في نفسه : لم يكن احتقارى بهذا الحيوان كافيًا ، إنه يقدم ولا شك أكبر اعتذار تقدم عليه نفسه الوضيعة .

وكان الأطفال ينصتون إلى حديثهما في ذهول وعجب ، فجزوا إلى الحديقة ليخبروا والديهم بما يدور بين أبيهم ومعاهم ، فعلمت منهم حينئذ أن جوليان كان غاضبا كل الغضب ، ولكن مرتبه الشهرى ارتفع إلى خمسين فرنكا ، وتبع جوليان الأطفال بحكم العادة ، دون أن يلتقي نظرة

على دى رينال المغيظ المحنق الذى يقول فى نفسه : هذا مبلغ جديد أخسره بسبب قالنو ، ثمانية وستون ومائة فرنك ضحيتها الآن من أجله وهذا يحملنى على أن أحدث إليه فى صراحة عن مشروع التوريد للأطفال اللقطاء . وبعد لحظات قليلة ، ألقى جوليان نفسه أمام السيد دى رينال فقال له : — أنا فى حاجة إلى أن أعترف أمام الأب شيلان ، فى الشرف أن أخبرك بتغيبى بضع ساعات .

فأجابه العمدة فى رياء ظاهر وضحكة كاذبة :

— لك أن تتغيب طول اليوم يا عزيزى جوليان ، وإذا أحببت أن تغيب غداً كذلك يا صديقى فافعل ، ثم خذ حصان البستاني لتركبه إلى فرير .

وعاد دى رينال يحدث نفسه قائلاً : ها هوذا ذاهب إلى فرير ليلقى قالنو ويخبره بما اعتمزه ، إنه لم يعدنى وعداً صريحاً ، ولكن علينا ألا نتعجل الأمور وأن نترك أفكار هذا الشاب تفتر قليلاً حتى نحمد حماسه . وأسرع جوليان يخرق الغابات الكبيرة التى تصل بين فرجى وفرير . ولم يشأ أن يذهب توماً إلى الأب شيلان لأنه لا يريد أن يمثل فى التقاق دوراً جديداً ، فحرص على أن يعرف حقيقة ما يدور بنفسه وأن يستمع فى أناة وتؤدة إلى المشاعر المختلفة التى تهز قلبه هزاً عنيفاً . وابتعد عن أعين الناس جميعاً فأخذ يقول فى نفسه :

لقد كسبت معركة ! نعم قد انتصرت فى معركة !

وأضفت هذه الجملة على موقفه لونا رائعاً جميلاً ، وأعدت إلى نفسه



المهدوء والسكينة ، ثم قال : وأصبح أجرى خمسين فرنكا في الشهر ، ولكن السيد دي رينال لم يوافق على ذلك اعتباطا ، بل إنه في خوف شديد ، فيا ترى ما مصدر ذعره ؟ .

وتخيل جوليان أنه استطاع أن يبعث الرعب في قلب هذا الرجل الغني الخطير وأنه تمكن من أن يثور في وجهه منذ ساعة ، فيشت هذه الفكرة في نفسه سكونا واستقرارا . وبدأ يحس جمال الغابات التي هو فيها ، ويشعر بروعة المناظر التي تحتلها عيناه .

وسار في طريق تنتشر فيه صخور ضخمة عارية سقطت من الجبل من زمن بعيد واستقرت وسط الغابة التي نمت بها أشجار باسقة من الزمان . وألقت الصخور ظلها على الأرض فلطقت من حرارة الشمس على حين كانت أشعتها على بعد ثلاث خطوات من الظل شديدة قاسية ، لا يستطيع الماشي أن يتمهل في سيره قليلا من شدة وهجها .

واستراح جوليان فترة في ظلال الصخور ثم تسلقها ، فإذا به على مقربة من طريق ضيق غير ظاهر ، لا يطرده إلا رعاة العنز . ورأى نفسه قائما فوق صخرة ضخمة ، واثقا أنه معزل عن الناس جميعا .

وجعله هذا الموقف المادى يبتسم ، إذ صور له مكانة رفيعة يرجو من كل قلبه أن ينالها بين الناس .

وأصبح عليه هواء الجبال المنعش سكونا ، وأدخل في نفسه فرحا وسرورا ، حتى أحس أن قلبه لا ينطوي على حقد شخصي لعمدة ثريير ، بل هو يراه ممثلا لطبقة الأغنياء السفهاء في كل أرجاء العالم ، تلك الطبقة

التي يزدريها جوليان أشدّ الازدراء ، فهو إذن لا يكره دى رينال شخصياً على الرغم من الحركات العنيفة التي أقدم عليها أمامه وثورة الغضب التي أظهرها له . ولو أنّ الفرصة أتاحت لجوليان ألا يرى العمدة ثمانية أيام متوالية لنسيه تمام النسيان ، ولنسى كذلك قصره وكرابيه وأطفاله وأسرته . ثم أخذ يتحدث إلى نفسه : لقد أجبرته على أكبر تضحية وإن كنت لأدري السرّ في ذلك ! ماذا ؟ أصبح أجرى أكثر من خمسين إيكون في العام ؟ وقبل ذلك بلحظات نجوت من خطر شديد كاد يحيق بي ، فانتصرت اليوم مرتين ، انتصارين رائعين ، إلا أن الانتصار الثاني لا فضل لي فيه ، يجب أن أعرف كيف تم لي ذلك ؟ ولكن من الخير أن أترك هذه البحوث العويصة حتى الغد .

وقف جوليان على الصخرة العالية ونظر إلى السماء ، وقد التهب جسمه بشمس « أغسطس » المحرقة ، وكانت الزيزان تغرد في الحقول تحت الصخرة التي وقف عليها ، وإذا ما سكنت ، لفّ السكون حوله صمت عميق ، وكان يرى تحت قدميه مساحات شاسعة تبلغ عشرين فرسخاً ، وفوق رأسه بيزان تخرج من الصخور العالية بين الفينة والفينة لتطير في السماء في صمت وسكون . تطلّع جوليان إلى هذه الجوارح ، وتتبعها في طيرانها بنظرات تلقائية ، فأعجب بحركاتها الساكنة القوية ، وحسدها على قوتها وعزلتها . وقال في نفسه : كان هذا مصير نابليون ، فهل يصبح يوماً من الأيام مصيري ؟!

# الفصل الحادى عشر

## سهرة

وأما جوليا فكانت لا تزال رقيقة رغم فتورها ،  
وانسجبت يدها الصغيرة الرخصة مرتعشة من يده بعد أن  
ضغطتها ضغطاً رقيقاً هز كيانه ، مع أنه كان رقيقاً خفيفاً  
لم يعده العقل إلا طيف خيال .

[دون جوان : ١ فقرة : ٧١]



كان على جوليان أن يظهر في ثريير ، وقد خدمته المصادفات السعيدة ،  
فلقى السيد قالنو وهو مهم بمغادرة دار الخورى . وأسرع فقص عليه زيادة أجره .  
ولما عاد إلى ثرجى لم ينزل إلى الحديقة إلا بعد أن أرخى الليل سدوله ،  
وكان مضطرب النفس من الانفعالات الكثيرة التي لقيها في يومه ، والتي  
هزت مشاعره هزاً عنيفاً . ثم فكّر في السيدتين سائلاً نفسه : ماذا أقول  
لهما ؟ ذلك لأنه لم يكن الليلة على استعداد لأن ينزل إلى هذا المستوى  
العقلى النافه ، حتى يجارى السيدتين فيما تخوض فيه أفكار النساء جميعاً  
ليزيد من اهتمامهما ، وهما لا يتناولان إلا صغائر الأمور . حكمت مدام  
دزفيل وصديقتها على جوليان بالتموض ، وكان هو لا يفهم من حديثهما  
إلا نصف ما يسمع منهما ، وذلك للقوة ، أو على الأصح لعظمة الشاعر  
التي تؤثر في كيانه هذا الشاب الطموح ، إن جاز لى أن أقول ذلك . لقد  
كان في نفس هذا الخلق الغريب عاصفة في كل يوم تقريباً .  
دخل الحديقة وهو مستعد لسماع ما تقوله هاتان القريبتان الجميلتان ،

وكانتا تنظران قدومه بفارغ الصبر . واتخذ مكانه المهود إلى جنب مدام دي رينال ، واشتدت حلقة الظلام فأراد أن يمسك اليد البيضاء التي تشكى على ظهر المقعد ، والتي كان يراها منذ وقت طويل . وأمسكها فترددت مدام دي رينال قليلا ، ثم سحبتها في حركة غاضبة . ولم يكن جوليان يمانع أن يمسك من جديد تلك اليد الجميلة الرخصة ، وهو مواضل حديثه الحلو الذي يسوده المرح ، لولا أنه سمع صوت السيد دي رينال وهو يقترب منهم .

وكانت كلماته البذيئة لا تزال ترن في أذني جوليان منذ الصباح ، فقال في نفسه : أليست خير وسيلة للاستهزاء بهذا الرجل القوي الغني الخطير الشأن أن أتناول يد زوجه في حضوره ؛ وإذاً سأقدم على هذا ، أنا الذي قد بالغ في احتقاري !

ومنذ هذه اللحظة ، شملته سكينه لم يعتدها خلقه من قبل ، لكنها ما لبثت أن فارقتة ؛ ووداً في قلق شديد أن تترك له السيدة يدها ، فلم يستطع التفكير في شيء آخر .

كان دي رينال يتحدث عن السياسة وهو غضبان ، لأن اثنين أو ثلاثة من أصحاب الصناعات في فريير أصبحوا أكثر منه مالا ، وهم يعملون الآن على الوقوف في وجهه في الانتخابات ، وكانت مدام درفيل تصغى إلى حديث العمدة . أما جوليان فكان حانقاً على هذه الأحاديث ، فاقرب بمقعده من مدام دي رينال ، والظلام الدامس يحق كل حركة ، وجرؤ فوضع يده بالقرب من ذراعها الجميلة المكشوفة ، فمابث أن اضطرب وقد

كل سيطرة على نفسه . وقرب خده من ذراعها الجميلة ثم اندفع فوضع عليها شفتيه .

ارتعشت مدام دي رينال ، لأن زوجها على بعد أربع خطوات ، وأسرعت في مديدها إليه ، وحاولت في نفس الوقت أن تدفعه عنها قليلا . كل هذا كان يحدث والزوج لا يزال مشغولا بصت اللعنات على هذه المخلوقات النافمة وعلى اليعاقبة المتطرفين الذين أثروا ثراء واسعاً . أما جوليان فكان مشغولا بتقبيل يد مدام دي رينال تقبيلًا حارًا يفيض بالعواطف الثائرة ، أو هذا هو على الأقل ما بدا لمدام دي رينال من قبيلات جوليان ، مع أن هذه السيدة البائسة قد قام الدليل لديها اليوم على أن الرجل الذى تعبدته دون أن تعترف هى بذلك يحب امرأة أخرى ! وقد ظلت فريسة لآلام شديدة أثناء غيابه جعلها تفكر وتقول فى نفسها :

ماذا بى ! هل أحببت وأنا السيدة المتزوجة ؟ هل أصبحت عاشقة ؟!

إننى لم أشعر من قبل فى حياتى الزوجية بهذه الحماسة المضلة التى لا أستطيع معها أن أحول عن جوليان أفكارى . وهو فى الواقع لا يزال طفلاً يجلى كل الأجلال ! هذا جنون عارض ! وماذا يضير زوجى مهما تكن العواطف التى أكتنّها لهذا الشاب ؟ وزوجى لا يحب هذا اللون الخيالى من الحديث الذى يدور بينى وبين جوليان ، لأنه لا يعنى إلا بأعماله ومصالحه ، إذن فأنا لا أعطى جوليان شيئاً على حساب زوجى .

هذه النفس الساذجة الطاهرة التى أغراها الحب للمرة الأولى لاتعرف النفاق وقد ضلت دون أن تشعر ، لكن الفضيلة التى طبعت عليها نفسها

ظَلَّت قلقه مرتاعة ، وكان هذا هو الصراع القائم في نفسها حين ظهر جوليان في الحديقة ، وسمته يتكلم ويتخذ له مقعداً بجوارها ؛ فسعدت بذلك سعادة عجبت منها أكثر مما فُتنت بها . لم تكن تتوقع شيئاً مما حدث ، على أنها بعد لحظات قليلة قالت في نفسها : أيمكنني أن يرى جوليان ليغتنر له الناس كل خطاياهم؟ وارتاعت لهذه الفكرة فانزعجت يدها منه .

كانت تلك القبيلات الحارة ، التي لا عهد لها بها ، قد أنستها بغتة أن صديقها ربما أحب امرأة أخرى فصفت عنه تماماً . ولما زایلها ألم الشك المرير ، وسيطرت عليها السعادة التي لم تعرفها حتى في أحلامها ، غمرتها موجة من الحب القوي والمرح الشديد . وسرّ الحاضرون بالسهرة الطيبة إلا السيد دي رينال الذي ما فتى يذكر أولئك الذين درّت عليهم الصناعة مالا كثيراً . ونسى جوليان طموحه القائم ، فلم يعد يذكر مشروعاته التي لا يستطيع تنفيذها بسهولة . ورأى نفسه تحت سلطان الجمال لأول مرة في حياته ، وسبح في أحلام غامضة لذينة لا عهد له بها من قبل ، فأخذ يضغط ضغطاً خفيفاً على تلك اليد الجميلة التي فتنته . ولم يعد يسمع حركة أوراق اليزفون التي تمركها ريح الليل ، ولا كلاب طاحون نهر اللو التي يسمع نباحها من بعيد .

على أن شعوره هذا كان لذة ولم يكن عاطفة ! ولما عاد إلى غرفته لم يفكر إلا في سعادة واحدة وهي أن يكبّ على قراءة كتابه المختار ؛ ومن كان في سنّ العشرين لا يعنى إلا بشيء واحد هو كيف يعيش في العالم وكيف يترك فيه أثراً .

وتجلى عن كتابه المحبوب بسرعة لأنه دائم التفكير في انتصارات نابليون . ولمح في الانتصار الذي أحرزه لوناً جديداً فقال في نفسه : نعم لقد كسبت معركة ، وعلى أن أستفيد من هذا النصر . ينبغي أن أسحق كبرياء هذا الرجل الذي يعدّ من طبقة الأشراف ، منتهزاً فرصة تفهقره — هذا هو نابليون بعينه قطعاً — يجب أن أطلب إجازة لمدة ثلاثة أيام أقضيها عند صديقي فوكيه ، وإذا رفض طلبى فاوضته من جديد ، ولا بدّ أنه سيستجيب إلى ما أطلب .

أمّا مدام دي رينال فلم يغمض لها طرف طول ليلتها ؛ وخيل إليها أنها لم تنعم بالحياة قبل اليوم ، فلم تفكر في غير هذه السعادة التي غمرتها حين كان جوليان يطبع على يدها قبلاته الحارة القوية .

لكنّ فكرة واحدة وثبت إليها في صورة كلمة واحدة شنيعة : زانية ! وسرعان ما صوّرت لها الكلمة أشع الرذائل التي يجرّها حبّ الشهوة ، وازدحمت في رأسها الصور الأليمة وغذاها خيالها ، وزاد في قوتها ووضوحها . وقد حاولت تلك السيدة أن تستبقي في ذاكرتها الصورة الرقيقة التي رسمتها لنفسها عن جوليان ، وعن السعادة التي يضيفها عليها حبه ، لكن المستقبل أخذ يظهر لها في صورة كريهة حتى رأت نفسها — سلفاً — مهينة حقيرة .

لحظات قاسية شديدة الوطأة على نفس مدام دي رينال ، سبغت روحها بعدها في أماكن مجهولة . لقد شعرت بسعادة كبيرة تملأ نفسها بالأمس ، ولكنها الآن فريسة لأشدّ الآلام قسوة . لم تكن تفكر في هذا العذاب المرّ الذي بلبل خاطرها ، وخطر لها أن تفضى إلى زوجها

بأنها تخشى أن تحبّ جوليان . لكنها تذكرت — لحسن الحظ — قاعدة تعلمتها من عمّتها ليلة زواجها وهي أنّ من الخطر أن تعترف المرأة لزوجها بما يدور في نفسها لأن الزوج سيّد متسلط . واشتدّ بها الألم فجعلت تقلب كفيها .

ترأت لها صور متعارضة مؤلمة ، فكانت تخشى تارة ألا تكون محبوبة ، وتخشى تارة أخرى فكرة الجريمة والخيانة ، كما لو كانت ستشدّ في الغد إلى عمود بميدان فريير وبجوارها لوحة كبيرة تعلن للعوغاء جريمة الزنا التي ارتكبتها .

هي امرأة لا تعرف شيئاً من تجارب الحياة وليس لها خبرة بأمورها ، يستوى عندها حتى في أشد حالاتها يقظة وانتباها أن تكون مذنبه أمام الله أو أمام الناس ، فهي تخشى الله خشيتها ضجة يثيرها الناس من حولها لئلا أو جريمة .

وما تكاد تهدأ عن مساورتها فكرة الجريمة وما تجره عليها من ذبول العار والفضيحة وتعود إلى تفكيرها في حياة سعيدة بريئة تحياها مع جوليان في المستقبل كما كانت معه في الماضي ، حتى لا تلبث أن تقع فريسة لهذه الفكرة الخفيفة وهي أن جوليان يحب امرأة سواها . كان شحوبه لا يزال ماثلاً أمام عينيها حين خاف على صورة حبيته الضياع أو الفضيحة إن رآها الناس . ورأت للمرة الأولى الرعب والفرع يظهران على وجهه الهاديء النبيل . على حين أنه لم يبد مثل هذا التأثير خوفاً عليها أو على أولادها . وزاد هذا الخاطر من آلامها التي وصلت إلى حدّ لا تحتمله نفوس البشر ،



فأخذت تصيح بغير وعى حتى استيقظت وصيفتها ، ورأت مدام دي رينال بعد قليل ، وعلى مقربة من فراشها ، ضوءاً تحملها إليزا فصاحت وهي تحت سلطان جنونها :

— أهي أنت التي يجيها ؟

وشدّ ما ذهلت الوصيفة حيناً رأت اضطراب مولاتها ، ولكنها  
— لحسن الحظ — لم تنتبه إلى تلك العبارة الغريبة التي قالتها إذ شغلها عن ذلك ذهولها . وأحست مدام دي رينال ما وقعت فيه من حماقة فقالت :  
— إنتي محومة ، ويخيل إليّ أنّي أهذي ، فكوني على مقربة مني .  
وجعلها وجود إليزا تتغلب على أفكارها ، فشعرت ببعض الراحة ،  
وثاب إليها رشدها تماماً بعد أن كاد يفلت منها زمامه وهي تحت سلطان غفوتها . ثم رأت وصيفتها تحملق في وجهها ، فتخلصت من نظراتها بأن أمرتها أن تقرأ لها الجريدة ، فأخذت الفتاة تقرأ مقالا طويلاً أتاح للسيدة فسحة من الزمن تتخذ فيها قراراً لا يخلو من عفاف وفضيلة ، إذ عزمّت وهي تسمع صوت وصيفتها الملّ على أن تعامل جوليان حين تراه معاملة فآرة خالية من كل تودّد !

## الفصل الثاني عشر

### رحلة

[رى المرء في باريس أناسا متأقين ، وقد يرى  
في الريف أناسا على خلق عظيم :]

سييس

---<--->---

استطاع جوليان أن يحصل في الساعة الخامسة من اليوم التالي على  
إجازة ثلاثة أيام منحها إياه السيد دي رينال ، وكانت زوجه لاتزال في  
مخدعها ، وأحس الشاب رغبة في لقائها لأنه لا يزال يفكر في يدها  
الجميلة ؛ فنزل إلى الحديقة ليلقاها ، لكنها عمدت إلى أن تطيل مدة انتظاره .  
ولو كان جوليان يحبها حقا ، لراها حين أسندت جبهتها على الزجاج ، وهي  
في الطبقة الأولى خلف مضراع نصف مفتوح ، وأخذت تنظر إليه طويلا .  
وعلى الرغم من قرارها السابق نزلت إلى الحديقة لتلقاه ، وتورد وجهها  
الذي ما فارقه الشحوب من قبل .

هذه السيدة الساذجة كانت مضطربة ولاشك . . . ملكت نفسها  
مشاعر الكبت والغضب فغيرت طابع السكون العميق الذي يرتسم عادة  
على وجهها ، ويوحى باحتقار كل ما هو مادي وضعيف ، ويطبع وجهها الجميل  
بطابع روعة وفتنة .

رأها جوليان فهرول إليها ، وتأمل جمال ذراعيها تحت شال وضع  
على عجل فما حجب جمالها عن الأبصار . كان هواء الصباح منعشا فزاد  
بهاء وجهها الذي أفاضت عليه اضطرابات الليل حساسية شديدة ، فأصبح

أكثر قابلية للانفعال ، يظهر عليه كل شيء واضحا جليا . وفعل الجمال  
للمتواضع العميق ، الذى ينطوى على رأى وحس لا يكون فى الطبقة الدنيا ،  
فعله فى جوليان فكشف عن ناحية فى نفسه لم يكن يعرفها . كان معجبا  
بجمالها ، يبنى نفسه بلقاء ينطوى على الحب والعاطفة المشبوبة ، لكنه  
ذهل من هذا الفتور الذى لقيه من مدام دى رينال لأنها حاولت ألا  
يظهر على وجهها شيء مما تلقاه من حب وعذاب ، فأفلحت ، حتى اعتقد  
جوليان أنها ترمى إلى أن تفهمه حقيقة وضعه منها . ماتت على شفقيه  
ابتسامة الفرح ، وتذكر بغته مكانته من المجتمع ، وعلى الأخص فى نظر  
هذه السيدة الغنية التى تراث ثروة طائلة ، فتجهم وانطبت على وجهه  
آيات الكبر والغضب ، وحقق على نفسه كثيرا وندم على أنه آخر موعد  
رحيله أكثر من ساعة ؛ فلم يجد إلا لقاء فيه تحقير ومهانة . وقال فى نفسه :  
ليس فى العالم أشد حقا من رجل يغضب على الآخرين ، إن الحجر ليستقط  
على الأرض لأنه ثقيل ، فهل كتب على أن أظل طول حياتى طفلا  
صغيرا ؟ متى أتعلم هذه العادة الحسنة فأبذل من نفسى لهؤلاء الناس بمقدار  
ما آخذ من ملهم ؟ وإذا أردت أن أكون موضع تجلة منهم ومن نفسى ،  
فعلى أن أظهر لهم أن فقيرى هو الذى كتب على أن أعيش معهم ليستظل  
بغناهم ، أما قلبى فهو عنهم جد بعيد لا تستطيع قوتهم أن تناله بسوء ،  
إنه فى كوكب عال لا يضل إليه ما يبذلونه من إكرام أو ما يظهرونه من  
احتقار . وأفاضت على وجه المعلم الشاب هذه المشاعر التى ازدحمت فى نفسه ،  
أمارات تدل على القسوة والكبرياء الجروحة ، اضطربت لها مدام

دى رينال اضطرابا شديدا ، فتبدل فتورها الذى جعلته وسيلة للمحافظة على عفافها حين لقيت جوليان ، إلى رغبة حقه فى معرفة ما دهاه ، ولم تغير فجأة هذا التغيير ؟ وانتهت بفترة أحاديث الصباح التافهة التى تناول الصحة وجمال الجو ، فلم يجد أحدهما ما يقوله ، لكن جوليان كان أكثر منها ثباتا لأن أعماله لم تكن عن عاطفة مشبوبة ، فوجد سيلا سريعا إلى أن يقول لها : إنه لا يؤمن بصداقة تقوم بينهما . ولم يحدثها عن الرحلة التى سيقوم بها ، ثم حياها وانصرف .

وبينا كانت تنظر إليه وهو يغادر الحديقة — حزينه كاسفة البال لكبريائه القاسية التى نمت عنها نظراته اليوم ، وقد كانت بالأمس ظريفة رقيقة — جرى إليها ابنها الأكبر من أقصى الحديقة وقبلها قائلا :

— نحن فى عطلة لأن السيد جوليان مسافر فى رحلة .

وبعد أن سمعت هذه العبارة شعرت ببرودة قاتلة تسرى فى جسدها ، لقد كانت شقية لتمسكها بالفضيلة ، وكانت بضعفها أكثر شقاء .

واستولى هذا الحادث الجديد على تفكيرها كله ، فجعلها تتراجع كثيرا فى القرارات الحكيمة التى كانت وليدة ليلتها الليلاء ، ولم تعد المسألة لديها أن تقاوم رغبات معشوقها الظريف ، بل فى أن تتخلص تماما من سلطانه عليها .

كان عليها أن تتناول الغداء مع من تعيش معهم ، فزاد فى ألمها أن حديث زوجها ومدام درقيل وقت الغداء لم يكن إلا عن رحيل جوليان ، وذكر العمد أن لهجة جوليان وهو يطلب الإجازة كانت حازمة غير عادية . ثم أردف :

— مما لاشك فيه أن لدى الشاب الربيعي مقترحات أغراء بها شخص آخر . وإذا كان هو قائلو فلا بد أن سيشعر بخيبة كبيرة حين يعلم أن مرتب العلم أصبح ستمائة فرنك سنويا . ويخيل إلى أن قائلو قد طلب منه بالأمس في قرير مدة ثلاثة أيام يفكر فيها . وأراد السيد الصغير في هذا الصباح أن يفترّ منى حتى لا يخبرني بما استقرّ عليه رأيه فيما عرضت أنا عليه ، فذهب إلى الجبل . وقد وصلت بنا الحال إلى حدّ أننا أصبحنا مضطرين إلى مداراة عامل بائس أخذ يظهر السفاهة والقحة وعلينا نحن أن نتحمل سوء أده !

فقال مدام دي رينال في نفسها عند ذلك : لقد جهل زوجي مقدار ما أساء به إلى جوليان ومع ذلك ظنّ أنه سيتركنا ، فماذا يكون أمرى أنا معه ؟

آه ! لقد رُسم كل شيء !

ولكى تستطيع البكاء في حرية ، وتفرّ من أسئلة مدام درقيل ، ادعت أنها تعاني صداعا شديدا ، ثم قامت إلى فراشها . ولم يفت زوجها أن يسخر منها قبل خروجه قائلا لها :

— هكذا شأن النساء ، وإن في هذه الآلات المعقدة دائماً بعض الخلل .

وبينا كانت مدام دي رينال فريسة لأقصى آلام الحب الذي دفعها إليه الظروف دفعا فاستولى على كلّ مشاعرهما — كان جوليان يشقّ طريقه مرحا بين المناظر الجبلية الرائعة ليعبر سلسلة الجبال العالية الواقعة شمال فرجى ، وكان الطريق الذى يسلكه يعلو شيئا فشيئا بين

غابات الزان الباسقة ، ثم يكون طرقا كثيرة ملتوية فوق منحدر الجبل العالى الواقع فى شمال وادى نهر الدو . وتمرّ نظراته من فوق التلال القليلة الإرتفاع التى تشمل مجرى نهر الدو إلى الجنوب فتقع على السهول الخصبية فى بوجوليا وبوجوليه . وإن تكن نفس هذا الشاب الطموح قليلة التأثير هذا اللون من الجمال ، فإنه كان لا يملك إلاّ أن يقف بين حين وحين ليلقى نظرة على المنظر الشاسع الذى يترك فى النفوس أجمل الآثار .

وأخيرا وصل إلى قمة الجبل العالى القريب من ذلك الطريق المعترض الذى يؤدى إلى الوادى المنعزل حيث يسكن صديقه فوكيه تاجر الأخشاب . ولم يكن جوليان يتعجّل لقاء صديقه ولا مقابلة إنسان فى هذا الوجود .

كان مخفيا بين الصخور العارية كأنه طائر جارح ، يرى من أعلى الجبل كلّ من يقترب منه مهما يكن بعيدا . واكتشف كهفا فى منحدر يكاد يكون عموديا فى صخرة من الصخور ، فقصده إليه ثم جلس فيه ، ولعلت عيناه بريق السرور ، وجعل يحدث نفسه : أنا هنا بعيد عن أذى الناس جميعا . . .

وملكه شعور قوى فأخذ يدون أفكاره فى لذة كبيرة ، وإن كانت آراء شديدة الخطورة عليه ! واستعان على الكتابة بحجر مربع جعله درجا يستند عليه ، ثم شغلته الكتابة عن كل شيء حوله ، إلى أن رأى الشمس تغرب خلف الجبال البعيدة فى بوجوليه .

فسأله نفسه : لماذا لا أقضى ليلتى هنا ومعى الخبز وأنا حرّ طليق ! وصاغت أذنه كلمة الحرية فسبحت نفسه فى عوالم أخرى ، فقد أوحى

إليه نفاقه أنه لن يكون حراً حتى في منزل صديقه فوكيه . وظل جالساً ورأسه بين يديه تغمره سعادة لم يظفر بها في حياته ، وتسيطر عليه أحلامه ونشوة الحرية . ثم رأى أشعة الشمس تجبو شعاعاً بعد شعاع حتى غطى الكون ظلام دامس ، فظلت نفسه في تأمل ما كان يصوره له خياله مما سيلقاه في باريس يوم أن يعيش فيها . تصور باريسية جميلة أنيقة ظريفة لم ير مثلها في الريف ، تحبه ويحبها ، وإذا غاب عنها بعض الوقت فمأذلك إلا ليتسكك مجده ليصبح جديراً بأن تنفى في حبه .

ولو أن شاباً له خيال جوليان نشأ بين الحقائق المرة التي نشهدها في مجتمع باريس ، لأصابه خزي عظيم حينما يصل إلى تلك النقطة من القصة التي ينسجها خياله ، ولاختفت تلك الأعمال الجيدة كما يخفى الأمل في تحقيقها ليحل محلها المثل السائر الذي يعرفه جميع الناس : إن الرجل حين يفارق خليلته يتعرض بكل أسف إلى أن تخونه في كل يوم مرتين أو ثلاثاً ! وهذا الشاب القروي يؤمن بأن الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين الأعمال الجيدة هو أن الفرصة لم تتح له بعد .

واختفى النور وحل الظلام الحالك ، وكان على جوليان أن يقطع فرسخين حتى يصل إلى كوخ صديقه فوكيه . وهم بمغادرة الكهف فأشعل نارا وأحرق بمناية كل ما كتبه . ثم وصل إلى صاحبه في الساعة الواحدة صباحاً ، فعجب فوكيه من وصوله في هذه الساعة المتأخرة وإن كان هو لا يزال مكباً على كتابة حساب أمواله . وفوكيه شاب طويل القامة ، قبيح الوجه ، له تقاطيع كبيرة خشنة ، وأنف ضخم ؛ إلا أن قبحه يخفى

من ورائه سذاجة غير قليلة فطر عليها . وما كاد يرى جوليان حتى قال له :  
— هل فسد الأمر بينك وبين السيد دي رينال حتى أتيت على  
غرة في هذه الساعة ؟ فقصّ جوليان بطريقته حوادث أمس وما جرى بينه  
وبين العمدة . فقال له فوكيه :

— ابق معي ، فإنني أراك تعرف السيد دي رينال والسيد قائلو  
وموجيرون نائب الحاكم والجورىّ شيلان . لقد استطعت أن تدرك دقائق  
أخلاق هؤلاء الناس . أنت أعلم مني بالحساب ، وعلى هذا فأسند إليك  
حساب تجارتي التي أرباح منها ربحا عظيما . غير أن تعذر القيام بكل شيء ،  
والخشية من أن أقع على لصّ يسرق أموالى — إذا أشركته معى —  
يمنعانى من أن أقدم على أعمال أستطيعها كل يوم وأرباح من ورائها ربحا  
طائلا . لا يسكاد يمضى شهر واحد لا يربح منى فيه ميشو دي سانت أمان  
سته آلاف من الفرنكات ، مع أنى قابلته عرضا أثناء ضعفه فى بونتاراييه ،  
ولم أكن رأيتة منذ ستة أعوام . فلماذا لاتكسب أنت هذا المبلغ أو على  
الأقل نصفه ؟

واليوم الذى تشترك معى فيه سأدخل المزداد فى تلك المجموعة من  
الأخشاب وسيتخلى لى عنها المشترون جميعاً ، فلتكن شريكالى .  
غضب جوليان من هذا العرض لأنه صدم غروره وجنونه . ثم أعدّ  
الصديقان طعامهما بأيديهما كأنهما أبطال هومير ، لأن فوكيه كان يعيش  
وحده ؛ وأطلع جوليان على حسابه أثناء تناول الطعام ، وبيّن له ما تدره



عليه تجارة الخشب من أموال طائلة . وكان فوكيه يؤمن تماما بذلك ،  
جوليان وقوة خلقه .

وخلا جوليان بنفسه في غرفة من خشب الصنوبر فأخذ يقول :  
لا شك أنني أستطيع أن أربح هنا بضعة آلاف من الفرنكات ،  
ثم أنتظم بعد ذلك في الجيش أو في الكنيسة وفق ما ستكون عليه  
أهواء العصر في فرنسا ! والمال الذي أبتغيه كفيلاً بأن يدلّل  
العقبات التي تتعرض سبيلي . وحياة العزلة التي سأحياها في هذا  
الجيل ستتيح لي أن أتخلص من بعض جهلى المطبق ، وتمكنني  
من معرفة ما يدور على ألسنة الناس في الصالونات . ولكن فوكيه  
لا يريد أن يتزوج ويؤكد لي أن العزلة تشقيه ، ولا شك في أنه  
حين يتخذني شريكاً وأنا لا مال لي — إنما يرمى من وراء ذلك  
إلى أن أبقى معه رفيقاً لا أفاقره .

ثم صاح غاضباً : أأخون صديقي ؟

وفي الحق أنه لم يستطع في هذه المرة أن يقبل فكرة تحمله على ألا  
يكون رفيقاً مع رجل يحبه ، وإن كان النفاق وانعدام التودّد هما ما يحققان  
لنفس جوليان السلام . على أنه شعر فجأة بسعادة ، فقد وجد ما يعتذره  
لصديقه حين أخذ يحدث نفسه : ماذا ! أنفق من حياتي سبعة أعوام  
أو ثمانية أعيشها وضعياً ! ويصبح عمري بعد ذلك ثمانية وعشرين عاماً  
وهو العمر الذي انتهى فيه نابليون من القيام بأجد الأعمال ! حينئذ أ كسب

ملا بطريقة مجهولة من متابعة بيع الأخشاب ، وكسب مودة بعض اللصوص من المروسين ، فمن يضمن لى أن النار المقدسة التي تتيح للدرء أن يبني مجده تظل متأججة في صدرى لا تخبو حرارتها ؟

وفي اليوم التالى اعتذر جوليان فى هدوء لصديقه الطيب ، وأخبره بأن ميله إلى الانحراط فى سلك رجال الدين لا يسمح له أن يشتغل بالتجارة . وكان فوكيه قد بات ليلته معتقداً أن جوليان قد أصبح شريكه ، فذهل عندما جابهه بهذا رأى . وقال له :

— أتعلم أنى حين أشركك معى فى تجارتي ستأخذ أربعة آلاف فرنك فى السنة ؟ ومع ذلك تأبى إلا أن تعود إلى هذا السيد دى رينال الذى يحتقر كما يحتقر طيناً عالقاً بجذائه . وحينما تحصل على مبلغ مائتى لويس فما الذى يمنعك من أن تدخل المدرسة الأكليريكية ؟ وإنى أعدك بأكثر من هذا ، فأتعهد لك بأن تسند إليك أحسن وظيفة لخورى فى هذا الإقليم بأسره . ثم استطرد يقول بصوت منخفض : وذلك لأنى أقدم أخشاب الوقود إلى السيد . . . . . وإلى السيد . . . . . وإلى السيد . . . . . وهى من الزان الجيد ، لكنهم يدفعون ثمناً نجساً ، ثمن الخشب الأبيض ، ولكن لا يمكن أن يستمر المال بأحسن من هذا أبدا .

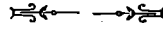
ولم يعدل جوليان عن رأيه على الرغم مما قاله صديقه ، فظن فوكيه أن به الوثة فى عقله . رحل اليوم الثالث فنادر جوليان صديقه فى ساعة مبكرة ليقضى يومه بين صخور الجبل العالى . ووصل إلى كهفه الصغير هذه المرة .

وهو غير هادىء النفس لما عرضه عليه صديقه . ولم يكن فى هذه المرة مثل  
هرقل متردداً بين الفضيلة والرذيلة ، بل كان متردداً بين أن يعيش مغموراً  
عيشة تضمن له لوئاً من الرخاء ، وبين أحلام البطولة التى يتطلع إليها  
شبابه . قال فى نفسه : لم أوهب بعد صلابة قوية ولا حزمأ صحيحاً— وكان  
هذا هو الشك الذى يسبب له أذى شديداً — فأنا لست إذن من طينة  
العطاء ما دمت أخشى أن أمضى ثمانية أعوام فى تحصيل قوتى فأفقد بهذا  
نشاطاً فياضاً هو السر فى كل الأعمال الخارقة الجيدة .

—

## الفصل الثالث عشر الجوارب الأنيقة

[ القصة مرآة يجتلي فيها الإنسان حوادث الحياة  
طوال عمره . ]  
سان ريبال



لما رأى جوليان وهو في ثرجى الأناث الرائعة التي خلقتها الكنيسة  
القديمة ، فطن إلى أنه لم يفكر في مدام دي رينال مرة واحدة منذ يومين ،  
فقال في نفسه : لقد ذكرتني هذه المرأة منذ يومين قبيل رحيلي بالفرق  
الشاسع الذي يفصل كلاً منا عن الآخر ، فقد أشعرتني بأني ابن عامل ،  
لتظهر لي — ولا شك — ندمها على أن تركتني أقبل يدها وأضبط عليها  
ليلة رحيلي . ولكن كم هي جميلة هذه اليد ! كم هي ظريفة ! وكم تنطوي  
نظرات هذه السيدة على نبل عظيم !

وأصبح جوليان أهدأ تفكيراً منذ أن أتاحت له فرصة الثراء لو عمل  
مع صديقه فوكيه ، ولم يعد يغضب للفكرة التي تسلطت عليه من قبل  
وهي أنه فقير وضيع في نظر كل الناس . وأضحى كمن يقف فوق قمة عالية  
يستطيع الحكم على ما يسميه فقره المدقع ويتحكم فيه وهو ينظر إلى السعة  
التي يعدها غنى . ومع ذلك كله كان بعيداً عن أن يكون فيلسوفاً ، لكنه  
أحس بغض حذق كسبه من رحلته في الجبل .

أذهله الاضطراب الذي سيحدث لمدام دي رينال حين تصفى إلى قصة  
رحلته عندما تطلب منه أن يقصها عليها .

كان فوكيه قد تحدث إلى جوليان عن مشروعات زواجه وعن حياة العاثر ، وأفضى إليه في ذلك باعترافات طويلة شغلت حديث الصديقين كله . وأخبره بأنه سعد بالحب في سن مبكرة ولكنه اكتشف أنه لم يكن هو المحبوب وحده .

أثارت هذه القصص دهشة جوليان وعلته أشياء جديدة كثيرة ، وكانت حياة العزلة القائمة على الخيال والحذر من الناس قد حرمتها كل ما تستنير به البصيرة .

كانت مدام دي رينال فريسة لآلام شديدة أثناء غيابه عنها حتى لم تقو على احتمالها فرفضت ؛ ولما عاد قالت لها مدام درفيل :

— إن حالتك لا تسمح لك بالنزول إلى الحديقة هذا المساء ، فرطوبة الجو تزيد في تعبك .

وتطلعت مدام درفيل في عجب شديد إلى تأنق صديقتها ؛ فقد لبست جوارب أنيقة وحذاء صغيرا جميلا اشتريته من باريس ، وكانت من قبل لا تهتم بشيء من ذلك حتى أنها زوجها على بساطة ثيابها . وكانت مكبة منذ ثلاثة أيام على حياكة ثوب جديد من نسيج جميل استهوى ذوق النساء فشاغ بينهن . واستحسنت إليزا في إنهاء هذا الثوب الصيفي الرائع ، فأنتهت منه الوصيفة قبل وصول جوليان بلحظات قصار ، ثم ارتدته مدام دي رينال في الحال . لذلك أصبح شك مدام درفيل يقينا وقالت في نفسها : إنها تحبه فيالها من بئسة ! ثم أدركت سرّ ما كان يعترها من مظاهر عجيبة للمرض . رأتها تحدث جوليان وقد تبذلت حرمتها الشديدة صفرة ، وبان القلق

في عينيها اللتين شخصتا إلى عيني المعلم الشاب زمناً طويلاً وصبرها نافذ لتعرف ما عزم عليه: أينادر منزلهم؟ أم، ياترى، سيبقى معهم؟ ولم يكن جوليان قد فكّر في هذا الأمر، فلم يذكر عنه شيئاً. وبعد صراع نفسيّ شديد جرّوت هي على أن تسأله في صوت مضطرب يحمل مافي قلبها من حب شديد له :

— هل ستترك تلاميذك لتعمل في جهة أخرى ؟

فذهل لاضطرابها ونظراتها، وقال في نفسه : هذه المرأة تحبني، ولكن كبرياءها ستجعلها تندم عما قليل على لحظة ضعفها الطارىء؛ وإذا ما اطمانت إلى مقامي فلا بد أن تعود إلى كبرها من جديد .

وتصور جوليان موقفه في طرفة عين فتردد قليلاً ثم أجابها :

— يعزّ عليّ أن أغادر أطفالاً هم على غاية من الظرف وكرم المحتد ، ولكنه يخيل إليّ أنّي سأضطرب إلى ذلك اضطراراً ، لأن لكل إنسان واجبات نحو نفسه . ونطق تلك الكلمات التي تعتمها حديثاً مما يتردد غالباً على ألسنة الطبقة الأرستقراطية : « كريم المحتد » فلما كتته الكراهية والبغضاء حتى قال في نفسه : إنني في نظر هذه المرأة غير كريم المحتد .

كانت مدام دي رينال معجبة بنبوغه وجماله ، تصغى إلى حديثه وقلبيها يرتعد فرقاً من احتمال أن يرحل جوليان عنهم كما لمح لها في حديثه . وقد تعشّى على مائدتها أصدقاء من فريير ، وجوليان غائب فهنثوها بهذا المعلم الشاب الذي يعدّ كنزاً عثر عليه زوجها في عبارات تنمّ عن حسدهم وغيرتهم ، وإن كانوا لا يعلمون شيئاً مما أصابه الأطفال من تقدّم على يدي

جوليان ، ولا يفهمون من ذلك كثيراً ولا قليلاً . لقد كان الإعجاب شديداً بهذا الشاب الذى يحفظ الإنجيل باللاتينية عن ظهر قلب ، وهو إعجاب قد يستمرّ قرناً كاملاً عند أهل فرير جميعاً .

ما كان جوليان يعلم شيئاً عن إعجاب الناس به ؛ لأنه ما كان يتحدث إلى أحد فى فرير . ولو أن مدام دى رينال وهبت قليلاً من رباطة الجأش ، لأخبرته بما نال من شهرة وحسن سمعة بين السكان فأرضت بذلك كبرياءه ، ولأصبح معها رقيقاً ظريفاً وبخاصة بعد ما أعجب بثوبها الجديد الذى كان يروقها كما راقها ما قاله لها جوليان . فأرادت أن تنزهه فى الحديقة ، وما لبثت أن قالت إنها غير قادرة على السير فاستندت إلى ذراعه ، ولكنها زادت ضعفاً وفارقها ما بقى من قواها حين أحسّت ذراعه .

كان الليل قد أرخى سدوله ، وما كادوا يجلسون حتى عمد جوليان إلى أن يتمتع بما يعده امتيازاً قديماً له ، فأدنى شفثيه من ذراع جارتة الجميلة وأمسك بيدها وهو يفكر فى جرأة فوكيه مع خليلاته ، لا فى مدام دى رينال ، لأن كلمة « كريم الأصل » كان وقعها لا يزال ثقيلاً على قلبه . وضُغِطت يده لكنه لم يشعر بلذة ، وظلّ جامداً غير شاكر ولا فخور بما تبديه من حركات تعبر عن الحب ؛ ولم يتأثر بجالها ولا أناقها ، كلاً ولا بسحر ثيابها . ومما لاشكّ فيه أن نقاء النفس وتحرر المشاعر من البغضاء عامل يطيل أيام الشباب ؛ وأن الشيخوخة تدرك الوجوه أول ما تدرك فى معظم النساء الجميلات .

وظلّ جوليان عابساً طول السهرة ؛ كان غضبه حتى الآن منصّباً

على المجتمع والمصادقات؛ ولكن منذ عرض عليه صديقه فوكيه تلك الطريقة الوضيعة التي تحقق له الثروة ، انصب غضبه على نفسه . كان جوليان غارقاً في تفكيره تماماً ، وإن تحدث إلى السيدتين بين الحين والحين يبضع كلمات ، وكان قد تخلى عن يد صديقتها على غير وعي منه ، فتألمت السيدة المسكينة مما فعل ، واضطرت نفسها وتكشفت لها عاقبة أمرها .

لو أنها كانت واثقة من حبه لها ، لدفعها الفضيلة إلى أن تظهر أمامه بمظهر القوة ، لكنها اضطرت مخافة أن تفقده إلى الأبد ، وأضلها الحب ضللاً بعيداً حتى حملها على أن تمدّ يدها لتمسك يد صديقتها التي كانت ممدودة على ظهر أحد المقاعد ، وهو غافل عن نفسه . فأيقظت بهذا نفس ذلك الشاب الطموح : ودّ لو رأى ما أقدمت عليه صديقتها كل أولئك الأشراف المتكبرين الذين ينظرون إليه وهو بين الأطفال على طرف المائدة المنخفض نظرات متعالية شائخة . ولكنه عاد يقول في نفسه : لن تستطيع هذه المرأة أن تحتقرني بعد ذلك . ولهذا ينبغي أن ألبى نداء جمالها ، وواجبي نحو نفسي يفرض عليّ أن أكون خليلها . ولم يكن مثل هذا ليطرأ على باله ، لولا ما أفضى به صديقه فوكيه إليه من اعترافات تدل على السذاجة .

وسرّى عنه هذا القرار الفجائي بعض ما يلقاه ، فأخذ يقول : عليّ أن أختار إحدى هاتين المرأتين . وودّ لو أنه غازل مدام درثيل ، لا لأنها أجمل من صديقتها ولا أكثر جاذبية ، ولكن لأنها تعرفت به وهو معلم أكسبه علمه مجداً وشرفاً . أما صديقتها فقد عرفته ابن نجار يحمل كساءه تحت إبطه .



لم تره مدام دي رينال ظريفاً كيوم أن أتى إلى منزلها عاملاً يافعاً  
وقف بالباب لا يجرؤ على أن يدق الجرس .

وجعل يستعرض موقفه في ذهنه فانصرف عما فكر فيه من مغازلة  
مدام درقيل التي يحتمل أن تكون قد رأت ما تظهره صديقتها له من حب  
وهيام ، وعاد إلى التفكير في مدام دي رينال فقال في نفسه : ماذا أعرفه  
عن خلق هذه المرأة ؟ أنا لا أدري من أمرها إلا أنها انتزعت يدها من يدي  
قبل رحيلي ، واليوم أنتزع يدي من يدها فتأخذها وتضغطها ، فيا لها  
من فرصة أرد فيها على احتقارها باحتقار مثله ! ولا يعلم إلا الله عدد عشاقها  
في الماضي ! ويخيل إلى أنها إن اتخذتني خليلاً فما ذلك إلا لأننا  
نتقابل بسهولة .

وهذا مع الأسف ضرر المدنية المبالغ فيها ! لأن الشاب حين يبلغ  
العشرين وقد أوتى قسطاً من التعليم يحيا حياة بعيدة كل البعد عن سجيته  
وطبعه ، وبذلك يصبح الحبّ لديه أثقل الواجبات .

وقد شاءت كبرياء هذا الشاب أن يقول في نفسه : ومما يحملني على أن  
أتصل بهذه المرأة ، أنني لو أصبحت في المستقبل ثرياً وعاب على الناس هذا  
العمل الوضيع الذي أزاوله ، فإني سأجعل من اتصالي بها عذراً أعتذر به  
إلى اللامعين قائلاً : إن الحب وحده هو الذي حملني في الماضي على أن  
أكون معاملاً .

وانتزع جوليان يده من يدها ، ثم تناوها مرة أخرى وأخذ يضغط  
عليها ؛ وحين انتصف الليل سأله مدام دي رينال وهما في طريقهما إلى  
الصالون بصوت خافت :

— هل ستركنا حقاً؟ هل سترحل؟

فتنهـد جوليان مجيئاً :

— يجب أن أرحل لأنى أحبك حباً جماً . . . إنها لخطيئة . . . ويالها

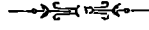
من خطيئة يقترفها قس شاب !

فاتكأت على ذراعه ومالت عليه حتى أحسّ خدها حرارة خده .  
كانت لياليهما مختلفة متباينة : فمدام دى رينال تسيطر عليها لذة  
معنوية قوامها شرف و عفاف . إن الفتاة المدللة التى تعرف الحب فى حداتها  
تعتاد ما يحدثه فى النفس من اضطراب ، وحتى إذا بلغت سن الحب الحقيقى ،  
فإنها لا تجد فى الحب ما يلقاه المحبون من جدة طريفة . لم تقرأ مدام  
دى رينال قصصاً من قبل ، لذلك كانت هذه الألوان الدقيقة التى تسبغ  
عليها سعادة الروح ، جديدة عليها . ولم تطفئ حرارة نفسها حقيقةً مرة ؛  
كلا ولا شبغ المستقبل . خالت أن سعادة لحظتها هذه ستبقى كذلك لعشرة  
أعوام مقبلة . وأما تلك الفكرة التى اضطرت لها قبل ذلك بأيام ، وهى  
فكرة الفضيلة ويمين الإخلاص للسيد دى رينال ، فقد استبعدتها عن  
خاطرها كلما وثبت إليه كأنما هى ضيف ثقيل ؛ وكـم حدثت نفسها قائلة :  
لن أسمح لجوليان أن ينال منى شيئاً ، بل سنعيش فى المستقبل كما عشنا  
منذ شهر ، ولن يكون لى أكثر من صديق .

# الفصل الرابع عشر

## المقص الإنجليزى

[ كانت فتاة فى السادسة عشرة من عمرها وردية اللون ، ومع ذلك تصبغ وجهها بالأحمر ].  
بوليدورى



قلق جوليان من اقتراح فوكيه لأنه لم يستطع أن يقرّ فى أمره شيئاً ، وقال فى نفسه : واسوأته ! هل فقدت كلّ خلق ؟ لم أكن أصلح جندياً فى جيش نابليون ؛ على أن تلك القصة الغزلية التى بدأتها مع ربة الدار ستسلينى بعض الوقت .

ولم تكن نفسه — لحسن حظه — تؤمن بما يقول لسانه عن هذه المسألة التى يعدها ثانوية ؛ بعث ثوبها الجميل الخوف فى قلبه وكان يعده مقدمة لثياب باريسيات الأنيقة التى سيراها حين ينزل العاصمة . وحملته كبرياؤه على أن يعدّ لكلّ شيء عدته ولا يبيت فى أمر بما يكون عفو الخاطر . ففكّر فى رسم مفصل لهذه المعركة على ضوء الاعترافات التى سمعها من فوكيه ، وما قرأه من قصص عن الحبّ فى الإنجيل . وكان مضطرب النفس غير معترف باضطرابه ، فأخذ يكتب هذا المنهج المفصل لتلك المعركة الغرامية .

وفى اليوم التالى انفرد بمدام دى رينال فى الصالون فقالت له :

— أليس لك اسم آخر غير جوليان ؟

فهزّه هذا السؤال المدلل لأنه لم يكن أعدّ العدة للأجابة عنه في البرنامج الذي رسمه . ولولا حماقته في أن أعدّ لكل شيء عدته لأسعفته اليهودية والذكاء : وزادت المفاجأة نظرانه حدّة وحيوية .

وهكذا فشل في الرد عليها وبالغ في الفشل ، لكنها غفرت له لما رأت طويته رقيقة سليمة ، بعد ما اعتقدت أنها الصفة الوحيدة التي تنقصه ليكون رجلاً كاملاً في نظرها . كانت تراه ذكياً نابغاً إلا أن طيبة القلب لم تكن من صفاته ، إلى حدّ أن قالت لها مدام درثيل :

— إن معلمك الشاب ليحملني على كثير من سوء الظن به ، لأنه دائم التفكير ولا يأتي أمراً إلا بمقدار ، إنه كثير النفاق .

خجل جوليان ، وعزّ عليه ألا يستطيع الإجابة عن هذا السؤال المباغت وأخذ يقول في نفسه : ينبغي لرجل مثلي أن يتدارك ما وقع فيه من فشل ! وانهز فرصة انتقالها من غرفة إلى أخرى فاعتقد أن واجبه يلزمه أن يقبلها . فلم تكن القبلّة مغربة ولا حسنة الوقع في نفسيهما معاً ، بل كانت من الحماقة بحيث كاد أمرهما يفتضح .

واعتقدت مدام دي رينال أنه مجنون ، فذعرت ونفرت . وذكرتها حماقته بما حاوله معها فالنوم من قبل ؛ وحدثت نفسها قائلة : إذاً ماذا يحدث لو كنّا في خلوة ؟ . . .

وعادت إليها الفضيلة كاملة لأنّ الحبّ تواري ، وعملت على أن يكون أحد أبنائها بالقرب منها دائماً ؛ فضجر جوليان طول يومه ، وقضى نهاره في تنفيذ البرنامج الذي رسمه لإغرائها ، ولكنه لم يحسن التنفيذ . ولم ينظر

إليها مرّة إلا وسألها عيناه : فيم الغضب ؟ ومع ذلك فلم يكن من الحق بحيث لم يدرك أنه فشل في أن يكون ظريفاً معها كما فشل أيضاً في إغرائها . وعجبت مدام دي رينال كثيراً من سلوكه الأحمق الجريء ، وقالت في نفسها وهي شديدة الفرح : هذا حياء الحب في نفس الرجل الذكي ! هل أستطيع أن أفهم من هذا أن منافستي فيه لم تحببه ؟

و بعد الغداء ، ذهبت إلى الصالون لتستقبل شاركو دي موجيرون نائب حاكم براى . وكانت مكتبة تعمل على منسج صغير مرتفع و مدام درقييل إلى جوارها . وفي هذا الوضع في وضوح النهار ، أخذ بطلنا جوليان يضغط بجذائه على قدم مدام دي رينال ، دون أن يهتم بوجود الزائر العزل الذي كانت الجوارب الأنيقة والحذاء الباريسي الصغير قد جذبت نظراته . ذعرت مدام دي رينال ذعرا شديدا وتركت في الحال مقصها ولقائف الصوف والإبر تسقط على الأرض لتفسر الحماقة التي ارتكبتها جوليان بأنها حركة أراد بها أن يمنع المقص من السقوط حين رآه يفلت . ولحسن حظها سقط هذا المقص الذي كان من صلب انجليزى فانكسر ؛ ومك ندمت لأن جوليان لم يكن على بعد قريب منها وقالت له :

— لقد رأيت قبلى وهو يسقط ، وكان في استطاعتك أن تتناوله قبل أن يصل إلى الأرض ، لكنك لم تفلح في استعمال نشاطك كله إلا في أن تركنى ركلة قوية .

فدع نائب الحاكم ، ولكن مدام درقييل لم تخدع ، وقالت

في نفسها : إن لهذا الشاب الجليل حركات حمقاء . ذلك لأن فن الحياة في إحدى عواصم الأقاليم لا يغتفر مثل هذه الأخطاء . ووجدت مدام دي رينال فرصة مواتية فقالت لـجوليان :

— كن حذرا ! وأنا أمرك بهذا .

وأدرك جوليان ما في عمله من حماقة ، فامتعض وناقش نفسه طويلا ليعرف ما إذا كان ينبغي له أن يغضب من هذه الجملة : « أنا أمرك بهذا » . وكان شديد الغفلة حين دارت في خلده هذه الفكرة : كان في استطاعتها أن تقول : « أنا أمر بهذا » .. لو أن الأمر يتعلق بشيء في تعليم الأطفال ولكن المسألة تتناول الحب ، فكان عليها أن تفترض المساواة تلك التي لا يقوم حب بغير وجودها . وضلت نفسه في آراء مبتذلة مطروقة وهو يفكر في المساواة ، وردّد قول كورنى غاضبا ، ذلك القول الذي تعلمه من مدام درقييل منذ أيام :

« إن الحب يخلق المساواة ولا يبحث عنها » . ثم أصرّ بعد ذلك كله على أن يمثل دور دون جوان وإن لم تتح له الفرصة من قبل ليتخذ خلية واحدة ، فخانه التوفيق طول نهاره . وسّم من نفسه ومن مدام دي رينال . ولم يطرأ على فكره إلا رأى واحد صحيح ، وهو أنه يرتعد ارتعادا شديدا حين يرى نفسه بجوارها في الحديقة إذا أقبل الليل وخيم الظلام .

فطلب من السيد دي رينال أن يسمح له بالذهاب إلى ثريير ليري اللخوري . وغادر المنزل بعد العشاء ولم يعد إلا في ساعة متأخرة من الليل .

قابل جوليان الأب شيلان فرآه مكباً على نقل أثنائه ، لأنه عزل من منصبه وحلّ محله الخورى مالون . وساعد جوليان صديقه الشيخ ، ثم كتب إلى فوكيه خطابا يقول فيه إنه رفض أول الأمر عرضه السخية لتعلقه بأمور الدين ولرغبته في أن يكون من رجال الكنيسة ؛ ولكنه رأى اليوم مثلاً من أمثلة الظلم الصارخ ، ربما حمله على أن يعدل عن رأيه ويقبل ما اقترحه عليه .

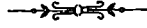
وهنا نفسه بأنه أفلح في أن يتخذ من فصل خورىّ قريير عبرة جعلته يحرص على أن يظلّ الباب مفتوحاً فيشتغل بالتجارة إن تغلبت في نفسه نزعة الحذر المبتئس على نزعة البطولة .

## الفصل الخامس عشر

### صياح الديك

[ الحب في اللاتينية يسبب الموت ؛ فالمتوفى إذا يأتي من الحب . أما ما قبل الموت فتعب مضم ودسائس ونوح وألم ودموع ... ]

هجاء الحب



لو رزق جوليان شيئاً من اللباقة التي يعتقد أنه فطر عليها ، لهناً نفسه بما تركته رحلته إلى ثريير من أثر في نفس صديقه ، فقد أنساها غيابه حماقة وسفهه وإن ظلّ مكتئباً طول يومه . وحلّ المساء فبدا له رأى غريب أخبر به مدام دي رينال في جرأة شديدة .

إذ ما كادوا يجلسون في الحديقة حتى اقترب منها جوليان ، ولم ينتظر ظلمة الليل فجعلها عرضة للأحاديث ، ثم أدنى فمه من أذنها قائلاً لها :  
— سأحضر الليلة في الساعة الثانية إلى غرفتك لأفصي إليك بعض الأخبار .

كان مضطرباً بأشد الاضطراب خشية ألا تجيب طلبه ؛ وكان دور الأجراء الذي يمثله قد أرهقه أشدّ الأرهاق ؛ ولو أنه استمع إلى نفسه لذهب إلى غرفته وأقام فيها بضعة أيام حتى لا يرى هاتين السيدتين .

وقد أدرك أن سلوكه المتكلف بالأمس لم يكن موفّقاً ، حتى أضع الأثر الجميل الذي تركه في نفس صديقه في اليوم السابق ؛ وقد كان في الواقع شديد الحيرة لا يدري ما يفعل .



ردت مدام دى رينال على طلب صديقها رد المغيظ المحق ، وكانت صادقة فى سخطها على ما جرؤ فحدثها به . وظن أن ردها الموجز ينطوى على الاحتقار حتى كاذ يجزم بأن جوابها الموجز الخلفت الهامس ما كان إلا أن قالت : أف لك !

فهض من مكانه متعللاً بأنه سيتحدث إلى التلاميذ ثم ذهب إلى غرفتهم . ولما عاد إلى الحديقة جلس بجانب مدام درقيل وعلى بعد واسع من مدام دى رينال ، يطمئن معه تماماً إلى أنه لن يمك يدها . واتخذ الحديث صبغة جدية فأجاد فيه جوليان كل الإجابة . وكان يسكت بين لحظة وأخرى ليعمل فكره وهو يقول فى نفسه : ألا أستطيع أن أجد سبيلاً واضحاً يحملها على أن تصارحنى بالحب ، إنها جعلتنى أعتقد منذ ثلاثة أيام أنها رهن إشارتى !

كان مضطرباً نقشله اضطراباً عظيماً ، وكان أخوف ما يخافه ألا يصادف ما يطمع فيه من نجاح . وآذنت ساعة الفراق فى منتصف الليل ، فحمله التشاؤم على الاعتقاد بأن مدام درقيل تحترقه وربما كان موقفه مع مدام دى رينال ليس خيراً من هذا .

أوى إلى مخدعه ولكنه لم ينم لما شعر به من خيبة شديدة . كل هذا ولم يفكر أبداً فى أن يترك التكلف والحيلة ومارسه من مشروعات ليعيش معها يوماً ما قانعاً بالسعادة التى يجلبها له النهار كما يفعل الأطفال . لقد أجهد نفسه وعقله فى اختراع خطط خالها محكمة ، حتى إذا ما طبقها

تبين له أنها فاشلة لاتغنى عنه شيئاً . ودقت ساعة القصر الثانية صباحاً ، فاستيقظ شديد التعاسة .

أيقظته دقائقها كما كان صياح الديك يوقظ القديس بطرس ، فرأى نفسه مُقدماً على أخرج عمل يعمله . ولم يكن قد فكّر في هذا الاقتراح السفیه منذ اللحظة التي عرضه فيها ، والذي قوبل منها أسوأ مقابلة !

جعل يحدث نفسه وهو ينهض من فراشه : لقد أخبرتها بأني سأذهب إلى مخدعها في الساعة الثانية ، وقد أكون قليل الخبرة فظاً كما يكون ابن فلاح . لقد عرضت لى بذلك مدام درقييل ، ولكننى على الأقل لن أكون ضعيفاً .

وكان جوليان على حقّ في أن يطرى شجاعته لأنه لم يقدم في حياته على أخطر من هذه المحاولة . واضطرب وهو يفتح باب غرفته ، حتى كادت تحذله ساقاه فاضطر إلى أن يستند إلى الحائط .

كان حافي القدمين حين ذهب إلى غرفة السيد دى رينال ليتسمع على بابهِ ، فسمع غطيطة في النوم فأسفه أن لم يعد هناك عذر يتذرع به ليعدل عن الذهاب إلى مخدعها . ولكن يا إلهي ! ماذا بيتغى هناك ؟ لم يكن لديه مشروع ، وإذا كانت هناك خطة فإن اضطرابه الشديد جعله في حالة لا تؤهله لأن ينال ما بيتغى . وعلى الجملة فقد كان اضطرابه أكثر ألف مرة من اضطراب أولئك الذين يساقون إلى الموت ؛ وصل إلى المرّ الصغير اللّودى إلى غرفة مدام دى رينال . وفتح الباب بيد مرتعشة فأحدث حيلة شديدة .

ورأى في الغرفة ضوءاً من مصباح صغير سهر على المدفئة ، فكان وجوده سوء حظ جديد . وأبصرته يدخل الغرفة فغادرت فراشها مسرعة غاضبة وصاحت قائلة :

يا لك من تعس ! ثم سادت فترة اضطراب أنسته مشروعاته العقيمة فذكر دوره الحقيقي ؛ واعتقد أنه إذا لم يوفق إلى أن ينال إعجاب هذه الحسنة كان هـذا عليه بلاء عظيماً . لامته ، فلم يكن جوابه على لومها إلا أن ارتدى عند قدميها مقبلاً ركبتيها . وأغلظت له في القول فبكى .

ولما غادر غرفتها بعد ذلك بساعات ، استطعنا أن نقول كما يقول القصصيون : لم يعد هناك ما يشتهي ! وفي الحقيقة أن الحب الذي أوحى به إليها وظهوره الفجائي لها اللذان خلعا عليه ظرفاً أخذاً وحقاً له نصراً ما كان يناله لو أنه عمد إلى مهارته الخرقاء .

على أنه كان في أسعد لحظاته معها فريسة لكبريائه الغريبة ، فخيّل إليه أنه إنما يمثل دور رجل اعتاد قهر النساء وإخضاعهن ، وبذل كثيراً في سبيل أن يظل يقطاً فأفسد بذلك ما فيه من ظرف . وبدل أن ينتبه إلى المشاعر التي خلقها في نفسها وإلى الوخزات الشديدة التي يحسها ضميره ، ظلّ واضعاً نصب عينيه فكرة « الواجب » . كان يخشى دائماً أن يبتعد عن الأنموذج المثالي الذي فرض على نفسه أن يحتذيه حتى لا يناله خزي شديد ولا يشعر بتأنيب لأذع من ضميره . وعلى الجملة ، فقد كانت صفاته التي تخلق منه شخصاً ممتازاً هي نفس الصفات التي حالت بينه وبين أن يتمتع بالسعادة وهي تحت قدميه ؛ مثله في ذلك مثل فتاة في السادسة عشرة لها وجه نضير ، لكنها

تحرص على أن تورّد خديها بالأحمر قبل ذهابها إلى المرقص .  
كانت مدام دي رينال مضطربة منذ عادت إلى غرفتها ، ودخل  
عليها جوليان فارتاعت ارتياحاً شديداً . ورأت دموعه وما بدا عليه من مرارة  
اليأس ، فزاد اضطرابها وفزعها . وحتى بعد أن لم يبق هناك ما تضمن به  
عليه ، كانت تدافعه عنها في سخط حقيقي ، ثم تعود فترتمى بين أحضانه .  
وكان سلوكها في كل ما تأتيه معه غير خاضع لخطة رسمتها . فظنت إلى أنها  
اقتربت إنما عظيماً لن يغفره الله لها فأخفت يديها عن ناظرها صورة جهنم  
وهي تداعب جوليان أحرّ مداعبة . وموجز القول أن سعادة بطلنا لم يكن  
ينقصها شيء ، حتى ولا تلك الحساسية الجياشة في المرأة التي ملكها منذ  
قليل . وظلت نشوتها تهز كيائها على الرغم منها حتى بعد أن خرج جوليان ،  
كما ظلت تصارع ندماً كان يمزق قلبها .

— يا إلهي ! أهذه هي السعادة ؟ أهذا هو الحب ؟ !

كانت هذه أول فكرة لجوليان حين عاد إلى غرفته .

لقد وقع تحت سلطان الذهول والاضطراب المضل الذي يستولى على  
النفس حين تنال ما صبت إليه من زمن طويل . لقد تعودت أن ترغب ،  
ثم لم يعد لها ما ترغب فيه ، ومع ذلك فليس لها ذكريات بعد . أما جوليان  
فكان كجندی عاد من عرض عسكري فجعل يستعيد من جديد تفاصيل  
كل ما قام به مسائلاً نفسه :

هل قتت بما كان يجب عليّ أن أقوم به نحو نفسي ؟ وهل أتقت

تمثيل دوري ؟

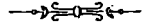
وأى دور ؟ إنه دور رجل اعتاد أن يكون مرفقاً مع النساء .

# الفصل السادس عشر

## في اليوم التالي

[ وأذن شفّته من شفّتها وتلمس بيده سبائب شعرها  
المبعثر المتزوج . ]

دون جوان



لحسن حظ جوليان ولكي يتحقق له الفخر، كانت مدام دي رينال كثيرة الاضطراب والذهول ، فلم تفطن إلى الحماقة التي أتاها هذا الرجل الذي صار في لحظة واحدة كلّ شيء لها في الوجود . ولما طلبت منه أن يعود إلى غرفته لأنّ ضوء النهار قد بدأ يظهر قالت له :

— آه يا إلهي ! لو أن زوجي سمع جلبة لضعّت إلى الأبد .  
وكان لا يزال لدى جوليان وقت يستطيع أن يقول فيه شيئاً ، فتذكر هذه العبارة :

— أتندمين على الحياة ؟

— آه ! إنني أندم عليها الآن كثيرا ! ولكنني لا أندم أبداً على أنني عرفتك .

ف رأى جوليان أن من الكرامة أن يعود عامداً إلى غرفته بعد طلوع النهار وألاّ ييّد حذرا .

ثم كسب مزية جديدة في نظرها من انتباهه الدائم إليها وتتبع كل

ما تأتية من أعمال ، فعل ذلك وهو تحت سيطرة فكرة جنونية هي أن يظهر بمظهر الخبير المحنك . ولما رأى مدام دي رينال ساعة الغداء ، كان سلوكه حيالها ينطوي على حذر رائع .

أما هي فكانت لا تستطيع أن تنظر إليه دون أن تشبّ في وجهها حمرة شديدة ، ولم تكن تستطيع أن تعيش لحظة دون أن تنظر إليه . وفطنت إلى إضطرابه وإلى الجهود التي كان يبذلها ليخفيه ولكنها تزيد اضطرابا . لم ينظر إليها إلا مرة واحدة فأعجبت بادية الأمر بمخذه ، ثم ارتاعت حين لم يحاول النظر إليها مرة أخرى ، وقالت في نفسها : ألم يعد يخبني ؟ واأسفاه ! أنا عجزو بالنسبة إليه ، فالفرق بيننا عشرة أعوام . وغادرت غرفة الطعام إلى الحديقة فضغطت على يد جوليان حتى أذهلته . هذه الأمانة التي تبدل على حب شديد ، فنظر إليها نظرة حب لا يقاوم ، لأنه رآها على المائدة أروع ما تكون فتنة وجمالا ، وما أطرق ببصره على الطعام إلا ليستقصى محاسنها . وشغلها تلك النظرة عما ألمّ بها ، وإن لم تقض تماما على قلق ساورها وأخفت صوت ضميرها حيال زوجها . ولم يلحظ هذا الزوج شيئا وهم على المائدة ؛ وكذلك كانت مدام درثيل ، لكنها كانت موقنة بأن صديقتها على وشك السقوط . وظلّت طول يومها تتحدث إلى مدام دي رينال في جرأة وصراحة مصورة لها الخطر الذي تسير نحوه في صورة قائمة وبعبارة غير سافرة .

كانت مدام دي رينال تتحرق شوقا إلى أن تنفرد بجوليان لتسأله هل لا يزال يحبها ؟ وعلى الرغم من الوداعة التي طبعت عليها ، فقد كانت

على وشك أن تصارح صديقتها بأنها لجوج ثقيلة الوطأة . وحلّ المساء وقد رتبت مدام درفيل كل شيء أحسن ترتيب ، فقد جلست في الحديقة بين مدام دي رينال وبين جوليان . وكان في ذهن مدام دي رينال صورة طليّة للسعادة هي : أن تتناول يد جوليان ثم ترفعها إلى شفيتها ، ولكنها لم تستطع أن تتحدث إليه بكلمة واحدة . وزاد هذا العائق في اضطرابها ، فشمّلها الندم . لقد أنبت جوليان على حماقة الليلة الماضية حين دخل عليها مخدعها ، ومع هذا فقد كانت تخاف ألا يأتي إليها الليلة . فعادرت الحديقة في ساعة مبكرة وذهبت إلى غرفتها . واستولى عليها القلق فذهبت تنصت إلى ما يجري في غرفة جوليان ، ولكنها لم تجرؤ على دخولها وإن كانت فريسة للاضطراب والحب . وتذكرت وهي في موقفها مثلاً ريفيا فخكمت على عملها هذا بأنه أحق الأعمال .

لم يكن الخدم قد أووا جميعاً إلى مضاجعهم فاضطرها الحذر أخيراً أن تعود إلى مخدعها . ساعتان من الانتظار كانتا كقرنين من العذاب ! وكان جوليان جدّ أمين على ما سمّاه الواجب ، فلم يشأ أن يتأخر عن تنفيذ ما بدأه خطوة خطوة وفقاً للخطة التي رسمها .

ودقت الساعة الواحدة فنسّلت من غرفته ، ثم تأكد أن صاحب الدار مستغرق في نومه فدخل على مدام دي رينال . ونال في هذه الليلة من صاحبته سعادة لم تتحقق له في الليلة السابقة ؛ لأنه نسي أو كاد ينسى أنه يمثل دوراً . فكانت له عينان تريان وأذنان تسمعان ؛ وأحسن في نفسه بعض هدوء حين حدثته عن سنّها فقالت :

-- و أسفاه ! أنا أ كبرك بعشرة أعوام ! فكيف تحبني ؟  
وكانت تألم حقا من هذه الفكرة . لم يكن جوليان قد أدرك بؤسها ،  
فلما رأى أنه شقاء حقيقي ، كاد ينسى خوفه من أن يكون سخرية .  
وذائلته كذلك تلك الفكرة الحقاء وهي أنه في نظرها عشيق وضيع ،  
وذلك لنشأته الحقيرة . ولما هدأ فيض مشاعر جوليان من خجل خليلته ،  
بدأت تحس شيئا من السعادة وتواتبها القدرة لتحكم على خليلها . ومن  
حسن الحظ أنه لم يكن كما كان بالأمس يبدو عليه التطبع المستعار الذي  
صنع ليلتهما السابقة بصيغة الانتصار لا بصيغة السرور . لو أنها فطنت إلى  
أن غايته أن يمثل معها دورا لقضى هذا الاكتشاف المؤلم على سعادتها  
تماما ؛ ولكنها لم تكن ترى شيئا إلا تلك الحقيقة المرة وهي فارق  
السن بينهما .

ولو أن نظريات الحب لم تكن ترد على خاطر مدام دي رينال ،  
لكنها تعلم أن الفارق في السن يأتي بعد الفارق في الثروة ، وهو مثار نكتة  
في الريف إذا تحدّث أهله عن الحب .  
ومرت أيام قلائل فأصبح جوليان مغرما بها بكل ما أوتى من عاطفة  
وما فيه من شباب .

وكان يقول في نفسه : يجب أن اعترف بأن فيها طيبة الملائكة فوق  
جمالها الرائع .

ثم كاد ينسى فكرة أنه يمثل معها دورا ، وأفضى إليها في لحظة  
تجاوبت فيها نفسها بكل ما ينتابه من هواجس . وبهذا الاعتراف بلغ



حبه في قلبها غايته . فأخذت تفكر في لذة بالغة وتقول في نفسها : لم تكن لي غريمة في هذه السعادة ! ثم جرؤت مرة وسألته عن الصورة التي كان يحرص عليها ويهتم بها فأقسم لها أنها صورة رجل . كانت إذا خلت بنفسها وفكرت في هدوء ، يكاد يذهلها أن مثل

هذه السعادة موجودة ، وأنها لم تدر بخلدتها من قبل ، فتقول :

آه ! ليتني عرفته منذ عشرة أعوام أيام كنت لا أزال جميلة !

كانت هذه الأفكار لا تخطر على بال جوليان ، لأن حبه لا يزال نوعاً من الطموح ، وكان السرور يملأ نفسه حين يرى هذه المرأة السرية الجميلة رهن إشارته وهو الفقير البائس الوضع .

واطمأن قلبها قليلاً حين رآته معجباً بها ينتشى بقلعها ، فلم يعد يقلقها ما بينهما من فارق السن . ولو أنها أوتيت من الخبرة بعض ما تعرفه أترابها اللأئي يعشن في أماكن أكثر مدنية لانزعجت حين تعلم أن حبا يكاد لا يقوم إلا على عنصر المفاجأة وحب الذات ، حب مداه قصير .

وكان جوليان يعجب بقبعاتها وثيابها كثيراً عندما ينسى طموحه ، ولا يملّ أبداً رائحة عطرها الذي يفوح من أردانها فيحمل السرور إلى نفسه ؛ وكثيراً ما كان يفتح صوان ملابسها ويظلّ واقفاً أمامه ساعات طويلة ، يتأمل بإعجاب ما فيه من جمال وحسن تنسيق . وكانت صديقتها تتكئ عليه ناظرة إليه وتشاركه النظر إلى جواهرها وثياب عرسها التي كانت تملأ ليلة الزفاف سلة من سلال العرس .

وكانت مدام دي رينال تقول في نفسها بعض الأحيان : ليتني

تزوجت رجلا مثله ! فيالها من نفس متأججة ! ويا لها من حياة سعيدة  
إلى جواره !

لم يعيش جوليان من قبل على مقربة من هذه الآلات المعقدة في عالم  
النساء الصاحب . وكان يقول في نفسه : محال أن أرى في باريس أجمل مما  
أراه الآن ! وزالت من نفسه عوائق كانت تحول بينه وبين السعادة ، لأن  
إعجاب خليلته به في إخلاص وفرحها بوصاله جعلاه ينسى نظريته الخاطئة  
التي خلعت عليه سخرية تدعو إلى الشفقة في اللحظات الأولى لهذا الوصال .  
وعلى الرغم من نفاقه الفطري ، كانت هناك لحظات يلذله فيها أن يعترف لتلك  
السيدة الكبيرة التي تعجب به بجهله كثيرا من صغائر الأشياء . لقد رفعت  
مكانة خليلته إلى منزلة فوق مستوى نفسه . وأما مدام دي رينال فكانت  
تجد لذة معنوية كبيرة في أن توقف هذا الشاب النافع على حقيقة ما يجهله  
من تافه الأشياء ، هذا الشاب الموهوب الذي ينتظر له الناس مستقبلا  
زاهرا . ولم يكتم إعجابه به أحد حتى السيد فالنو ونائب الحاكم اللذان  
أصبحا أقل حمقا . وأما مدام درفيل ، فكانت لا تشارك المعجبين بجوليان  
رأيهم . ودخل إلى نفسها اليأس من أمر عرفته حزرا وتخميننا ، ورأت أن  
النصائح الحكيمة قد أصبحت بغيضة عند امرأة قد عميت بصيرتها حمقا ،  
فقادرت فرجى دون أن تكشف عن عذر لم يطلب منها . ذرفت مدام  
دي رينال دمعة أو دمعتين على رحيل صديقتها ، ثم ما لبثت أن شعرت  
بأن سعادتها قد زادت ؛ لأن هذا الرحيل أتاح لها أن تظل طول النهار  
مع حبيبها وجها لوجه .

وقد أصبح جوليان يجد لذّة في الجلوس إلى صديقه ، لأنه كلما خلا  
بنفسه طويلاً وثب إلى فكره من جديد اقترح فوكيه ، ذلك الاقتراح  
الذي رماه به القدر ، فتضطرب له نفسه .

وفي الأيام الأولى لهذه الحياة الجديدة كانت هناك لحظات يجد فيها ،  
وهو الذي لم يحب ولم يجبه من قبل إنسان ، يجد السرور اللذيذ في أن  
يكون مخلصاً فيكاد يفضى إلى مدام دي رينال بطموحه الذي لما يزل  
قوام وجوده .

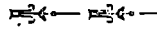
وكثيراً ما ودّ لو استطاع أن يشاورها فيما أغراه به صديقه فوكيه بما  
اقترح عليه ، لكنّ حادثة صغيرة حالت بينه وبين كل صراحة .

# الفصل السابع عشر

## النائب الأول

[ كم يشبه ربيع هذا الحب تلك البهجة الحادعة ليوم  
من أيام إبريل ، تشرق فيه الشمس بكل جمالها ثم لا تلبث  
سحابة أن تخفي معالمه ! ]

سيدان من فيرونا



و ذات مساء والشمس تغرب ، كان جوليان جالسا بجوار صديقه في  
أقصى البستان بعيدين عن أعين الرقباء ، غارقا في أحلامه مسائلا نفسه :  
تُرى هل تدوم هذه اللحظات السعيدة إلى الأبد ؟ وكان مضطرب النفس  
لأنه متردد لا يستقر على أمر ؛ وتألّم للبؤس القاسي الذي خيّم على مرحلة  
طفولته ، وأفسد السنوات الأولى من شبابه التليل النقي ، ثم صاح قائلا :  
— آه ! لقد كان نابليون الرجل الحق الذي أرسله الله إلى شباب فرنسا !  
فمن يا ترى سيأتي بعده ؟ وماذا يكون أمر أولئك البائسين بدونه ، بل  
وأمر أولئك الذين نالوا من المال أكثر مما نلت أنا ؟ ماذا يفعل الذين ليس  
لهم إلا مال قليل يتيح لهم قسطا وافرا من التعليم ، ولا يسمح لهم بأن يشتروا  
رجلا في العشرين من عمره ، ولا يعينهم في الحصول على منصب ! ثم  
تنهد تنهدا عميقا واستطرد : ومهما يكن من أمر فإن هذه الذكرى التي  
كتبها علينا القدر تحول بيننا وبين السعادة إلى الأبد !

والتفت إلى مدام دي رينال فوجدها متهجمة غاضبة تدل هيئتها

على الفتور والاحتقار ، لأن هذا النوع من التفكير لا يليق في نظرها إلا بالخدم . نشأت في بحبوبة من العيش ، فخيل إليها أن جوليان نشأ كما نشأت ، وهذا أمر طبيعي ؛ إنها تحبه أكثر مما تحب الحياة ألف مرة فلم تدخل في حسابها المال .

لكن جوليان ما كان يعلم شيئاً مما يدور بخلفها ؛ رأى تقطيعها فهوى من علياء السعادة ، وأسعفته بديته ، فخور قليلاً في كلامه ليدخل في روع هذه السيدة الأرستقراطية الجالسة على العشب الأخضر قريباً ، منه أن ما قاله ليس من كلامه ، وإنما هو يسمعهما ما سمعه يوم رحلته إلى صديقه تاجر الأخشاب . وهذا تفكير لا يليق إلا بالمارقين .

كانت مدام دي رينال لا تزال في غمرة قليلة من الفتور بعد أن كانت رقيقة كل الرقة ، وقالت له :

— إياك والاحتلاط بأمثال هؤلاء الناس !

فكان هذا التقطيع بل هذا التأنيب على عدم حذره ، أول فشل منى به جوليان فقال في نفسه : إنها طيبة رقيقة ، تحبني ما في ذلك شك ولكنها نشأت في منسكر أعدائي . هؤلاء الذين يرتعدون فرقا من ذوى العقول الجبارة الذين لا يجدون مالا يرفعهم إلى المناصب بعد أن ينالوا قسطاً من التعليم . وماذا يكون أمر هؤلاء النبلاء لو أننا تصارعنا معهم بسلاح واحد ؟ فلو أصبحت أنا مثلاً عمدة ثريير لكنت أمينا نزيها كالسيد دي رينال تماماً ! ولعزلت الخورى والسيد فالنو ولقضيت على مفايدها ، ولساد العدل في ثريير !

أنا لا أخشى مواهبهم ، لأنهم يتخطون .  
أوشكت سعادة جوليان في ذلك اليوم أن تكون أبدية ، كانت  
الجرأة تعوز بطلنا ليكون مخلصا ، وكان عليه أن يتشجع فيثير في الحال  
عراكا بينه وبين صديقه ، لأنها ذهلت مما قال جوليان ، ولأنها كثيرا  
ما سمعت ممن يغشون مجالسها أن عودة روبسبير محتملة الوقوع وقد يظهر  
مرة أخرى من هؤلاء الشبان الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة الوضيعة ،  
وينالون حظا كبيرا من التعليم . وظلت على فتورها زمنا طويلا ، فأثر ذلك  
في جوليان . ثم خشيت أن تكون قد أسمعتة مالا يجب دون أن تقصد ،  
فحل الخوف محل الاشمئزاز حين سمعت هذا الرأي البغيض وظهر شقاؤها  
في وضوح على قسامتها التي تبدو ساذجة نقية حين تكون سعيدة النفس  
بعيدة عن التقلأ .

وتخلص جوليان من أحلامه فأصبح أكثر هدوءا وأقل عشقا ،  
ورأى أن من الحذر ألا يدخل مخدع مدام دي رينال ، بل من الخير أن  
تنتقل هي إلى غرفته ، فلو أن خادما رآها تعدو في منزلها عدوا لالتمس  
لذلك عشرين عدرا .

إلا أن مجيئها إليه كان لا يخلو من الأضرار ، فقد تسلم جوليان من  
فوكيه كتبها لا يستطيع طالب اللاهوت أن يشتريها من إحدى المكتبات ،  
ولا يستطيع أن يقرأها إلا إذا أوى إلى غرفته في الليل . ولم يكن يسره  
أن تحول زيارتها بينه وبين القراءة ، وهو يعلم أن مجرد انتظار موعدها  
كفيل وحده بأن يمنعه من المطالعة ، كما حدث بالأمس على إثر الخلاف

الذى نشب بينهما فى الحديقة . إنه مدين لها بلون جديد من ألوان فهم ما يقرأ ، فقد علمته الكثير من الأشياء الصغيرة التى استطاع أن يسأل عنها . وكان ذكاؤه لا يسعفه فى التغلب على جهله بها ، نشأ بعيدا عن المجتمع وإن سلنا له بالتبوع الطبيعى .

وفى مدرسة الحب وعلى يد امرأة جاهلة ، تعلم جوليان فكان سعيدا بما تعلم . وتمكن من معرفة المجتمع كما هو قائم معرفة مباشرة . فلم يعد الوصف الذى يقرؤه يسدل ستارا على نفسه حين يتناول كتبنا تتحدث عن حالة المجتمع منذ أثنى عام أو منذ سنتين عاما فقط ، أيام فولتير ولويس الخامس عشر . سقط الحجاب عن عينيه ، فسر كثيرا حين استطاع أن يفهم ما يجرى فى قرير فهمها صحيحاً .

أدرك أول كل شىء سرّ الدسائس المعقدة التى حيكت منذ عامين لدى حاكم بيزانسون ، وكانت هذه المكاييد تستند إلى خطابات قادمة من باريس كتبها رجال لهم قيمة وخطر ، وطلبوا أن يعين رجل يدعى السيد دى موارو — عرف فى الإقليم كله بالتقوى — نائبا أول لعمدة قرير لانا نائبا ثانيا .

وكان ينافسه فى هذا المنصب رجل غنى من أصحاب الصناعات لا يحدّر به إلا أن يكون نائبا ثانيا .

وقد استطاع جوليان أخيرا أن يفهم تلك الكلمات الغامضة التى سمعها من رجال الطبقة العليا حين كانوا يتناولون الطعام على مائدة السيد دى رينال . كان هذا المجتمع الراقى مشغولا باختيار النائب الأول ، وبقية

السكان وبخاصة الأحرار لا يتوقعون أن يتمّ هذا الأمر . وما زاد في أهمية المسألة علم الجميع بأن الجهة الشرقية للشارع الرئيسي في قرير يجب أن توسع أكثر من تسع أقدام ، لأنّ هذا الشارع سيصبح طريقاً ملكياً .  
وإذا صح أن يختار السيد دي موارو نائباً أول لقرير ثم عمدة لها إذا أصبح السيد دي رينال عضواً بمجلس النواب ، فإنه سيغضّ الطرف عن هذا المشروع لأنه يملك ثلاثة منازل في الجهة التي يتسع فيها الشارع ، ويستطيع أصحاب المنازل المطلة على الشارع العام أن يدخلوا عليها بعض إصلاحات لا تلاحظ ، فتبقى هذه البيوت مائة عام . وعلى الرغم من ورعه الشديد فإنه سيكون سهلاً لنا في مقابلة الناس لأن له أولاداً كثيرين . ومن بين تلك المنازل التي تدخل في توسيع الشارع تسعة منازل يملكها وجهاء قرير .

كان جوليان ينظر إلى تلك الدسائس ويرى أنها أكثر خطراً من تاريخ معركة فونتينو التي يطالع تفاصيلها لأول مرة في كتاب من تلك الكتب التي أرسلها إليه صديقه فوكيه . وكانت هناك أشياء تثير دهشة جوليان واهتمامه منذ خمسة أعوام ولا يستطيع الاستفسار عنها . كان يراها منذ أصبح يتردد على الخورى مساء كل يوم ، ولا يقدر على توجيه أسئلة إليه؛ لأن التواضع والخشوع صفات ضرورية لطالب اللاهوت .

وفي أحد الأيام كانت مدام دي رينال تأمر خادم زوجها ، عدو جوليان ، أمراً فرداً قائلاً لمولاته :

— ولكن يا سيدتي ، إنّ اليوم هو آخر جمعة في الشهر .



فقلت له :

— اذهب !

عندئذ قال جوليان :

— حسنا ! إنه سيذهب إلى دكان العلف الذي كان يوما ما كنيسة،

وأصبح الآن موطننا لهذا المذهب ، ولكن ماذا يصنعون هناك ؟ هذا اللغز لم أستطع فهمه حتى الآن .

فقلت له صديقتي :

— إنه نظام ملائم جدا وإن كان شديد الغرابة ، لأن النساء

لا يقبلن فيه ، وكل ما أعرفه عنه أن الناس هناك سواسية . فأنت ترى هذا الخادم مثلا يلتقي بالرجل المتكبر السيد قالنو فلن يظهر اشمزازا حين يخاطبه خادمنا سان جان بصيغة المفرد ، ثم يردّ عليه هو بنفس الصيغة .

وإذا أردت أن تعرف ما يدور في هذه المجتمعات ، فسأطلب من السيد دى موجيرون ومن السيد قالنو بعض المعلومات . ونحن ندفع في الشهر عن كل خادم من خدمنا عشرين فرنكا حتى لا يذبجنا هؤلاء القوم في يوم من الأيام .

كان الوقت يمضي سريعا ، وكان ظرف مدام دى رينال قد قضى

على الطموح القائم الذي يظلل نفس جوليان . فعاهد نفسه ألا يتحدث إليها فيما يثير الحزن ، أو يدعو إلى التفكير مادام مشر بهما مختلفا . فزاد هذا — دون أن يحس — في سعادته التي كانت هي سببها ، وقوى من سلطاتها عليه .

كانا لا يتحدثان إلا بتلك اللغة الجافة لغة العقل إذا كان معهما الأطفال وهم شديدو الذكاء ، إذا استثنينا نظرات الحب العميقة التي كان جوليان يلقبها على حبيته وهو يستمع في خشوع إلى آرائها في الحياة . وكثيرا ما سبحت نفسها فجأة في آفاق بعيدة فلامها جوليان وهي تقص عليه قصة سرقة ، أحسن فيها التدبير ، وقعت في توريد أو في مرفق من المرافق . وكانت تتبع معه في الحديث نفس الحركات الودية الخالصة التي تتبعها مع أبنائها . كانت لا تلجأ إلى هذا إلا لأنها تخال أنها تحبه ، كما تحب أحد أبنائها ؛ أليست تجيب دائما على أسئلة ساذجة يوجهها إليها ؟ أسئلة تتناول آلافا من التوافه لا يجهلها فتى في الخامسة عشرة ، نشأ في بيئة كريمة . ولكنها بعد مضي لحظة ، تعجب به كما تعجب بسيدها . وأثر فيها نبوغه كثيرا حتى أخافها ، وبدا لها مع الأيام في وضوح أنها ترى العظيم المنتظر في شخص هذا القس الشاب : رأته بابا ورأته رئيس وزارة مثل ريشيليو ، وكثيرا ما قالت :

— هل أعيش حتى أراك في مجدك ؟ ستكون عظيما : إن الملكية والدين معا في حاجة إليك .

# الفصل الثامن عشر

## ملك في قرير

[ أهكذا أصبحتم قوما لا خير فيكم؟ وعادت أجسامكم  
ولا روح فيها ، وعرووقكم لا تجري فيها دماء ؟ ]  
من موعظة الاسقف في كنيسة القديس كليمنت



في الساعة العاشرة من مساء يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر ، أيقظ جندي  
سكان قرير من نومهم وهو يركض بجواده في الشارع الرئيسي ، وأبلغهم  
أن صاحب الجلالة ملك . . . سيصل إلى بلدتهم يوم الأحد القادم . وقد  
صرح الحاكم أو على الأصح طلب حاكم المقاطعة تكوين حرس شرف ،  
وآلآ يدخر الأهالي وسعا في تجميل البلد وتزيينه . وأرسلت الرسل ليلا إلى  
قرجى يطلبون العمدة . ووصل السيد دي رينال إلى قرير فرآها على  
قدم وساق . كلّ بعد عده لينتهز فرصة الزيارة الملكية ، وكان ألقهم  
طموحا أولئك الذين أجروا الشرفات ليرى الناس منها الكوكب الملكي  
وهو يدخل المدينة .

من الذي يرأس حرس الشرف ؟ رأى السيد دي رينال في الحال  
أن السيد دي موارو خير من يتولى قيادة هذا الحرس ، وما أملى عليه  
هذا إلا المنازل التي تحول دون توسيع الشارع الرئيسي . وستعزز هذه  
الرياسة منصب النائب الأول لعمدة قرير . لم يكن إخلاص السيد  
دي موارو ولا صلاحه موضع الشك ، لأنه أحسن أهل قرير جميعاً وإن

لم يركب جوادا من قبل . كان في السادسة والثلاثين من عمره كثير الحياء خجولا ، يخشى أن يعرض نفسه لسخرية مواطنيه ويخاف أن يسقط عن ظهر الجواد .

استدعاه العمدة في الساعة الخامسة صباحا ثم قال له :

— طلبتك يا سيدي لأعرف رأيك كما لو كنت عينت في المنصب الذي ترشحك له الطبقة الراقية الآمنة ؛ إن الصناعات تدرّ أموالا كثيرة على هذه البلدة البائسة ، وقد أصبح الأحرار أغنياء إلى حد كبير ، لذلك يأمل حزبهم أن يتقلّد مناصب الحكم ، مستعيننا بكل الوسائل ، معدّا لكل شيء عدّته . فلنضع نحن نصب أعيننا مصلحة الملكية والملك بعد مصلحة ديننا القويم . فإلى من إذن نكل رئاسة حرس الشرف ؟

كان ركوب الخيل يبعث في نفس السيد موارد خوفا شديدا ، لذلك قبل ، بعد لأى ، شرف قيادة الحرس ؛ كأنه قبل أن يكون شهيدا ثم قال للعمدة : « أنا أعرف كيف أتخذ اللهجة المناسبة » .

ولم يبق أمام أولى الأمر إلا وقت قصير يصلحون فيه الحلل التي لبست قبل ذلك بسبعة أعوام ، حين مرّ بقرير أمير من الأسرة المالكة . وحلت الساعة السابعة ، فوصلت مدام دي رينال من فرجى يصحبها جوليان وأبنائها . ودخلت منزلها فرأت صالونها مزدحما بنساء من حزب الأحرار ، جنّين ينادين باتحاد الأحزاب وتطلب منها كل منهن مكانا لزوجها في أرجل الحرس . وقد زعمت إحداهن أن زوجها سيحزن

حزنا شديدا يؤدي إلى إفلاسه إذا لم يكن في رجال الحرس . لكنّ مدام دي رينال سرعان ما تخلصت منهم جميعاً ، وكان يبدو عليها أنها مشغولة إلى أبعد حدّ .

ذهل جوليان ثم غضب ، لأنها لم تفض إليه بما نفسها ، وأخذ يقول في حزن شديد : لقد أدركت ذلك من قبل ، وفطنت إلى أن حبها لي قضت عليه سعادتها لأنها ستستقبل في منزلها ملكا . وهذه الضوضاء الشديدة تفتنها وتسحرها ، لكنها لا تلبث أن تحبني من جديد إذا لم يضطرب عقلها من الآراء التي تسيطر على عقول طائفتها .

ومن الغريب في أمر جوليان ، أنه أصبح مع ذلك أكثر حبا لها . وانتظر فرصة يتحدث فيها إليها قليلا ، لكنه لم يتمكن لأن عمال المفروشات كانوا يملثون المنزل ويضطربون في كل مكان . ثم لقيها وهي تمّ بمغادرة غرفته حاملة ثوبا من ثيابه ، فأراد أن يتكلم معها ، لكنها انصرفت دون أن تصفى إليه . فقال في نفسه : لقد ارتكبت حماقة لا بتعترف حين أحبيت هذه المرأة ، إن حبّ الظهور قد قضى على عقلها وعقل زوجها !

كانت مدام دي رينال فرحة حقا ، وقد أخفت سبب سرورها عن صديقها لئلا تجرح كبرياءه ؛ ذلك أنها كانت تودّ من كل قلبها أن يخلع جوليان ملابس السوداء القائمة ، ويلبس أخرى ولو يوما واحدا . واستعملت ما فطرت عليه من مهارة وحذق ، فحصلت على موافقة السيد دي موارو ونائب الحاكم دي موجيرون أن يتولى جوليان قيادة خمسة من الشبّاب أو ستة في حرس الشرف ، وهؤلاء الشبان أبناء رجال أغنياء

من أصحاب الصناعات في فريير ، عرف اثنان منهم بالورع الشديد . ووافق السيد فالنو على أن يعير جوليان جوادا من جواديه التورمنديين ، وكان قبل ذلك يطمع في أن يعير عربته لأجل سيدات فريير ، ليعجب الناس بجمال جواديه ، وافق على هذه الإعارة وإن كان لا يضمحل جوليان إلا الكره الشديد . بقي بعد ذلك الثوب العسكري الأزرق السماوي المحلى على الكتفين بمجديلين مفضضين ، وهو الثوب الذى يجب أن يرتديه كل من يشترك في حرس الشرف ، وكان بعض الشبان يقتنون هذه الحلة التي تزينوا بها قبل ذلك بسبعة أعوام واستعارها بعضهم . وكانت مدام دى رينال كثيرة الطموح ، فلم ترد أن يكون صديقتها كغيره من الشبان ، فأرسلت إلى بيزانسون تطلب حلة جديدة ، وأسلحه وقبعة وغير ذلك ، طلبتها في عجلة شديدة ، لأنه لم يبق أمامها إلا أربعة أيام ، وهى حريصة على أن يظهر جوليان فى أبهى زينة وأفخر ثياب . وقد ذهبت إلى أبعد من هذا ، فلم تشتتر الحلة من فريير ، لأنها أرادت مفاجأة لجولييان ، ولأهل البلدة جميعاً .

إنتهى العمدة من تنظيم حرس الشرف وتهدئة الخواطر ، وأخذ ينظم حفلة دينية كبيرة ، لأن الملك لم يشأ أن يمرّ بفريير دون أن يزور فى براى لى هو ، رفات القديس كليمنت الشهير — الواقع على بعد فرسخ من المدينة . كانوا فى حاجة إلى كثيرين من القسس فلاقوا فى ذلك عننا شديداً ، لأن الخوزى الجديد الأب مالون لا يريد أن يحضر الأب شيلان هذه الحفلة الدينية . وعبثنا حاول العمدة أن يقنعه بأن فى هذا خطراً شديداً ( م — ١٠ استدال ج — ١ )

عليهم جميعاً : لأن المراكز دي لامول الذي ظلّ أجداده حكّاماً لهذه المقاطعة زمناً طويلاً هو الذي وقع عليه الإختيار ليرافق الملك في رحلته . والمركز يعرف الأب شيلان منذ ثلاثين عاماً ، فهو لا بد سائل عنه ، مستقص أخباره إذا ما أتى إلى فريير . وإذا علم أنه مغضوب عليه فلن يتردد في الذهاب إلى المنزل الصغير الذي اعتكف فيه الأب ، وسيكون في صحبته ما يستطيع أن يكون من موكب ، فيالها من صفقة !

فقال الخوري مالون :

— لو حضر شيلان الحفلة لافتضحت هنا وفي بيرانسون . إنه متعصب يا آلهي لمذهب ينسينيوس .  
فأجابته العمدة :

— مهما يكن من أمر يا سيدي الخوري ، فأنا لا أعرض إدارة بلدتنا إلى لطمة من المراكز دي لامول . أنت لا تعرفه ، هو رجل له خطورته في البلاط ، أما هنا فهو هجاء مقذع ، كثير السخرية والاستهزاء بالناس ، لا يحلوه إلا أن يجرّهم ، وفي استطاعته أن يسخر منا جميعاً على مرأى من الأحرار ، لا ينبغي من وراء ذلك إلا اللهو والعبث .

وظلت المفاوضات بين العمدة والخوري ثلاثة أيام ، وأخيراً نزل الخوري عن كبريائه في مساء السبت ، حين رأى أن خوف العمدة قد انقلب إلى شجاعة ، وكان عليهم أن يكتبوا إلى الأب شيلان خطاباً معسولاً يرجون فيه أن يتفضل بحضور الحفل الديني في براى لى هو ، إن سمحت شيخوخته وضعف صحته وبالحضور . ولكن الأب شيلان

طالب منهم أن يوجهوا خطاب دعوة إلى جوليان الذى يجب أن يرافقه كمساعد شماس ، فاستجابوا لطلبه .

وحلّ صباح الأحد ، فازدحت شوارع ثريير بألوف من القرويين هبطوا من الجبال المجاورة ؛ وكانت الشمس ساطعة ، ثم دقت الساعة الثالثة فاضطربت الجموع الحاشدة ، حين رأت نارا عظيمة تضطرم فوق صخرة على بعد فرسخين من ثريير ، إيذانا بدخول الملك أرض الأقليم . وطننت النواقيس تدقّ ، ودوتّ فى الأرجاء طلقات مدفع أسباني قديم تملكه المدينة ، إعلانا للسرور العام الذى شمل النفوس لهذه المناسبة السعيدة . وصعد نصف سكان ثريير سطوح المنازل ووقفت النساء فى الشرفات ، وتحرك حرس الشرف فعجب الناس بالحلل الزاهية الجميلة ، وتعرف كلّ على قريب أو صديق ، وسخروا من السيدى مواردى الذى دفعه الخوف فى كل لحظة إلى أن يمسك بقربوس سرجه خشية أن يقع على الأرض ، ثم شغل الناس بعد ذلك بملاحظة أخرى كان وقعها كبيرا على نفوسهم ، وهى أن الفارس الأول على رأس القسم التاسع شاب جميل ، نحيف القوام ، لم يعرفوه حين رأوه . وسرعان ما انبعثت من قوم صيحات الاستنكار ، وصمت آخرون من شدة الدهول ، لأن الفارس لم يكن إلا جوليان سبورل ابن النجار ، وقد ركب حصانا نورمانديا للسيد قاننو وعليه أفر الثياب . وعندئذ انبعثت صيحات ضد العمدة ، كانت على الأخص من الأحرار الذين قالوا : ماذا نرى ! أيعين فى حرس الشرف هذا العامل البضيع الذى يلبس لباس رجال الدين لأنه معلم أبنائه ، ويترك السادة



الأغنياء أصحاب الصناعات أمثال فلان وفلان !  
ثم قالت إحدى السيدات الغنيات : يجب أن يلحق هؤلاء السادة  
العازبهذا الحقير الذى نشأ نشأة وضيفة . فقال أحد جيرانها :  
— إنه مرء يحمل سيفاً ، وهو خائنٌ جدير بأن يمزق وجوههم بسيفه .  
أما حديث الطبقة الراقية فكان أشد خطراً من حديث الأحرار ،  
إذ تساءلت النساء عما إذا كانت هذه الإهانة من العمدة وحده ؟ وعلى  
العموم فقد أنصفوا فى احتقاره لوضاعة أصله .

كانت هذه الأحاديث تدور حول جوليان ، وقت أن كان أسعد الناس  
قاطبة . وأمدته جرأته بشجاعة كبيرة ، فبدأ على ظهر جواده خيراً من  
أولئك الذين نشئوا جميعاً فى هذه البلدة الجبلية . وكان يقرأ فى نظرات  
السيدات أنهن يتحدثن عنه ، وشارتا كتفيه براقتان لأنهما جديدتان ،  
وحصانه يشب فى كل لحظة فيضفى عليه سعادة كبيرة .

وبلغت سعادته أقصاها حين مرّ على مقربة من الحاجز القديم ،  
فسمع ضجة شديدة أحدثتها طلقات المدفع الصغير ، فجمح حصانه ، لكنه  
لم يسقط على الأرض لحسن حظه ، فأحسّ كأنه أصبح بطلاً ، وخبيل إليه  
أنه ضابط فى جيش نابليون ، قد كلف الإشراف على المدفعية .

أجل ، كان سعيداً ، ولكن هناك من كان أسعد منه ، وهى تلك  
التي رآته من إحدى نوافذ مبنى البلدية ، ثم ركبت عربتها وسارت مسرعة  
فقطعت منحني طويلاً ، ووصلت ليقع فى قلبها الذعر حين رأت الجواد  
يبتعد به خارجاً من الصف كانت مدام دى رينال تتبع الموكب على بعد

عشرين خطوة بين سحابة من التراب . وكانت عربتها مسرعة ، فخرجت من أحد أبواب المدينة ، ثم سلكت الطريق التي يمرّ منه الملك . وفي ذلك الوقت صاح عشرة آلاف من الريفيين : فليحى الملك ! حين كان العمدة يخُطب بين يدي جلالته .

واستمرت الخطبة ساعة كاملة ، ثم دخل المدينة فأطلق المدفع طلقات متتابعة . عندئذ وقع حادث ، ليس لأولئك الذين كانوا يطلقون المدفع فاعتادوا عليه من قبل في ليزج وفي مونراي ، ولكنه وقع لنائب العمدة المنتظر السيد دي موارو . لقد إلتقى به جواده في يسر إلى المكان الوحيد الذي تراكم فيه الوحل فوق الطريق ، فكانت فضيحة كبرى ، وكان لا بدّ من إخراجه من الطين قبل أن تصل عربة الملك .

دخل جلالته كنيسة فرير الجديدة الجميلة التي زينت في ذلك اليوم بالستائر القرمزية ، ثم ذهب يتناول غداءه ، ليركب عربته بعده مباشرة إلى حيث يمجّد رفات القديس كليمنت ، ولم يكده الملك يدخل الكنيسة حتى عدا جوليان بجواده إلى منزل السيد دي رينال . وخلع زبّه العسكري الأزرق وهو يتنهد أسفا عليه ، وترك سيفه وشارتي كتفيه ليرتدى لباسه الأسود البالي ، ثم امتطى جواده ، ووصل بعد دقائق معدودات إلى براني لاهو ، الواقعة على قمة تل جميل ، وأخذ يقول : إن الحماسة تزيد عدد هؤلاء الريفيين ، والمرء لا يستطيع أن يتحرك في فرير ، وها أنذا أرى الآن أكثر من عشرة آلاف من الأنفس في هذا الدير القديم .

هدم الثوار جزءاً من هذا الدير في وحشية ، ولكنه جدّد تجديده :  
رائعاً منذ أن عادت الملكية ، وأخذ الناس يتحدثون عن المعجزات .  
عُتِف الأب شيلان جوليان تعنيفاً شديداً حين لاقاه ، ثم أعطاه ثوباً  
من ثياب الكهنة وقمصا يلبس فوق الثوب ، فارتدى جوليان ذلك  
في سرعة ، وتبع الكاهن الذي ذهب ليلقى رئيس أساقفة آجد ، وهو  
شاب عُنِين حديثاً في هذا المنصب ، يمتّ بصلة القرابة إلى المركز  
دى لامول ، وقد عهد إليه بأن يرى الملك رفات القديس . ولكن  
رئيس الأساقفة كان قد اختفى ، ولا يعلم أحد أين هو .

فقد صبر التساوسة وهم ينتظرون الرئيس في الرواق القوطى المظلم لهذا  
الدير القديم ، واجتمع في الرواق أربعة وعشرون خوريا ليعرضوا الفصل  
القديم الخاص ببراى لاهو والذي عرضه أربعة وعشرون كاهناً قانونياً قبل  
عام ١٧٨٩ . وبعد أن ظلوا ثلاثة أرباع الساعة في أسف على شباب  
الرئيس ، اقترحوا على عميدهم أن يذهب إلى مونسنيور ليخبره بأن جلالة  
الملك سيأتى بعد قليل ، وبأن الوقت قد حان ليغادر الرواق إلى المحراب .  
عُنِين الأب شيلان عميداً لهم بحكم السن ، وعلى الرغم من غضبه على جوليان ،  
أشار إليه أن يتبعه ، وكان القميص الذى ارتداه فوق الثوب يلائمه ملاءمة  
كبيرة ، ولسنا ندرى كيف استطاع أن يجعل من شعره الجميل الجمعد شعراً  
سبطاً مسترسلاً ، ولا نعرف وسائل التجميل الكنسيّة التى استعان بها  
في هذا الأمر . ونسى جوليان المهماز الذى وضعه أثناء جرس الشرف ،  
فظهر من تحت طيات ثوبه الطويل ، فزاد هذا في غضب الأب شيلان عليه .

وصلا إلى حيث رئيس الأساقفة ، فوجدا بالباب خدما في أبهى زينة ، وأخضر ثياب ، أخبروا الكاهن العجوز في كبر شديد أن الرئيس لا يريد مقابلة أحد ، وسخروا منه حين قال لهم بأن مركزه كعميد في فصل براى لاهو ، المجيد يسمح له بأن يلتقى الرئيس في أى وقت يشاء .

وعزّ على جوليان أن يعامل الأب بمثل هذه القحة ، فأخذ يذرع أهباء الدير القديم ، ويجوس خلال مضاجعه ، ويفتح الأبواب التي تصادفه ، حتى عاجل بابا صغيرا ، ففتحه . وسرعان ما رأى نفسه في حجرة غصّت بخدم رئيس الأساقفة ، وقد ارتدوا السواد وعلقوا في أعناقهم سلاسل ، ولما رأى الخدم سرعته وهفته ظنّوا أنّ رئيس الأساقفة طلبه ، فتركوه يمرّ ، وتقدّم جوليان بضع خطوات ، فرأى نفسه في غرفة واسعة ، قوطية البناء ، حالكّة الظلّة ، مكسوة الجدران بخشب البلوط الأسود ، سدّت نوافذها الصغيرة بالطوب من وقت قريب ، إلّا نافذة واحدة ، فنال بذلك مظهر النوافذ المسدودة لخشونة بنائه من مظهر فني جميل يبدو للعين في أخشاب هذه الجدران . والجانبان العظيمان في هذه الغرفة المشهورة يعرفهما الأثريون البرجينيون جميعا ، فقد بناهما شارل الجسور قبيل سنة ١٤٧٠ ليكفر بهما عن ذنوب ارتسكبها ، وكانا مزينين بكرامى خشبية دقيقة الصنع ، مختلفة الألوان تعبّر عن ألغاز رؤيا القديس يوحنا الأنجيلي .

اكتأب جوليان لما رأى هذه الروعة الحزينة وقد أتلفتها الأحجار العارية والجبس الذي لا يزال أبيض حتى الآن ، فوقف صامتا . ثم رأى في الناحية الأخرى من الغرفة على مقربة من النافذة الوحيدة التي يدخل

الضوء منها ، رأى مرآة من خشب الكابلي غير ثابتة ، وشابا إلى جوار النافذة على بعد ثلاث خطوات من المرآة ، عليه رداء بنفسجي وقميص من الدتيللا ، عارى الرأس . ولا بدّ أنّ هذه المرآة ، التي لا تليق بحجرة هذا المكان المقدّس ، قد أحضرت من المدينة . كان الشاب يبارك بيده اليمنى بجانب المرآة ، وعلى وجهه دلائل الغضب ، فقال جوليان في نفسه : ما هذا ؟ أهذا هو القسّ الشاب يعدّ العدة للحفل الديني ؟ ربما كان سكرتير رئيس الأساقفة . . . وربما كان سفيها كالخدم . . . وماذا يعنيني فلأحاول . .

وتقدّم في ببطء شديد ناظرا دائما إلى النافذة الوحيدة ، وعيناه لانفارقان الشاب ، وهو ينثر البركات في تودة وكثرة لا حدّ لها ، دون أن يستريح لحظة واحدة .

ورأى جوليان أنه كلما تقدّم إليه خطوة ، اشتدّ ظهور الغضب على وجه القسيس ؛ وراعته فخامة قميصه ، فوقف على بعد خطوات من المرآة دون أن يشمر ، وقال في نفسه : من الواجب أن أتحدّث . ولكن جمال الغرفة بهره ، وخشى مقدّما أن يسمعه القسّ كلمات غليظة .

ورآه القسّ خلال المرآة المتحركة فاستدار إليه وقد زايله غضبه ، وقال له في لهجة رقيقة :

— حسنا ! هل تمّ إصلاحه أخيراً يا سيدي ؟

فذهل جوليان ولم يدر ما يقول ، ثم رأى الصليب معلقاً على صدره بعد ما استدار إليه ، فعرف أنّ هذا الشاب رئيس أساقفة آجد ؛ فقال

جوليان : أياكون رئيساً للأساقفة وهو فى هذه السن ؟ إنه لا يكبرنى إلا بستة أعوام أو ثمانية على الأكثر ! . . . وخجل من المهاز خجلاً شديداً ، ثم قال فى حياء :

— أنا رسول العميد إليك ، مونسنيور .

فأجابهُ الرئيس فى لهجة خورية زادت من سرور جوليان :

— آه ! لقد أوصونى به خيراً ، وألحوا فى ذلك ، ومعدرة يا سيدي

فقد ظننتك من كلفته إحصار تاجى . لقد أساءوا لقه فى باريس فأفسدوا النسيج الفضى فى أعلى التاج ؛ وهذا شيء لا يلبق أبداً ، وسيكون له أثره السيء ومع ذلك فأنا لا أزال حتى الآن أنتظره .

فقال جوليان :

اسمح لى يا منسنيور ، فسأذهب لأحضره .

ونظر إلى الأسقف بعينيه الجيلتين ، فأحدثنا فى نفسه أحسن الآثار ، وقال له فى أدب ظاهر :

— اذهب يا سيدي ، فيجب أن يحضروه حالا ، لأنه يؤسفى جداً

أن أدع جماعة السكهنة القانونيين ينتظرونى .

ولما وصل جوليان إلى منتصف القاعة ، التفت خلفه فإذا برئيس

الأساقفة ينثر البركات من جديد فسأل نفسه : ماذا يقصد من ذلك ؟

يخيل إلى أنه يتدرّب على ما سيقوم به فى الحفلة الدينية . ثم وصل إلى

حيث يجتمع خدم رئيس الأساقفة ، فنظر إليهم نظرة سيطرة وتعال ،

فقدّموا إليه تاج الرئيس . وهنا شعر بفخر وهو يحمله ، وقطع الغرفة سائراً

في تودة وبطء ممسكا بالتاج في احترام كبير . وكان الرئيس لا يزال جالسا  
إلى المرأة ، ويده اليمنى تنثر البركات بين لحظة ولحظة ، وإن شعر بالتعب .  
وعاونه جوليان في لبس التاج ، فهزّ الرئيس رأسه قائلا في فرح ظاهر :  
— آه ! أستطيع الآن أن ألبسه ، فهل لك أن تبتعد قليلا ؟ ثم أسرع  
الرئيس إلى منتصف القاعة ، وعاد يقرب من المرأة رويدا رويدا ، مستعيدا  
ما كان ينطبع على وجهه من أمارات الجد ، وبدأ ينثر البركات  
في تودة ووقار .

وظلّ جوليان واقفا يعجب مما يرى ، ويودّ أن يفهم ما يرمى إليه  
الرئيس ، لكنه لم يجرؤ على أن يسأله . ثم وقف الرئيس ونظر إليه نظرة  
خففت من وقاره بعض الشيء ، وسأله قائلا :  
— ما رأيك في تاجي هذا يا سيدي ؟ أيوافقني ؟

فأجابه جوليان :

— إنه لجميل جدّا يا منسنيور .

— ألسنت تراه راجعا إلى الوراء ؟ ولو تركته كذلك لكنت في هيئة  
البلهاء . لكنه لا ينبغي لي أن أنكسه إلى الأمام وإلا كان مثل قلنسوة  
الضباط .

— يخيّل إليّ أن وضعه جميل جدا .

— إنّ ملك . . . اعتاد أن يرى قساوسة مبجلين فيهم وقار . وأنا

لا أحبّ أن أظهر في شيء من الخلفة أو الطيش بالنسبة إلى سنيّ .

وجعل يمشي من جديد في بطء ووقار وينثر البركات ، فقال جوليان

في نفسه : لقد أصبح الأمر جلياً ، إنه يتمرن على مباركة الناس .  
وقال له الرئيس بعد لحظة :

— أنا الآن مستعدّ ، فاذهب يا سيدي وأخبر بذلك السيد العميد  
والسادة القسس .

وسرعان ما دخل الأب شيلان يتبعه قستان هما أكبر القساوسة سنّاً ،  
من باب كبير واسع قد زين برائع النقوش ، ولم يكن جوليان قد رآه من  
قبل ؛ وأسرع باقي رجال الدين في دخول القاعة . وبقي جوليان هذه  
المرّة في المكان اللائق به ، حيث كان في مؤخرة الجمع فلم يستطع رؤية  
الرئيس إلاّ من فوق أكتاف القسس .

قطع الرئيس أرض الغرفة في بطاء ، ولما وصل إلى عتبتها ، وقف  
القساوسة في شكل موكب . وساد الإضطراب لحظة قصيرة ، سار الموكب  
بعدها وهم يرتلون مزموراً من المزامير . وكان الرئيس في المؤخرة بين الأب  
شيلان وخوري كهل عجوز ؛ وفي هذه اللحظة اقترب جوليان من مونسنيور  
بحجة أنه متصل بالأب شيلان . وساروا في ردهات دير براى لاهو المظلمة  
الرطبة ، وإن كانت الشمس مشرقة ساطعة .

وصل الموكب أخيراً إلى باب الدير ، وجوليان في ذهول من أثر  
الروعة لأنه لم يشهد من قبل حفلاً دينياً يشبه ما رآه الآن . لقد امتلأ قلبه  
صراعا من طموحه الذي عاوده حين رأى رئيس الأساقفة لا يزال شاباً ،  
ومن تأثره بأدب الرئيس الجهم ، وهو أدب لم يره للسيد دي رينال حتى  
في أحسن أيامه ، وهنا قال في نفسه : لاشك أن المرء يرى صفات أطيّب



وأرق كلما ارتفع إلى الطبقة الأولى من المجتمع .  
ودخل الموكب الكنيسة من باب جانبي ، فسمعت ضجة مفاجئة  
شديدة هزت قباها القديمة ، حتى خيل إلى جوليان أنها تتداعى ،  
ولكنها كانت ضجة المدفع الذى وصل إلى جوار الكنيسة منذ لحظة  
قصيرة ، تجره ثمانية جياد راكضة . ولما وصل أطلق منه مدفعو ليترج  
خمس طلقات فى كل دقيقة ، كأنما كانوا يدفعون به البروسيين .

لم تؤثر هذه الجلبة الشديدة فى نفس جوليان ، فلم يعد يفكر فى نابليون  
أو فى المجد العسكرى ، لأنه كان يقول : يا لله ! إن رئيس أساقفة آجد صغير  
السن ! ولكن أين تقع آجد ؟ وكم يدرك عليه منصبه ؟ لعله يأخذ مائتى  
ألف فرنك أو ثلثمائة ألف .

ثم ظهر خدم مونسنيور يحملون مظلة رائعة يستظل بها الرئيس ،  
وأمسك الأب شيلان إحدى عصيتها ، وإن كان جوليان فى الواقع هو  
الذى يحملها ، واستطاع الرئيس وهو تحت المظلة أن يظهر بمظهر كبير السن ،  
فأعجب به جوليان وقال فى نفسه : إن المهارة لا تعرف حدًا فيما تتناوله  
من الأعمال .

وصل الملك ، وأتيحت لجوليان فرصة أن يراه عن قرب . وخطب  
رئيس الأساقفة بين يديه فى طلاوة وعذوبة ، ولم ينس أن يشير إشارة  
خفية مؤدبة إلى الثناء على جلاله الملك . ونحن لا نريد وصف حفلات  
براى لاهو لأنها ملأت أعمدة صحف الأقاليم طوال خمسة عشر يوما .  
وعرف جوليان من خطاب رئيس الأساقفة أن الملك من سلالة شارل

الجنسور . ثم علم أن مصروفات حفلة براى لاهو وحدها كلفت المريكيز دى لامول ثمانمائة وثلاثة آلاف من الفرنكات ، لأن المريكيز جامل قريبه رئيس الأساقفة فتحمل المصروفات كلها بعد أن عاونته فى الوصول إلى المنصب . علم جوليان بكل هذا بعد أن التحق بخدمة المريكيز .

انتهى الرئيس من خطابه فردّ عليه الملك ، ثم وقف جلالته تحت المظلة ، وركع خاشعاً على وسادة بالقرب من الهيكل . وكان حول القوس المرتلين كراسى ترتفع عن الأرض درجتين وجوليان يجلس عند قدمى الأب شيلان على آخر درجة ، كأنه من الذين يحملون أطراف ثوب الكاردينال فى كنيسة سكستين بروما . وكان ترتيل « الحمد لله » يتردد فى أرجاء الكنيسة ورأحة البخور تملأ الخياشيم ، وطلقات البنادق والمدفع تتردد فى الخارج بلا انقطاع ، فشمع الفلاحون بسعادة كبيرة ، وامتلأت قلوبهم بالإيمان . ومثل هذا اليوم العامر بمجواته يبطل أثرمائه صحيفة من صحف العقابفة الثائرين .

كان جوليان على مقربة من الملك ، فرآه يصلى فى ورع شديد ، ورأى لأول مرة رجلاً قصير القامة نحيف القوام يشعّ من نظراته الذكاء ويرتدى ثياباً لا زينة فيها ولا ترفيش ، وفوق حلتته البسيطة شريط أزرق . كان أقرب إلى الملك من أولئك السادة الذين زينوا ملابسهم بالذهب ، وغالوا فى ذلك حتى وارى الذهب « القماش » على حدّ تعبير جوليان ؛ ثم علم بعد قليل أن هذا السيد القريب من الملك هو المريكيز دى لامول ، وقد رأى فيه جوليان كبراً وقحة ، فقال فى نفسه : إنّ ذلك المريكيز

ليس في أدب هذا الرئيس الجميل . آه ! إن الكنيسة لتضفي على المرء وداعة وعقلا ، وقد أتى الملك ليجعل رفات القديس ، ولكنى لا أرى رفاتا ، فأين القديس كليمنت إذن ؟ وأخبره شماس شاب يجلس إلى جواره أن الرفات المقدس في أعلى البناء في مكان أوقدت فيه الشموع .

جرت العادة بأن الكهنة القانونيين لا يرافقون رئيس الأساقفة في زيارة رفات القديس كليمنت إذا مازار الكنيسة أمير من البيت المالكي ؛ لكنه ما كاد الركب المالكي يتحرك إلى الرفات ، حتى استدعى رئيس أساقفة آجد الأب شيلان وطلب منه أن يرافقه الكهنة ؛ وجرؤ جوليان فسار في رقعة صديقه وأستاذه الشيخ .

صعدوا سلما عالياً ، ووصلوا إلى باب صغير جدا ، زُين إطاره القوطي بزينة بديعة كأنما نفخ منها الصانع يديه بالأمس ، يركع أمامه أربع وعشرون فتاة من أعرق الأسر في ثريير ، وقبل أن يفتح رئيس الأساقفة الباب ، ركب بين هؤلاء الفتيات الرائعات ؛ وأخذ الرئيس يصلى بصوت مرتفع ، وهنّ ينظرن إليه معجبات بأنافته وظرفه وجمال وجهه ورقة شبابه ، فقضى هذا المظهر الساحر على بقية بقيت من عقل جوليان ! ففتح الباب بغتة وظهر مكان الرفات سابحا في ضوء قوى ، فقد وضع على المذبح أكثر من ألف شمعة قسمت ثمانية أقسام ، تتخللها طاقات من الأزهار ، على حين عقب جوّ المكان برائحة بخور نقي شدي . أما الكنيسة فقد زينت حديثا بالذهب الخالص ، وهي مرتفعة جدا على الرغم من أنها صغيرة ، وأما الشموع التي وضعت على هيكلها فكان طول كل منها

يزيد على خمس عشرة قدما . ولم تستطع الفتيات أن يتغلبن على مافي نفوسهن فانبعثت منهن صيحة إعجاب ، ولم يدخل ردهة الكنيسة إلا الفتيات والخوريان وجوليان .

ووصل الملك بعد قليل يتبعه المركزي لاملول وكبير حجابيه ، وبقي الحراس أنفسهم خارج الكنيسة الصغيرة راكعين مؤدبين بأسلحتهم التحية . ودخل الملك الكنيسة مسرعا ليصلي ، فأتى ليجوليان في هذه اللحظة ، وهو ملتصق بالباب المذهب ، أن يرى من فوق كتف فتاة عارية الذراع تمثل القديس كليمنت الجميل الذي كان محبثا تحت الهيكل ، وعليه ثوب جندي روماني شاب ، وفي رقبته جرح واسع كأنّ الدم لا يزال يقطر فيه . لقد أجاد الممثل صنع هذا التمثال كل الإجابة : كانت العينان تفارقهما الحياة ، لكنهما تفيضان بعمان بالغة الرقة ، وقد أغلقتا كأنهما عيون بين الحياة والموت وله شارب حديث العهد زينّ فما دقيقا لطيفا ، شفثاه منفرجتان كأنه لا يزال يصلي ! ورأت الفتاة التي تجاور جوليان جمال التمثال ، فضجّت بالبكاء . وسقطت دمعة من دموعها على يد بطلنا الشاب .

وانقضت فترة الصلاة في صمت عميق لا يقطعه إلا صوت النواقيس تدقّ بعيداً في القرى المجاورة . انقضت الصلاة ، فطلب رئيس الأساقفة من جلالة الملك أن يأذن له بالكلام ، ثم ألقى خطابا قصيرا بليغا عميق التأثير ، كأنه تحدّث به إلى القلوب ، وقد خاطب الفتيات قائلا :  
— أذكرن دائما أيتها المسيحيات أنكن رأيتن ملكا من أعظم

ملوك الأرض ساجدا أمام أولياء الله العزيز الجبار . ألا إن أولياء الله  
لستضعفون في الأرض ، يضطهدون ويقتلون كما ينبئُكن هذا الجرح الذي  
لا تزال تسيل منه دماء القديس كليمنت . هم يُستضعفون في الأرض  
والكنهم ينتصرون في السماء ! هل تعدني أيتها المسيحيات أن تظلّ  
ذكرى هذا اليوم خالدة في قلوبكن ، وأنكن ستكرهن كل كافر أثم ؟  
هل تعدني بأن تكنّ مؤمنات مخلصات لهذا الإله العظيم المنتقم الرحيم ؟  
ثم نهض الرئيس بعد ذلك في وقار وعظمة ، ومدّ ذراعه في إعزاز  
وتلقين وسألهن :

— أتعدني بذلك ؟ .

فسالت دموع الفتيات وقلن :

— نعم ، نعدك .

فقال لهن في صوت جهوري :

— تقبلت وعدكن باسم الإله الجبار .

وانتهى الحفل ، وقد بكى الملك نفسه ، وظلّ جوليان مضطرب  
النفس وقتا طويلا ، ثم عاوده الهدوء فسأل عن رفات القديس كليمنت  
التي أرسلت من روما إلى فيليب الطيب دوق برجونيا ، فقيل له : إنها مخبأة  
داخل هذا التمثال الشمعي الجميل .

وسمح جلالة الملك للفتيات اللاتي رافقته إلى الكنيسة ، أن يحمان

أشرطة حمراء ، طرزت بهذه الكلمات : الكراهية للكفار ، عبادة  
أندية .

ثم أمر المركيز دى لامول بأن توزع على الفلاحين عشرة آلاف  
زجاجة من النبيذ . وفي المساء كان أحرار فرير قد وجدوا سبياً يقيمون  
من أجله زينات خيراً من زينات الملكين مائة مرة . وقد زار الملك  
قبل رحيله السيد دى موارو .

---

# الفصل التاسع عشر

## التفكير وسيلة الالام

[ إن سخر الحوادث اليومية ليجب عنك الالام  
الحقة التي تضطرم بها العواطف . ]  
بارناف  
←→

عثر جوليان في الغرفة التي أعدت لإقامة المريكزدي لامول على أربع  
ورقات سميكة مطوية ، وذلك حين كان الخدم يرتبون أثاث الغرفة بعد  
رحيل المريكز . وقرأ جوليان في أسفل الصفحة الأولى هذه الكلمات : إلى  
حضرة صاحب السعادة الماركيزدي لامول ، عضو المجلس الفرنسي الأعلى ،  
وحامل وسام الملك ... ثم قرأ الرجاء التالي ، وقد كتب بخط كبير كخطوط  
الطاهايات :

سيدي المريكز :

« لقد تمسكت طول حياتي بمبادئ الدين ، وكنت في ليون معرضا  
للقنابل أثناء الحصار عام ٩٣ ، خلال تلك الفترة الأليمة . إنى أتناول القربان  
وأذهب إلى كنيسة خوريتنا في أيام الأحاد لأؤدي فرضي نحوربي : ولم أقطع  
مرة واحدة عن أداء واجبي الفصحى حتى في عام ٩٣ ، عام الذكرى الأليمة  
المرّة . وطاهيتي لا تطعم اللحوم في أيام الجمعة ، ويسعدني أن أخبركم أنني  
قبل الثورة كنت من ذوى اليسار وكان لي خدم وأتباع . وأنا أتمتع  
في فريير بثقة كبيرة وأستطيع أن أقول : إنني جدير بها . أسير في المواكب  
العامة تحت المظلة بجوار الخورى والعمدة ، وأحمل في المناسبات الكبيرة

شمعة ضخمة اشتريها من مالى ، وكل ما يختص بى من أوراق وشهادات  
بى وزارة المالية فى باريس . أما ظلى من سيدى المركز فهو أن يتفضل  
بتعيينى فى مكتب يانصيب فريير فى الموضع الذى سيخلو قريباً ، لأن  
شاغل هذا المنصب قد اشتدّ به المرض ، وهو بعد يسئ استعمال صوته  
فى الانتخابات . . . . . »

دى شولان

وفى هامش هذا الرجاء حاشية وقمها دى موارو جاء فى أولها :  
« أشرف بأن أرجو سعادتك فى إجابة ملتصق حامله ؛ وهو من الرعايا  
المخلصين . . . . . »

قرأ جوليان هذا الطلب فقال فى نفسه : حتى هذا الأحق دى شولان  
يرشدنى إلى الطريق الذى يجب أن أتبعه !

كانت زيارة ملك . . . لفريير مزار أحداث مختلفة ، نشأت منها  
أكاذيب لا حدّ لها ومناقشات تافهة ، واستنتاج لا طائل من ورائه ،  
تناول الملك تارة ، ورئيس أساقفة أجد تارة أخرى ، وكذلك المركز  
دى لامول ، وعشرة آلاف زجاجة النبيذ ، وسقوط المسكين دى موارو  
عن ظهر جواده ، وما إلى ذلك . وقد حرص دى موارو على الاعتكاف  
فى منزله شهراً كاملاً ، لعله يحصل على وسام جزاء سقوطه عن الجواد . لكن  
أهمّ ما شغل أهل فريير وجعلهم يتحدثون عنه ثمانية أيام بعد زيارة الملك ،  
هو إقحام جوليان سورل فى حرس الشرف ، فقتلوا ساخطين : كيف  
يتاح له هذا وهو ابن نجار وضيع ؟ ومن الطريف أن تسمع رأى الأغنياء



من أصحاب المصانع في قرير الذين كانوا يجتمعون صباحاً ومساءً في المقهى  
ينادون بالمساواة حتى بُحَّت أصواتهم ؛ فقد رأوا أن مدام دي رينال  
السيدة المتكبرة هي التي حملت زوجها على أن يزجّ بـجوليان في حرس  
الشرف ، إنها هي التي ارتكبت هذه الحماقة الكبرى ، فما السبب  
في ذلك ؟ إن جمال عيون جوليان ونضارة وجهه وشبابه تجيب في صراحة  
عن هذا السؤال .

عادت أسرة دي رينال من قرجي إلى قرير ، ومرّ زمن قصير فرض  
ستانيسلاس كزافييه أصغر الأبناء بالحمل ، فجزعت أمه جزعاً شديداً. ولامت  
نفسها في عنف على حياتها لزوجها وحبها لجوليان . شعرت لأول مرة  
بوخز ضمير لا يفارقها لحظة ، وخيلَ إليها أن مرض ابنها انتقام من السماء  
نزل عليها لعظم جرمها وشناعة إثمها . وهي على تدينها العميق لم تفكر من  
قبل في أن الله لا يرضى عن ذلك الإثم العظيم .

أحبت الله حباً شديداً وهي في «دير القلب المقدس» ، وأصبحت الآن  
تحشاه خشية عظيمة ونفسها فريسة لصراع أليم ، وحال خوفها العظيم بينها  
وبين أن تسمع صوت العقل . ووجد جوليان أن كل محاولة إلى إقناعها  
بالمهدوء لا تجدى ، وأن المنطق في الحديث يغضبها ويثير حفيظتها ؛ وكأنما  
كانت حججه في نظرها صوت نذير من جهنم . وكان جوليان يحب الطفل  
كثيراً ، ويتحدث إليها عن مرضه فيلقى الحديث في نفسها صدى ،  
ويبعث فيها شيئاً من الهدوء والرزانة . لكنّ وخزات ضميرها كانت  
شديدة فأقلقت حياتها وأقصت مضجعها ، وعقلت لسانها عن الكلام ؛

فكان صمتها طويلاً خيفاً ، وإن تكلمت فلا شيء إلا لتعترف  
بإثمها لله والناس . ولقيها جوليان وحدها يوماً فقال لها :

— أتوسل إليك ألا تتحدثي إلى غيري ، تكلمي إليّ وحدي ،  
وبينيّ آلام نفسك ، وإن كنت لا تزالين تحميني فكفي عن الكلام ؛  
إن حديثك إلى الناس لن يشفي عزيزنا ستانيسلاس من الحمي .

ولم تُجد نصائحهم ومشاركتهن آلامها شيئاً ، ولم يكن يعلم أن مدام  
دي رينال وطلدت عزمها على أن تكرهه أو على أن ترى ابنها يموت بين  
يديها لتخفّ عنها نعمة الله . وكانت حزينة متألّمة لأنها لا تجد سبيلاً إلى  
كراهية حبيبها ، فقالت له يوماً :

— أستحلفك بالله أن تغادرنى ، أترك المنزل ، فإن وجودك فيه يقتل  
ابني . ثم استطردت في صوت خفيض :

— إن الله يعاقبني على جريمتي ، وإنه عادل ، وقد وطلدت نفسي  
على تحمّل العقاب . جرمي فظيع ! كنت أحيًا من قبل حياة لا أعرف  
فيها وخزات الضمير ! هذه أول علامة تخلّى الله عني ، وسيكون عقابي  
شديداً مضاعفاً .

تأثّر جوليان تأثراً عميقاً لأنه لم ير في كلامها نفاقاً ولا مبالغة ، وقال  
في نفسه : هي تعتقد أنها تقتل ابنها بحبها إياي ، ومع ذلك فهذه البائسة  
تحبني أكثر من ابنها ، وأنا لا أشكّ أبداً في ذلك . إن وخز ضميرها يقتلها  
قليلاً قليلاً ، وعواطفها نحوى قويّة نبيلة ، ولكن كيف استطعت أن أنال

منها هذا الحب العنيف ، وأنا الذى قد نشأت بين جهل وفقر ، لا تخلو  
حركاتي أحياناً من فظاظه وغلظة ؟

بلغ الألم بالطفل منتهاه فى إحدى الليالى . اشتدت عليه الحمى والتهبت  
وجنتاه وجاء أبوه فى الساعة الثانية صباحاً ليزاه ، فلم يعرف الطفل والده .  
وهنا ارتمت مدام دى رينال فجأة عند قدمى زوجها ، ففطن جوليان إلى  
أنها ستعترف بكل شيء ، وفى ذلك هلاك محقق . لكن السيد  
دى رينال غضب من حركاتها لحسن حظهما وانصرف قائلاً :

— الوداع ! الوداع !

فصاحت زوجته وهى راكعة أمامه ، تحاول أن تستبقه :  
— لا ، لا تذهب . يجب أن تعرف الحقيقة كاملة . إننى أنا التى  
أقتل ولدى ! لقد كنت سبب وجوده ، وها أنذا أكون سبب موته .  
إن السماء تعاقبنى لأنها تعتبرنى سفاكة أثيمة ، فيجب أن أهين نفسى  
وأذلها لتكون التضحية وسيلة إلى غفران آثمى !

ولو أن السيد دى رينال كان خصب الخيال لعرف كل شيء ؛  
لكنه صاح بأمراته وهى تحاول أن تستوقفه وتقبل ركبته قائلاً لها :

— هذه آراء خيالية ! أما أنت يا جوليان فاستدع الطبيب فى الصباح

الباكر .

ثم عاد إلى غرفته لينام . وأما مدام دى رينال فقد هوت على ركبتيها  
وكاد يغمى عليها . وخفَّ إليها جوليان ليغيثها فدفعته عنها فى شدة ؛ فنظَّ  
فى مكانه مذهولاً يقول فى نفسه : هذه هى الزانية ! ... فهل لى أن أعتقد

أن القسس على وضاعتهم . . . صائبو الرأي ؟ إنهم يرتكبون كثيراً من الذنوب ، لكنهم هم أصحاب الامتياز في أن يعرفوا النظرية الصحيحة للآثام ، فيالها من مهزلة ! . . .

وظلّ عشرين دقيقة يرى المرأة التي يحبها بعد أن غادرها زوجها ، وقد أسندت رأسها إلى السرير الصغير الذي ينام عليه الطفل المريض ، ساكنة لا تتحرك ولا تحسّ . فقال في نفسه : ها هي ذى امرأة عظيمة عبقرية ومع ذلك بلغ بها الأسى منتهاه وهذا الحزن لأنها عرفتني .

الوقت يمضى سريعاً ، فإذا أستطيع أن أفعل من أجل محنتها ؟ ينبغي أن أعرف ذلك في الحال . على أن أرحل من ذلك المكان . وماذا يهمني من الرجال ومصانعتهم التافهة ؟ ماذا أستطيع أن أفعله من أجلها ؟ أأتركها وحدها فريسة لآلامها القاسية ؟ هذا الزوج الآلي يضرّها أكثر مما ينفعها . سيسمعها كلمات قاسية لأنه فظ غليظ ، وقد تفقد رشدها وتلقى بنفسها من النافذة . وأنا إذا تركتها ، ولم أعد أرقبها وأسهر عليها عن كذب ، ستعترف له بكل شيء . ومن يدري ! إنه ربما أثار فضيحة على الرغم من الميراث الذي سترته عن عمته . وربما اعترفت ، يا إلهي إلى هذا الوغد ، إلى الخوري مالون ! وإذا فعلت هذا لزم الخوري منزلها لأمر في نفسه ، واتخذ مرض الطفل ذريعة لإقامته . وهي في ألمها وخوفها من الله تنسي كل ما تعرفه عن الرجل ، ولا ترى فيه إلا القسّ . . .

وفتحت مدام دي رينال عينيها ، وقالت له بغتة :

— اذهب عني !

فقال لها جوليان :

— إني لأهبط حياتي ألف مرة لأعلم ماذا ينفعك ... لم أحبك قبل اليوم كما أحبك الآن يا ملكي العزيز ، لقد بدأت أعبدك منذ هذه اللحظة فحسب كما ينبغي لك أن تعبدني . وماذا يكون مصيري حين أصبح بعيداً عنك ، وضميري يؤنبني لأنك أصبحت بائسة بسببي؟! لا أحب أن أتحدث إليك عن آلامي ، سأرحل ، نعم سأرحل يا حبيبتي . ولو تركتك ولم أسهر عليك ، واقفاً بينك وبين زوجك ، إذن لاعترفت له بكل شيء وفي هذا هلاكك . فكروا في أنه سيطردك شر طردة تحملين فضيحة وعاراً ، وستتحدث أهل قريير جميعاً عنك وأهل بيزانسون عن هذا العار . وسيحملونك وحدك الوزر والآثام ، وسيظل العار يطاردك أينما تكونين . فنهضت وصاحت قائلة :

— هذا ما أريد ، ومن الخير لي أن ألقى العذاب .

— لكن هذا العار الشنيع سيؤذي زوجك كما يؤذيكَ !

— ولكنني سأعمل على امتحان نفسي ، سألقى بها بين الأوحال لعلي أنقذ ولدي . وربما كان إذلالاً إياها أمام الناس جميعاً توبة عامة ، وإن حال ضعفني بيني وبين الأقدام . أليس هذا تكفيراً خالصاً يرضاه الله؟ ... ربما قبل هواني وتوبتي وأبقى لي طفلي ! دلّني على ما هو أعظم مما سأقدم عليه ، وكن على يقين من أنني لن أتردد !

— دعيني أنزل العقاب بنفسي ، فأنا كذلك معتد أئيم . أريدن

أن أعيش وحدي وأعتزل الناس جميعاً؟ إن خشونة هذه الحياة وقسوتها

قد تهدثان من غضب الله ... آه ! يا للسماء ! لم لا أستطيع أن أحمل عن ستانيسلاس قسوة مرضه ؟ ..

فنهضت مدام دي رينال وارتيمت بين أحضانه قائلة :  
- آه ! إنك تحبه كذلك .

ولكنها سرعان ما تخلصت من ذراعيه ودفعته عنها في فزع وورعب ،  
ثم ركمت أمانه واستطردت تقول :

- إني أصدقك ! إني أصدقك ! يا صديقي الوحيد ! لماذا لم تكن  
أمت والد ابني ستانيسلاس ؟ لو أنك كنت أباه ما كان في حبي لك إثم  
ولا حرج حين يكون أكثر من حبي لابنك ستانيسلاس .

- أسمحين لي بالبقاء ، على أن يكون حبي إياك منذ الآن حب  
أخ لأخته ؟ وهذا هو المخرج الوحيد المعقول ، وعسى أن يخفف من  
غضب الله علينا . فصاحت ممسكة برأسه بين يديها ، وهي تنظر في عينيه :  
- وأنا ، أفي وسعى أن أحبك كما تحب أخت أخاها ؟ أستطيع  
أنا ذلك ؟

فبكي جوليان وارتيمت تحت قدميها قائلاً :

- سأطيعك ، سأنزل على إرادتك في كل ما تأمرين . وهذا كل  
ما أستطيعه الآن . لقد أصابتنى عشاوة فأصبحت لأدري ما أنا فاعل ، لو أني  
تركتك لاعترفت لزوجك بكل شيء ، وفي هذا هلاكك وهلاكه ؛ ولن يصبح  
يوماً ما نائباً إن حلت به هذه المصيبة . وإذا بقيت بجانبك أعتقدت إنني  
سبب موت ابنك فيقتلك الألم . أتريدون أن تجربني أتررحيلي ؟ إن شئت

عاقبت نفسي على إيمنا ، وعشت بعيداً عنك ثمانية أيام في أى مكان  
تختارينه بعيداً عن الناس : في دير «براي لاهو» مثلاً . ولكن أقسمت  
بأنك لن تعترفى لزوجك وأنا غائب . وتذكرتى دائماً أنتى لن أستطيع  
الرجوع إذا بحث له بشيء .

فوعده ، ورحل ، ولكنه استدعى بعد يومين . ورأته فقالت :

— من العسير على أن أفى بوعدى وأنت بعيد عني . إن لم تكن  
بجانبي في كل لحظة لتأمرنى نظراتك بالصمت أفضيت إليه بكل ما بيننا .  
فكل ساعة من هذه الحياة المريرة تمرّ علىّ وكأنها يوم كامل .  
وأخيراً رحمت السماء هذه الأم البائسة ، وبدأ الخطر يزول عن  
ستانيسلاس شيئاً فشيئاً ، ولكن الأم علمت شيئاً جديداً ؛ فقد أدركت عظم  
جريمتها ، فلم تعد تملك السيطرة على نفسها ، ولم تفارقها وخزات ضمير  
وجدت مرتعاً خصباً في قلبها المخلص . كانت حياتها جنة تارة وتارة  
سعيراً ، تشقى كل الشقاء حين لا ترى جواريان ، وتسعد كل السعادة  
حين تكون عند قدميه . وكثيراً ما قالت له وهى في تلك اللحظات  
التي يكون الحب فيها قد ملك عليها نفسها ومشاعرها :

— لست أحبّ أن أخدع نفسي ، فأنا أعلم أنى أئيمة ، صديت علىّ  
البيماء غضبها . أما أنت فتأب صغير السن قد أستجاب لغوايتى ، فلا بد  
أن يغفر لك الله . لا غفران لى بعد اليوم ! وأنا أعلم هذا حقّ العلم من  
أمارة لا تخلف ! أنا خائفة ، ومن ذا الذى لا يخاف حين يرى الجحيم ؟

لكننى لا آسف على شيء ، ولو أن الخطأ الذى وقعت فيه يرتكب مرة  
أخرى ما ترددت فى ارتكابه . على أنى أرجو ألا تعاقبنى السماء فى الدنيا  
بأن تقتصّ منى فى أبنائى ، وإن كنت أعلم أن جزائى فى الآخرة أدهى  
وأشدّ تنكيلا .

وفى لحظات أخرى كانت تقول له :

— ولكن خبرنى يا عزيزى جوليان أننت سعيد؟ وهل تشعر  
بما أكنّه لك من حب جارف؟

فطر جوليان على الحذر وعلى أنه مجروح الكبرياء ، لذلك كان فى  
حاجة إلى حب مُضحّ مخلص . وقد زايله الحذر والكبرياء حين رأى  
ما تضحى به صديقه من أجله فى كل ساعة تضحية صادقة لا رياء فيها ؛  
فعبدها عبادة . وكثيراً ما ناجى نفسه قائلاً : مهما تكن كريمة المحتد ومهما  
أكن أنا ابن عامل فقير فهى تحببى ولا شك . . . . . لست فى نظرها خادماً  
أمر بأن يؤدى مهمة العاشق .

ولما تبدّد الخوف من نفسه ، غمرته ألوان الحب الجنونى بما فيه من  
شك أليم . وكانت مدام دى رينال ترى شكوكه هذه فتقول له :

— أريد على الأقل أن أسعدك فى الأيام القليلة التى نعيشها معاً !  
فلنسرع فى انتهاز الفرصة . ومن يدرى ، ربما انقضى كل ما بيننا غداً !  
فلو أن السماء عاقبتنى بأن اقتصت منى فى أبنائى ، فإنى لا أستطيع أن  
أعيش فى هذه الدنيا لأحبك ، ولن أتمكن من أن أقنع نفسى بأن  
جريمتى لم تقتل ولى . لو أصابتنى هذه الصدمة ما عشت من بعدها .



ولو رغبت في الحياة ، ما وجدت إليها سبيلاً ، ولأصابني الجنون  
آه ! ليتني أستطيع أن أحمل عنك وزرك ، كما عرضت في كرم  
بالغ أن تحمل الحثي الخبيثة عن ولدي ستانيسلاس !  
وغيرت هذه الأزمة الخلقية الشديدة الطابع العاطفي الذي يربط  
جوليان بخليته ، فلم يعد حبه مقصوراً على الإعجاب بنجالها ، ولا على الفخر  
بأنها في متناول يده يملكها ويسيطر عليها ، بل أصبحت سعادتهما أكثر  
عمقاً وأحلى مذاقاً ، وأصبح حبهما أشد قوة ورواء . وكانت تعثور نفسيهما  
اضطرابات جنونية . وكأنهما كانا سعيدين إلى أبعد الحدود ، لكنهما في  
الواقع لم يعودا يشعران بالطمأنينة الهادئة ولا بالسعادة الصافية التي لا يغطي  
سماتها سحب ، سعادة أيام حبهما الأولى . وذلك لأن مدام دي رينال  
تحشى الآن كثيراً أن يكون هوى جوليان قد فتر ، وصارت سعادتهما تتخذ  
في بعض الأحيان صورة الجريمة .

أما في اللحظات السعيدة الهادئة ، فإنها كانت تصيح بفتة وهي  
تضغط على يده بيد مرتعشة وتقول :

— آه ! يا إلهي ! إني لأرى جهنم ! يا للعذاب الأليم ! إني استحقته .

ثم تضمه إليها في قوة وحب وتلتصق به كما يلتصق اللبلاب بالجدار .

وحاول جوليان عبثاً أن يهديء اضطراب نفسها ، فأمسك يدها وأمطرها  
بالقبل لكنها فكرت في الحجم من جديد ، وأخذت تقول :

— ستظهرني جهنم من آثامي ، ولكن لا تزال لي بضعة أيام

أعيشها معه على الأرض . غير أنني أخشى جحيم الدنيا ، وهو أن أفقد

أولادى . . . وربما يعفو الله عنى لو عاقبنى هذا العقاب الصارم . . . آه !  
يا إلهى ؟ أرجو ألا يكون صفحك عنى جزاء فجيعتى فى أبنائى . إنهم  
أطفال أبرياء لم يعضبوك ولم يقترفوا إثمًا ، ولكننى أنا وحدى الآئمة  
لأننى أحب رجلا ليس زوجى .

وكان جوليان يراها فى بعض الأحيان هادئة الظاهر لأنها كانت  
تحاول التغلب على مخاوفها التهمية ؛ لحبيبها هدوءاً وسعادة . وأخذت الأيام  
تمضى سراعاً وحياتها كلها حب ولذة وندم ، ولم يعد جوليان يعمد إلى  
التفكير الطويل .

ذهبت الآنسة إليزا يوماً إلى فرير لتحضر قضية تافهة ، فلقيت السيد  
قالنو وألفته مغيضاً من جوليان نائماً عليه ، وكانت هى كذلك تكرهه  
منذ أن رفض أن يتزوجها . ولما تحدثت إلى قالنو قالت له :

— لو أنى أفضيت إليك بالحقيقة يا سيدى ، لكان فى ذلك  
هلاكى ! .. فالسادة جميعاً لا يختلفون فيما بينهم فى الأمور الخطيرة . . .  
ولا يصفحون عن الخدم أبداً إذا اعترفوا ببعض ما يعرفون .

وسمع السيد قالنو هذه العبارات المألوفة ، فدفعه حب الاستطلاع إلى أن  
يحمل إليزا فى مهارة على الإفشاء بما تعرف ، فأخبرته بما آله وجرح  
كبرياءه جرحاً بليغاً . فهذه السيدة التى تعد من أرقى نساء الإقليم ، كثيراً  
ما تملقها السيد قالنو وغازلها وحاول أن يتقرب منها ، وبما يؤسف له أن  
ذلك كان على مرأى ومسمع من الناس ؛ لكنها كثيراً ما احتقرته فأججلته .  
هذه المرأة المتكبرة قد اتخذت خليلاً ، وباله من خليل ! إنه عامل حقير

تسكت في ثياب معلم! وبلغ حزن السيد مدير التصرفات غاية حين علم  
أنها تعبد هذا الخليل. ثم قالت إيزا للسيد قالتو وهي تتهد :  
— إن السيد لم يبذل في هذا الغزو جهداً كبيراً ، بل إنه ليظهر لسيدتي  
دائماً ما جبل عليه من فتور .

ثم أخبرته أنها لم تتأكد من صلتها إلا بعد أن ذهبوا إلى الريف ،  
وإن كانت تعتقد أنها صلة قديمة . ثم قالت له في حسرة وحزن :

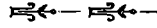
— ولا ريب في أنه رفض الزواج بي من قبل لعلاقته بسيدتي .  
فيألى من بلهاء لجأت إلى مدام دي رينال أطلب منها النصح وأرجوها أن  
أن تتحدث عني إلى المعلم !

وما حل مساء اليوم ، حتى تسلم السيد دي رينال من المدينة مع  
الصحيفة كتاباً طويلاً بدون توقيع ، ذكر فيه كاتبه كل ما يدور في منزله  
بإسهاب . وكان جوليان يرقب العمدة وهو يقرأ الخطاب ، فرأى لونه  
وقد امتقع امتقاعاً شديداً ، ونظر إليه نظرات تنطوي على الشر . وكان  
الخطاب مكتوباً على ورق يضرب إلى الزرقة ، وقد ظل العمدة مضطرباً  
جداً طوال السهرة . وحاول جوليان عبثاً أن يتماقعه بأن أخذ يوجه إليه  
أسئلة كثيرة يستفسر بها عن نسب الأسر العريقة في بورجونيا .

# الفصل العِشْرُونَ

## الخطابات المجهولة

[ لا تطلق العنان كثيرا لمتك ، فإن الأيمان المظلمة  
كلهشم لتلك السعير الذي يضطرم في الدم . ]  
العاصفة



همّ جوليان بمغادرة الصالون في منتصف الليل ، فأتاحت له فرصة  
أن يتحدث إلى صديقه فقال :

— يجب أن يلتقى في هذه الليلة ، لأنّ نفس زوجك قد ساورتها  
الشكوك ، وأقسم أن هذا الخطاب الطويل الذي كان يقرؤه متنهداً إنما هو  
خطاب أرسله إليه مجهول .

ثم احتاط جوليان للأمر، فأغلق باب حجراته من الداخل. وجنّ جنون  
مدام دي رينال حين ظنت أنه زهد في لقاءها فاعتذر لها بما قال ، وفقدت  
رشدها حين ذهبت إلى غرفته في الساعة الموعودة ، لأنه لم يكذب جوليان  
يسمع جلبه في الردهة حتى أطفأ المصباح . وسمع محاولات عنيفة ليُفتح باب  
الغرفة فساءل نفسه : أهذه هي مدام دي رينال ؟ أم هذا زوجها الغيور ؟  
وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ، دخلت عليه طاهية كانت  
تحبه وتعطف عليه ، وفي يدها كتاب خط على غلافه باللغة الإيطالية هذه  
الكلمات : أنظر صفحة ١٣٠ .

ارتعدت فرائصه فرقا من تلك الغفلة ، وفتح الكتاب حيث الصفحة

المطلوبة فوجد خطاباً قد كتب على عجل وتساقطت على رقعته دموع غزيرة ، وكثرت فيه الأخطاء الإملائية على غير عادة كاتبته مدام دي رينال ، فزأتر حتى كاد ينسى الحماقة التي قد تجر عليهما الويل والثبور ، كتبت مدام دي رينال لصديقها تقول :

« لم أبيت أن تستقباني في الليلة الماضية ؟ تمرّ على لحظات أعتقد فيها أنني لم أتمكن بعد من معرفة ما يدور في نفسك . نظرانك تبعث الرعب في نفسي . أنا خائفة منك . يا إلهي ! هل أحببتني حقاً ؟ إن صحّ هذا فلسب أبالي أن يكشف زوجي ما بيننا من حب ، وحتى ولو زوجني في سجن مقيم في الريف بعيداً عن أبنائي ، ربما كتبت على هذا المصير ، إلى ساموت بعد قليل ، ولكنك ستظل شيطاناً . ألا تحبني ؟ هل أتعبتك بما يعتريني من نوبات جنونية ومن وخزات ضميري أيها العاق ؟ أتريد هلاكى ؟ سأدلك إن كنت تريد على طريقة هيئة سهلة ، فاذهب بخطابى هذا وأطلع عليه أهل قريير جميعاً ، أو أطلع عليه السيد فالنو وحده ، وقل له إننى أحبك ، استغفر الله بل قل له إننى أعبدك ، وما عرفت الحياة ولا تمتعت بها إلا من يوم لقياك . قل له إننى يوم كنت شابة طائشة لم أكن أحلم بما سبغته على من سعادة أنا مدينة لك بها . وقل له : إننى ضحيت من أجلك حياتى ، وأضحى من أجلك بروحى ، وأنت تعلم أنى أضحى بما هو أعز من ذلك وأغلى !

« ولكن هل يفهم هذا الرجل قيمة التضحية ؟ خبّره ثم خبّره لتزيد غضبه من أنى لا أبالي بالأشرار ، وأن ليس في العالم كله إلا شر واحد

يصيبني ، هو أن أرى الرجل الوحيد الذي أعيش من أجله قد تغير . وم  
يطيب لي أن أفقد حياتي ، مضحية بها لأجود من خوف يساورني  
على أطفالي ! .

« ثق يا صديقي العزيز بأن كاتب الخطاب المجهول — إن صحَّ أن  
هناك خطاباً — هو هذا المخلوق الذميمة ، الذي طاردني ستة أعوام بصوته  
الجهير ، وبقصصه عن قفزات الجياد وهو على ظهرها ، وبرقاغته وسخفه  
حين يعدد لي محاسنه ومزاياه .

« هل تلقى زوجي خطاباً من مجهول؟ أردت أن أبحث هذا معك  
أيها القاسي ، ولكنك أحسنت صنعاً بما فعلت ، فلو كنت بجانبك أعانتك  
عناقاً ربما كان الأخير ، استطعت أن أبحث الأمر في هدوء وفتور كما أبحثه  
وحيدة ، لم تعد سعادتنا سهلة المأخذ منذ الآن كما كانت من قبل ، فهل  
يؤذيك هذا؟ نعم ، إنه يؤلمك في الأيام التي لا تتلقى فيها كتاباً مسلياً  
من المسيو فوكيه . لقد وقعت التضحية ، وسأخبر زوجي غداً بأنني تسلمت  
خطاباً غفلاً ، سواء أكان قد وصله خطاب من مجهول أم لم يصله ،  
وسأطلب إليه أن يسدي إليك خيراً فيخلق عذراً مقبولاً يسوغ به إرسالك  
إلى والديك في الحال .

« واأسفاه أيها الصديق العزيز! سنفترق خمسة عشر يوماً ، وربما  
ظال الفراق فصار شهراً! يا لله! يجب أن أكون عادلة معك لأنني أعلم  
أنك ستلقى عذاباً كالذي ألقاه ، وليس أمامنا من سبيل نسلكه إلا هذا  
السبيل ، لنمحو أثر هذا الخطاب اللعين ، على أنه ليس أول خطاب يتسلمه

زوجي ؛ فقد أرسلت إليه من قبل خطابات تناولتني بالسوء . وأسفاه !  
كم كنت أضحك ساخرة منها قبل ذلك ! .

« إنني أرمي من وراء ما أفعل أن أحمل زوجي على الاعتقاد بأن كاتب هذا الخطاب هو السيد فالنو ، وأنا واثقة من ذلك كل الثقة . وإذا ما غادرتنا فلا تتردد في الإقامة في فريير . وسأفجع زوجي بالذهاب إليها والإقامة فيها خمسة عشر يوماً حتى نبرهن لأولئك الحق على أني أنا وزوجي على وفاق كامل . وإذا ما كنت في فريير ، فصادق جميع الناس حتى الأحرار ! وأنا أعلم أن أولئك السيدات سيتملقنك ويتقربن منك .

« حذار أن تغضب من السيد فالنو ، أو أن تنفذ ما توعدته به من قبل ، فتقطع أذنيه ، أو صيك أن تظهر له خير صفاتك ورقة حاشيتك ، حتى يعتقد أهل فريير جميعاً أنك ستصبح مؤدب أولاد فالنو أو أى شخص آخر ؛ وهذه هي النقطة الأساسية الحساسة .

« لن يبصر زوجي على هذا ولن يطيقه . ولكن هل يقتنع بذلك ؟ ستسكن على كل حال في فريير ، وسأراك بين آن وآخر ، وسيراك أولادى لأنهم يحبونك كثيراً . يا إلهي ! لكأنما زاد جهم في قلبي حين رأيتهم يحبونك . كم أؤم نفسي ! وعلى أى وجه سينتهى هذا الأمر ؟ . . . لقد ضللت الطريق المستقيم . . . يخيّل إليّ أنك تعرف الآن ما يجب أن تعمله : كن رقيق الحاشية ، مؤدباً ، وأضرع إليك ألاّ تحقر هؤلاء الأفظاظ ، أتوسل إليك ، فهم وحدهم الذين يتحكمون في مصيرنا ، وثق تماماً أن زوجي لن يرضى عنك إلاّ بمقدار ما يعليه عليه « الرأي العام » .

« أنت الذى ستهىء لى الخطاب الغفل الذى سأقدمه إلى زوجى ، فتذرع بالصبر ، وتسلح بمقصّ . واقطع من أى كتاب كان هذه الكلمات التى ستقرؤها ثم ثبتها بالفراء على الورقة الضاربة الزرقة التى أرسلها إليك . وسأدعى أنا أن هذا الخطاب من السيد قالنو ؛ وتوقع دائماً أن تفتش غرفتك ، فأشعل النار فى الكتاب الذى قصصت بعض صفحاته . وإذا لم تجد الكلمات معدّة فاصبر وكونها حرفاً حرفاً . وقد جعلت الخطاب موجزاً لكيلا أجهدك كثيراً . وأسفاه ! إن كنت لا تجبني حقاً كما أخشى فستجد خطابي هذا طويلاً مملاً ! » .

خطاب غفل

« سيدتى :

« قد عرفت جميع دسائسك الوضعية ؛ على أن الأشخاص الذين يحرصون على كتمانها قد أخطروا بها . وأنا أدعوك إلى أن تهجرى هذا الفلاح الحقيير هجراً تاماً باسم ما بقى فى قلبى لك من صداقة . وإذا تغلبت عليك الحكمة واستمعت إلى نصحى ، اعتقد زوجك أن ما بلغه عنك كذب وهراء ، وعلى هذا فسنتركه فى ضلاله . تذكرى دائماً أننى أعلم أسرارك ، فارتعدى أيتها البائسة ، ويجب أن تكونى من الآن طوع بنانى » .

« وإذا ما اتهمت يا جوليان من لصق كلمات هذا الخطاب فأخرج من غرفتك وسألقاك فى المنزل . ( ولعلك قد عرفت فيه أسلوب المدير ، طريقة كلامه ) سأذهب إلى القرية وأعود منها مضطربة مكفهرة الوجه ،



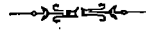
وفي الحق أنى سأكون كذلك . يا إلهى ! علام أقدم ؟ أكلّ هذا لأنك ظننت أن زوجى تسلم خطاباً غفلاً من الإمضاء ؟ سألقاه بوجه غضوب ، وأقدم إليه الخطاب مدعية بأن قرويا لا أعرفه سلنه إلى . وعليك أنت أن تذهب بالأطفال إلى طريق الغابات الكبيرة بحيث لا تعود من نزهتك إلا وقت الغداء .

« وتستطيع أن ترى من فوق قم الصخور برج الحمام ، فإذا سارت أمورنا على ما نهوى فسأرفع منديلاً أبيض ، وإلا فلن يكون هناك شيء . -  
« هل يجد قلبك ، يا جحود ، سبيلاً إلى أن يقول لى قبل أن تذهب إلى النزهة إنه يجبى ؟ ومهما يكن فأرجو أن تشق أنى لن أعيش يوماً واحداً بعد أن نفترق فراقاً أخيراً . آه ! يالى من أمّ فاسدة ! على أن هذه الجملة الأخيرة لا قيمة لها عندى ، فلا أفكر إلا فيك يا جوليان فى هذه اللحظة ، ولم أكتبها إلا مخافة لومك وعتابك . أرى أنى سأفقدك وشيكاً ، فلم أخفى عنك الحقائق ؟ نعم ، فلتر إذا شئت أن نفسى تنطوى على وحشية فاسية ، ولكن ينبغى لى ألا أ كذب الرجل الذى أعبدته ! لقد خدعت من قبل طول حياتى الماضية . ومع كلّ فأنا أصفح عنك إذا كان حبك قد نضب معينه . ليس لدى وقت كاف لقراءة ما سطرت لك . لقد قضيت بين أحضانك أياماً سعيدة تتضاءل أمامها حياتى ؛ وأنت تعلم أن سعادة هذه الأيام ستكلفنى أكثر من حياتى . »

## الفصل الحادي والعشرون

### حوار مع سيد

[ أسفا ، إن ضعفنا هو السبب ولسنا نحن : فهكذا  
خلقنا وكما خلقنا نكون : ]  
الليلة الثانية عشرة.



أكبّ جوليان على العمل الذي كلفه ساعة كاملة يجمع الكلمات  
في لذة وشغف كأنما هو طفل . ولما غادر غرفته لقي تلاميذه وأمهم ، فأخذت  
منه الكتاب في بساطة وشجاعة حتى أخافه هدوؤها ، ثم قالت له :  
— هل جفّ الصمغ تماما ؟ .

فأخذ يسائل نفسه : أهذه هي المرأة التي كاد الندم يذهب بفضيلها ؟  
ما مشروعاتها التي تدور الآن في رأسها يا ترى ؟ ومنعته كبرياؤه أن يسألها  
عما يخامرها ، ولكن هذا لم يقلل من إعجابها بها . واستطردت صديقتها  
تقول في هدوء تام :

— لو لم تسر الأمور كما أهوى جرّدت من كل شيء ؛ فنجبى هذه  
الأمانة في الجبل ، لأنها ربما أصبحت يوماً ما هي كل ما أملكه في الحياة .  
وأعظته وعاء من زجاج في غلاف من الجلد الأحمر ، مليء ذهباً وبه  
بعض مناسات ، ثم قالت :  
— إرحل الآن .

ثم قبلت الأطفال ، وقبلت إبنتها الأصغر مرتين ، وظلّ جوليان في مكانه

لا يتحرك ، أما هي فقد غادرتة مسرعة دون أن تلقى عليه نظرة واحدة .  
كانت حياة السيدى رينال مؤلمة إلى أبعد الحدود منذ أن تسلّم  
ذلك الخطاب المجهول ؛ لم يضطرب في حياته هذا الاضطراب ، إلا يوم  
أن كاد بياررز في سنة ١٨١٦ ، ويقتضينا العدل أن نقول : إن اضطراب  
السيدى رينال من هذا الخطاب كان أشدّ من اضطرابه من رصاصة  
كادت ترديه في يوم المبارزة . لقد فحّص الخطاب من كل النواحي ثم  
جعل يسائل نفسه : أليس هذا الخط خطأ امرأة ؟ وإذا كان الأمر كذلك  
فمن تكون ؟ واستعرض جميع النساء اللاتي يعرفهن في قرير فم يهتد إلى  
الكاتبة ، فقال : هل أملى هذا الخطاب رجل ؟ ولكن من يكون هذا  
الرجل ؟ ولم يكن خطه في هذه المرة أسعد منه في المرة الأولى ؛ كان أغلب  
عارفيه من الرجال يكرهونه ويفارون منه . نهض من مقعده متثاقلاً وقد  
أعياه التعب ثم قال كعادته : على أن أشاور زوجتي في الأمر .

لكنه ضرب رأسه بيده بعد ما نهض وقال : يا إلهي ! يجب أن  
أحذرها هي خاصة ، فإنها الآن عدوي ! ثم أبكاه غضبه وغيظه .  
كان جامد المشاعر معروفاً في المقاطعة كلها بحكمة عملية . فكان  
جزاؤه العادل في محنته هذه أنه خشي رجلين من دون الناس جميعاً ، وهما  
صديقان حميان ، فقال في نفسه : ربما كان لي عشرة أصدقاء إذا استثنيت  
هذين الصديقين . وبدأ يستعرض الأصدقاء ويتحسّس ما قد يجده عند  
كل صديق من عزاء ، ولكنه سرعان ما صاح في غضب : إنهم سيسرون  
جميعاً بهذه الفضيحة المرّة سرورا لا حدّ له ! ومن حسن حظّه قد كان

يعتقد أنه محسود من جميع الناس ، وكان محققاً ؛ لأنه يملك في فريير منزلاً جميلاً ، زاده شرفاً على شرفه أن الملك قد نام فيه . وهو بعد قد أصلح قصره في فرجى إصلاحاً بديعاً ، فطلبت واجهة القصر بالأبيض ، ومصاريع النوافذ بالأخضر . وحدثت هذه الروعة من غضبه وغيبظه بضع لحظات . كان القصر في الواقع يرى على بعد ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وكان يفوق كل المنازل الريفية روعة وبهاء ، تلك المنازل التي سميت ، تجوزاً ، بالقصور المجاورة ، والتي خلع عليها مرور الأيام لوناً رمادياً وضيقاً لم تمتد إليه يد فتغيره .

وكان السيد دي رينال يؤمن بإخلاص وكيل الكنيسة الذي تنهر دموعه وتسيل نفسه شفقة ولوعة على العمدة إن خبّره بمحتته ، وهو على حقه يبكيه كل أمر ، لكنّه في نظر العمدة الرجل الوحيد الذي يعتمد عليه . عند ذلك استولى الغيظ على نفس الزوج وصاح : أية مصيبة تضارع مصيبتى ؟ يالى من بأس يعيش في عزلة تامة ! وبالغرابة موقفى ! أصدق إنسان أنتى فى محنتى لا أجد صديقاً ألتس منه المشورة وأجد عنده مخرجا مما وقعت فيه ؟ لقد ضلّ عقلى وأنا أشعر بهذا تمام الشعور ! آه يا فالكو ! آه يا دو كرو ! وردّد هذين الاسمين فى مرارة أليمة ، وهما صديقاً الطفولة : وقد حملتهما كبرياًؤه على التخلّى عنه سنة ١٨١٤ ؛ ولم يكونا كريمى

---

(١) يشير ستندال هنا إلى اثنين من معاصريه هما فالكو ، وكان صاحب مكتبة ودو كرو الذى كان يعمل أمين إحدى المكتبات . وقد تحدث عنهما المؤلف فى إعجاب كبير فى « حياة هنرى برونار » . العرب

المحدث ، ولم يرقه منهما هذا الأسلوب الذى يدلّ على المساواة والذى درجا عليه منذ الطفولة .

أمّا أحدهما وهو فالسكو فرجل حسن الطوية ذكىّ الفؤاد ، تاجر فى الورق فى قرير ثم اشترى مطبعة فى عاصمة المقاطعة ، وأصدر صحيفة . ثم عزم المجمع على إلحاق الخراب به . فهوجت جريدته واتهمت بشتى التهم ، ثم سحب منه تصريح الطبع . وفى هذه الظروف الأليمة لجأ صديقه إلى السيد دى رينال فكتب إليه عشر سنوات ، للمرة الأولى ، فبدا لعمدة قرير أن يردّ على رسالته بلهجة رومانيّ قديم فقال له : لو أن وزير الملك شرفنى واستشارنى فى الأمر لقلت له : « عليك أن تلحق الخراب بجميع أصحاب المطابع فى الريف بلا رحمة أو شفقة ، ثم احتكر الطباعة كما تحتكر التبغ » .

تذكر السيد دى رينال هذه العبارات فى اشمزاز كبير ، لقد كتبت إلى صديق حميم كانت قرير كلها تعجب به فى ذلك الوقت أيما إعجاب ، فقدم على ما فعل وقال : من ذا الذى كان يعلم أننى سأندم على ما أفعل على الرغم من مكائتى وثروتى وأوسمتى ؟ وقضى ليلته متألماً حائراً ، غاضباً على نفسه تارة وعلى كل من حوله تارة أخرى ، لكنه لحسن الحظ لم يفكر فى أن يتجسس على زوجته .

ثم قال فى نفسه : لقد اعتدت أن أحييا مع لويز وهى تعلم كل أعمالى ؛ ولو أننى كنت حراً فى أن أتزوج أخرى من غد ما وجدت من تملأ فراغها . وسائر هذا الرأى الذى بداله ، وهو أن زوجته بريئة ، ولم يكن

هذا الرأي بطبيعته يفرض عليه ضرورة إظهار الحزم وصرامة الخلق ومناقشته في جدّ؛ وكم رأينا كثيرات يُتّهمن في أعراضهن بالباطل ! .

وسرعان ما صاح بغتة وهو يسير بخطوات مضطربة من الغضب :

ولكن ما هذا ! أأصبر على الهوان كالذي لا قيمة له ولا كرامة ؟ أأصبر

على هذا العبث بي وأدعها تسخر مني هي وعاشقها ؟ أأسكت حتى يسخر

من ليني معها أهل ثريير جميعاً ؟ أأكون مصيرى مصير شارميه الزوج الذى

خانتة امرأته جهارا نهارا ؟ أليست تغلو الابتسامة جميع الشفاه حين يذكر

اسمه ؟ إنه محام بارع ، ولكن من ذا الذى يذكر عبقريته فى فنّ

الكلام ؟ آه ! شارميه ! إنهم يقولون عنه : شارميه دى يرنارد ،

ويدعونه كذلك باسم الرجل الذى يتمن شرفه .

ثم كان يقول فى لحظات أخرى : أحمد الله على أنى لم أنجب بنات ،

ولن يؤثر ما أعاقب به زوجى فى مستقبل أبنائى ؛ فى استطاعتى

أن أباغت هذا الفلاح الوضيع وهو فى خلوته معها فأقتلها معاً ، وعند ذلك

قد تغطى مرارة المأساة على سخرية الناس .

وصادف هذا الرأى هوى فى نفسه ، فدرس جميع تفاصيله ، ثم قال :

إنّ قانون الجنایات فى صالحى ، ومهما يكن فستقذنى جمعيتنا وأصدقائى

الحلقون . ونظر إلى سكينه الضيد فرآها حادة ، لكنه مالبث أن ارتاع

من منظر الدماء : وقال فى استطاعتى أن أضرب المعلم الوقح فأهشم عظامه

ثم أطرده من منزلى ، ولكن ياله من فضيحة عامة فى ثريير بل

فى المقاطعة كلها ! لقد ساهمت فى المشروع الذى كنا نرمى من ورائه

أن يفقد رئيس تحرير جريدة فالكو بعد خروجه من السجن ستمائة  
فرنك بعد أن اتهمنا جريدته فعطلت . ويقال إن هذا الكويكب جرؤ  
على الظهور ثانية في بيزانسون ، وفي استطاعته أن يفضحني بمهارة بحيث  
لا أتمكن من مقاضاته . وكيف أحاكمه ! . . . إن الخبيث سيعمد إلى  
ألف طريقة ليشير من طرف خفي إلى أنه ذكر الحقيقة . وإن رجلا كريم  
الأصل ، يحافظ على مكاتبه مثل ، لهو مكروه من السوق والعامه دائماً .  
آه يا إلهي ! والصحف الباريسية الكريهة ستتناول عرضي ؛ يا لها من هوة  
سحيقة تلك التي يتردى فيها الاسم القديم الكريم : اسم دي رينال !  
وأية سخرية وعبث سيلاقى بها ! . . لو أنني اعتزمت السفر يوماً ما لغيرت  
اسمي ؛ ولكن أتخلى عن هذا الاسم الذي يمدني بالقوة والجاه ؟ فيالتعاسي  
وشقائي ! لو أنني لم أقتل زوجي وطرقتها في مهانة وذلة لوجدت عمتهما  
في بيزانسون ولأعطتها العمة كل ثروتها فتستطيع أن تذهب لتعيش مع  
جوليان في باريس ، ثم يعلم أهل ثريبرقستها ، فأتهم بالغفلة والحماقة .  
فطن هذا الرجل البأس حين نظر إلى مصباحه ورأى شحوب نوره  
إلى أن ضوء النهار قد بدأ يظهر ، فذهب يستنشق نسيم الصباح في الحديقة  
بعد أن قرراً ألا يعالج الأمر في ضجة وجلبة ، لأن ذلك يشرح صدور  
أصدقائه المخلصين من أهل ثريبر .

وأفادته تلك النزهة وخفت عنه بعض ما كان يلقاه ، فتحدث إلى  
نفسه قائلاً : لا ، لا أريد أن أحرم نفسي من زوجتي ، إنها لجملة المنافع ،  
ثم تصور منزله يوم يخلو منها فبدا يشع المنظر ، ولم يكن له قريبات غير

المركيزة دي ر . . وهي عجوز شريرة حمقاء .

وطرأت له فكرة على جانب كبير من الصواب ، لكن تحقيقها يتطلب قوة خلق ليست لهذا الرجل المسكين ، فقال في نفسه : لو أنني أبقيت عليها ما سلم الأمر من أن ألومها على خطئها يوماً من الأيام ، وهي متكبرة معتزة بنفسها ، وعلى هذا يفسد الأمر بيننا ، وسيحدث هذا كله قبل أن ترث عمتها . كم سيسخر القوم مني ! إنها تحب أولادها ، وأنا واثق من أن ثروتها ستكون من نصيبهم . ولكن سأكون حديث أهل ثريير ؛ سيقولون إني لم أعرف كيف أنتقم منها ! ألا يحسن ألا أثير هذه الشبهات ، وأعرض عن هذه الشكوك فلا أسعى وراء التأكد من صحتها ! وعلى هذا أنفض يدي من الأمر كله ، ولن أقدر بعد ذلك على أن أوجه إليها لوماً .

ومرّت لحظةٌ عادت بعدها إلى السيد دي رينال كرامته المجروحة ، وتذكر في اهتمام ما كان يدور من حديث في صالة « البلياردو » بالمقصف الذي يعدّ ندوة الأشراف في ثريير ، تذكر أن أحد العابثين كان يقف اللعب لحظة ليرح ساخراً من زوج تخونه امرأته ؛ ولشد ما أصبحت تلك الدعايات في هذه اللحظة ثقيلة الوطأة على نفسه !

يا إلهي ! ليتها ماتت ! إذن لكنت بعيداً عما سألاقي من سخريّة وعبث . ليتني كنت أيّماً ! إذن لفضيت ستة شهور في أحسن مجتمعات باريس . وبعد هذه اللحظة التي فيها أسبغت عليه فكرة الترميل بعض السعادة ، عاد به خياله إلى الطرق التي يستطيع بها معرفة الحقيقة . أضع



في منتصف الليل بعد أن ينام من في المنزل طبقة رقيقة من النخالة أمام باب جوليان . وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي يذهب ليرى آثار الأقدام ؟ لكنه سرعان ما صاح غاضباً : هذه الطريقة لا تجدى . ستعرف الأمر إليزا اللئيمة ، وما أسرع ما يذاع في المنزل أنى غيور . ثم تذكر طريقة أخرى سمعها في المقصف ، وهي أن زوجا تحقق من خيانة امرأته بأن ألصق شعرة بباب غرفتها وشعرة أخرى بباب غرفة حبيبها . وظل القلق يساوره ساعات حتى اقتنع بأن الطريقة الأخيرة خير الطرق وأجداها ، وعزم على أن يلجأ إليها ، لكنه التقى فجأة في إحدى طرقات الحديقة بالمرأة التي كان يتمنى أن تموت .

كانت عائدة من فرجى حيث ذهبت لتستمع إلى القداس في كنيستها . وقد تناقل الناس طويلاً أن هذه الكنيسة الصغيرة التي يصلون فيها الآن كانت مصلّى لقصر سيد فرجى في يوم من الأيام . وهذه فكرة آمنوا بها ، وإن كانت رأياً لا يقتنع به مفكر متحرر . واستولى على مدام دى رينال خاطر صاحبها . طوال صلاتها في الكنيسة وهو أن زوجها لا بد قاتل جوليان في الصيد ، ثم يدعى أنه أصابه خطأ ، ثم يطعمها من قلبه عندما يحل المساء . ظنت هذا فقالت في نفسها : إن مصيرى يتوقف على ما يفكر فيه وهو يصغى إلى ، وبعد ربع الساعة المنكود قد لا أجد سيلاً إلى أن أحدث معه . إنه ليس عاقلاً تتغلب عليه الحكمة ، وفي استطاعتي أن أعرف ما سيعمله أو ما سيقوله بعقله الصغير . إنه وحده هو الذى يقرر مصيرنا ، وهو قادر على تقرير المصير ؛ لكن نهايتى تتوقف

على مهارتى ، وعلى مقدار الفن فى توجيه هذا المخلوق الغريب الذى أعماه  
الغضب فعاد لا يرى إلا أنصاف ما يرى . يا إلهى ! أنا فى حاجة إلى البراعة  
والهدوء ، فمن لى بهما ؟ .

لكنها لم تكذب تدخل الحديقة وترى زوجها من بعيد حتى شمها  
الهدوء كأنما أتاها بفعل ساحر . كان مشعث الشعر غير مرتب الهندام ،  
تدل هيئته على أنه لم ينام . وقدمت إليه خطابا مفتوحا لكنه مطوى ، فنظر  
إليها كالجنون ولم يفتح الخطاب . فقالت له :

— فحشاً وعاراً ، لقينى رجل قبيح يدعى أنه يعرفك ، وأنه مدين  
لك بالفضل ، ثم أعطانى هذا الخطاب وأنا سائرة خلف حديقة المسجل .  
إنى أريد منك شيئاً واحداً وألح فيه ، وهو أن تبعث بهذا السيد جوليان  
إلى أهله فى الحال .

قالت له هذا كله بسرعة ، وربما كان من الخير ألا تواجهه بما قالت  
إلا بعد لحظات ، لكنها أرادت أن تتخلص من هذا العبء الثقيل بأن  
تنفى إليه بما قالت .

وسرى الفرح فى نفسها حين رأت ما أحدثته لزوجها من هدوء  
وأدركت أن جوليان كان على صواب فيما ذهب إليه حين أخذ العمدة  
ينظر إليها نظرات ثابتة ، فحدثت نفسها قائلة : يا له من عبقرى ! ويا له  
من شاب وهب ذوقاً سليماً ! إنه لم يجزع من هذا البلاء العظيم ، ولو أنه  
لا يزال شاباً لا دراية له بالحياة ! إنه جدير بأن يصل إلى أعلى المراتب ،  
ولم لا ؟ ولكن وأسفاه ! سيجعله النجاح على أن ينسانى .

وأنساها إعجابها بمعبودها إضطرابها وقلقها ، وارتاحت نفسها إلى مسلكها ، وأخذت تقول في لذة ونشوة : أنا حقاً جديرة بجوليان .  
لزم العمدة الصمت لثلاثين يوماً في شيء وأخذ يفحص الخطاب الثاني الذي جمع من كلمات مطبوعة ألصقت على ورقة تضرب إلى الزرقة كما يذكر القارئ ، ثم تحدث إلى نفسه قائلاً وقد أعياه التعب : إنهم يسخرون مني على أي حال . هذه إهانات جديدة يجب أن أفحصها ، وكل ذلك من أجل امرأتى ! وكاد يوجه إليها أقذع الشتائم ، لكن الميراث المنتظر الذي سيأتي من بيزانسون أسكته على كره . كان يريد أن يطفى غيظه في أي شيء ففرك ورقة الخطاب الثاني براحة يده ، وأخذ يسير في الحديقة مسرعاً لأنه كان في حاجة إلى أن يتعد عنها . ومرت لحظات قليلة عاد إليها بعدها ، وهو أكثر هدوءاً من قبل .

ورأته زوجه فقالت له :

يجب أن تبت في الأمر وأن تطرد جوليان ! إنه ابن عامل لا أكثر ولا أقل ، وستعوضه عن فقد منصبه بالقليل من المال ، على أنه سرعان ما يجد منصباً آخر نظراً لعلمه الغزير ؛ وربما التحق بالعمل عند السيد قالنو أو نائب الحاكم دي موجيرون ، وكلاهما له أولاد . وعلى هذا فلن يلحقه منك ضرر كبير . . .

فصاح زوجها في صوت مخيف :

— إنك تتحدثين كالبهائم . وهل نبتغي عند امرأة سلامة تفكير ؟ أنت لا تأبهين أبداً بما فيه الجد والحزم ، فكيف تظنين أنك على شيء

من العلم؟ إن فتورك وكسلك لا يبعثان فيك نشاطاً إلا حين تصيدن الفراش. أنت من المخلوقات الضعيفة، ومن البؤس أن تكون مثيلتك في أسرتنا! . . .

فتركته يتكلم، وتكلم كثيراً لينفّس عن غضبه كما يقال في هذا الإقليم. وأخيراً قالت له :

— أنا أتحدث إليك يا سيدي كامرأة أسيء إليها في عرضها، وشرف المرأة أعلى ما تملك .

وصاحبها أثناء هذا النقاش الأليم، الذي يتوقف عليه مصيرها ومصير حبيبها، هدوء شديد، وكانت حريصة أشد الحرص على أن تعيش معه يظللها سقف هذا المنزل. فجرت في حديثها وراء كل رأى يبعث في نفس زوجها الغضب الأعمى، وأما شتائمها المقذعة فكانت لا تسمعها لأنها كانت تفكر في جوليان، وتساؤل نفسها: هل سيسر مني؟ ثم خاطبت زوجها قائلة :

— هذا الفلاح الصغير الذي بسطنا عليه من رعايتنا ونعمتنا، وأحفناه بهدايانا الكثيرة. قد يكون بريئاً، ولكنه على كل حال سبب في أن وجهت إلى أولى الأهانات. . . . إنني حين قرأت هذه الورقة المهينة عزمت يا سيدي على أحد شيئين، فإما أن يغادر المنزل، وإما أن أغادره أنا .

— هل تريدان أن تجرّي على وعلى نفسك الفضيحة والعار؟ أنت بذلك تتيحين لكثير من أهل قريز فرصة أن يسخروا منا .

— حقاً إنهم جميعاً يحسدونك على رخائك ونعمتك، وما ذلك إلا لإدارتك الحكيمة التي جعلتك أنت وبيتك والمدينة بأسرها في خير . . . وعلى هذا فسأوحى إلى جوليان أن يطلب منك إجازة شهر يقضيه في الجبل عند صديقه تاجر الأخشاب ، ذلك الصاحب الجدير بصداقة هذا العامل الوضيع .

فأجابها السيد دى رينال في هدوء :

— احذرى أن تفعلى هذا ! وأنا أطلب منك قبل كل شيء ألا تتحدثنى إليه فى أى أمر ، فإنك إن كلمته غضب وفسدت العلاقة بينى وبينه ، وأنت تعلمين أن كثيراً من الناس يتطلعون إلى هذا السيد الناشئ .

— هذا الشاب لم يوهب من سلامة الذوق شيئاً أبداً ، قد يكون عزيز العلم ، وأنت وحدك من يستطيع الحكم عليه فى هذا ، لكنه فى الواقع فلاح غير مصقول ، وقد غيرت رأى فيه منذ رفض الزواج بأليزا ، وقد كان أمامه ثروة مؤكدة فاعتذر متعللاً بأنها تزور السيد فالتو خفية بين حين وحين فسألها وقد علا حاجباه علواً شديداً :

— آه ! ماذا تقولين ؟ هل أخبرك جوليان بهذا ؟

— لا ، لم يقل هذا فى صراحة ، بل كان يتحدث إلى دأما عن رغبته فى اللحاق بالكنيسة ، ولكنى أوكد لك أن أول ما يشغل مثله من الشبان هو أن يحصلوا على القوت ، وقد لمح لى كثيراً بأنه لا يجهد أمر هذه الزيارات السرية .

فغضب مرة أخرى وصاح يقول وهو يتدبر ما ينطق به :

— وأنا ! أنا ! أجهل هذا الذى يرتكب فى منزلى ؟ إن هذا الأمر  
عجاب !... أهنأك علاقة بين إليزا وقالنو ؟  
فضحكت قائلة :

— هى قصة قديمة يا صديقى العزيز ! ومن يدرى ؟ لعلمها لم يرتكبا  
فاحشة قط . كان ذلك يجرى أيام كان صديقك العزيز السيد قالنو مرتاحا  
حين كان أهل فرير يعتقدون أن بينى وبينه حبا طاهرا ناشئا .  
فصاح العمدة وضرب رأسه فى غضب كمن ينتقل من اكتشاف  
إلى اكتشاف ، ثم قال لزوجه :

— لقد عنّت لى من قبل هذه الفكرة ، ولكن لم لم تخبرينى بذلك ؟  
— لم أشأ أن أفسد صداقة رجلين لغرور سيطر على نفس مديرنا العزيز .  
وهل هناك فى المجتمع سيدة واحدة لم يرسل إليها قالنو بضعة خطابات رقيقة  
طريفة لا تخلو من الغزل ؟

— وهلى كتب إليك ؟

— كثيرا ما كتب .

— أريد أن أراها فى الحال ، وأمرك بهذا .

وبدت قامته وكأنها قد طالت ست أقدام .

فأجابته فى لطف قد يكون فتورا وعدم مبالاة :

— لن أفعل ، بل ستراها يوما حين تصبح أكثر هدوءا .

فصاح وقد أمّله الغضب ، ولكنه أحسّ بسعادة كانت فارقتة منذ

الثلثى عشرة ساعة :

— لا . بل أريدها في الحال !

فأجابته في رزانة وتؤدة :

— أنت قسم لي بأنك لن تتشاجر مع المدير يوما من جراء هذه الخطابات ؟

— سواء أشاجرت أم لم أشاجر فإن في استطاعتي أن انتزع منه

اللقطاء ، ثم استطرد في غضب شديد :

أريد هذه الخطابات حالا ، فأين هي ؟

— في أحد أدراج مكنتي ، ولكن ثق أنني لن أعطيك المفتاح .

فجري إلى غرفتها وهو يصيح قائلا :

أنا أعرف كيف أكرسه .

ولم يتردد في تحطيم المكتب الفخم الذي صنع في باريس من خشب

شجر الكابلي ، واستعان على كسره بوند من الحديد ، مع أنه كان يعتز

به من قبل ويحافظ عليه حتى كان ينظفه بديل ثوبه إذا توهم أن هناك

ما يعلق به .

صعدت مدام دي رينال مائة وعشرين درجة في سرعة كبيرة حتى

إذا ما وصلت إلى برج الحمام ، ربطت منديلا أبيض في قضيب حديدي

من قضبان النافذة الصغيرة . وكانت في تلك اللحظة تشعر بأنها أسعد النساء .

ثم نظرت إلى الغابات الكبيرة التي تجاور الجبل ، ودموع الفرح تترقق في

عينها ، وحدثت نفسها قائلة : لا ريب أن جوليان يترب هذه العلامة

السعيدة واقفا تحت شجرة باسقة من أشجار الزان ، ثم سمعت وقتا

طويلا فلم يصل إلى مسامعها إلا الضجة المملة ، ضجة تغريد الطيور .

ولولا هذه الجلبة الملعونة لوصلت إلى مسامعها صرخة فرح انبعثت من بين هذه الصخور الكبيرة . كانت عينها المتلهفة تلتهم هذا المنحدر الشاسع الأخضر القاتم ، الذي تلاقت فيه ذوائب الأشجار واجتمعت ؛ فبدأ للعين كأنه مرج . ولما أيقنت أنها لن تسمع صوتا ولن ترى شيئا ساءلت نفسها في حنان بالغ :

لم لم يعل عليه ذكاؤه أن يعمد إلى إشارة تخبرني بأن سعاده تضارع سعادي ؟ ولم تغادر برج الحمام إلا بعد أن خشيت أن يصعد إليها زوجها باحثا عنها .

ثم عادت فوجدته مغيفا . كان يتصفح الجمل التافهة التي كتبها السيد فالنو والتي لم تقرأ من قبل بمثل ما تقرأ به الآن من جزع واضطراب . وانهزت فرصة رأتها ملائمة لتسمع زوجها صوتها فقالت :

— لازلتمتمسكة برأبي ، إنه من الخير أن يقوم جوليان برحلة ، ومهما يكن علمه باللغة اللاتينية وتعمقه فيها ، فهو قبل كل شيء فلاح غليظ سيء المعاملة ، وإن كان حريصا على أن يظهر لي أدبه دائما بما يوجه إلي من نداء مبالغ فيه بعيد عن الذوق السليم ، أظنه قد حفظه من إحدى القصص ... — إنه لا يقرأ قصصا أبداً وقد تأكدت من ذلك . أعتقدين أنني رب بيت أعنى لا يعرف ماذا يدور في منزله ؟

— حسنا ! هب أنه لم يحفظ هذا الثناء من بعض القصص وأنه أنشأه . فأنا كذلك لا أبالي به ، ولكني أخشى أن يتحدث عني بهذه اللهجة في قرير . . . . ثم استطردت كأنها وفقت إلى كشف جديد :



ولم تذهب بعيدا؟ هبه تحدث بهذا الأسلوب أمام إلزا ألا يكون بذلك كأنه قد تحدث إلى السيد فأنو تقريبا؟

فأهوى السيد دى رينال على المنضدة بضربة قوية غنيمة دوت بها أرجاء الشقة، وصاح قائلا:

— آه! هذا الخطاب المجهول المطبوع وخطابات فأنو كلها مكتوبة على ورق من نوع واحد:

فتحدثت إلى نفسها قائلة: وأخيرا! ...

وتصنعت الحزن لما اهتدى إليه زوجها، ولم يعد في مقدورها أن تضيف جديدا إلى ما قالت، فذهبت لتجلس على أريكة في أقصى الصالون. وهكذا بدأت تريح المعركة، وبقي عليها أن تمنع زوجها من أن يتحدث إلى الكاتب المزعوم الذي بعث الخطاب المجهول، فقالت له:

— ألا تعلم أن الخلاف مع السيد فأنو على أمر لم تتحقق بعد منه، لأنه تعوزه البراهين القاطعة، عمل لا يخلو من حماقة؟

أنت محسود ياسيدى، فمن المسئول عن هذا الحسد؟ أهى مواهبك؟ إن الإدارة الرشيدة التى تصرف بها الأمور، ومنازلك التى تدل على النوق السليم، والمال الذى حملته بائنة لك، ثم الميراث الكبير الذى نأمل أن يثول إلينا من عمى الطيبة، والذى قد بالغ فيه أهل قرير كثيرا، كل أولئك خلقت منك أهم شخصية فى قرير كلها.

فابتسم قليلا ثم قال:

— عليك ألا تنسى محتدى الكريم.

فأجابته مسرعة :

-- أنت من أكرم رجال المقاطعة كلها ! ولو أن الأمر بيد الملك وحده وأراد أن ينصف رعاياه من ذوى الحسب الفاضل ، لكنت عضواً في المجلس الأعلى ما في ذلك من ريب ... فهل تريد وأنت جدير بهذا المنصب الرفيع أن تتمكن أعدائك الحاسدين من سلاح بحار بونك به ؟ لو تحدثت إلى السيد قائلو عن هذا الخطاب المجهول لأذيع الحديث في قرير . استغفر الله ، بل في بيزانسون وفي الإقليم كله ، ولقيل : إن هذا البرجوازي الوضيع الذي عاشر دى رينال — وما كان ينبغي لنا أن نصطفيه — قد وجد سبيلاً إلى الإساءة إليه . على أنك إن وجدت في الخطابات التي بين يديك ما يدلّ على أني أحببت قائلو إلى ما يبتغي أو جاريته في هواه ، وجب عليك أن تقتلني شر قتلة ، فأنا في هذه الحالة أستحق هذا المصير ، ولكنني أرجوك ألا تظهر له غضبك من هذه الخطابات ، وفكر دائماً في أن جيرانك جميعاً ينتظرون في لهفة ما يساعدهم على أن يثاروا منك لتفوقك عليهم ؛ ولا تنس أنك ساهمت سنة ١٨١٦ في القبض على بعض أشخاص . إن هذا الرجل الذي كان قد اختبأ فوق سطح منزله ...

فصاح السيد دى رينال صيحة تدلّ على أسف شديد ، أثارته هذه الذكري ، وقال .

— يخيّل إليّ أن نفسك لا تكن لي صداقة ولا تبجيلاً ، ومع ذلك لم أعين عضواً في المجلس الأعلى ! ... فابتسمت قائلة :

— ويخيل إلى يا صديقي أنني سأكون أكثر منك مالا ، وأنا قرينتك منذ اثني عشر عاما ، وعلى هذا فن حق أن أدلى إليك برأيي وعلى الأخص في موضوع اليوم . ثم استطردت تقول في غيظ لم تحسن أن تظهره : إذا كنت تفضل على السيد چوليان هذا ، فأنا مستعدة أن أقضى عند عمي فصل الشتاء .

وكانت جملتها الأخيرة موقفة جدا أصابت بها الهدف . كانت لهجتها كلها حزم يشوبه الأدب ، فجاءت السيد دي رينال على أن بيت في الأمر على ما تهوى ؛ وإن تحدث إليها وقتا طويلا كعادة أهل الريف ، وتناول من جديد كل الحجج والبراهين بالبحث وتركت هي زوجها يتحدث ويتحدث وكلامه لا يزال مشوبا بالغضب ؛ فظل ساعتين يثرثر بما لا طائل تحته حتى نفذت قوى هذا الرجل الذي ظل ليلة كاملة وهو فريسة لغضب شديد . وأخيراً رسم لنفسه الخطة إزاء السيد فالنو وچوليان وإيزا كذلك .

كادت مدام دي رينال تحس في نفسها ميلان نحو هذا الرجل الذي ظل صديقها اثنتي عشرة سنة ، حين كان تحت سلطان الألم أثناء هذا النقاش الحاد . كادت عواطفها تميل إليه مرة أو مرتين ، ولكن الحب الحقيقي لا تفارقه الأنانية ، فقد توقعت في كل لحظة تمر أن يفضي إليها زوجها بنجر الخطاب المجهول الذي تسلمه بالأمس ، لكنه أمسك عن الكلام ، ولم تتمكن هي على الرغم من ثباتها أن تعرف ما أثاره الخطاب في نفسه ، وهو الذي يملك البت في مصيرها ؛ لأن الأزواج في الأرياف لهم الكلمة العليا دائما على زوجاتهم ، والزوج الذي يشكو من أسرته لا يعنى من العيب

والاستهزاء ، على أن هذا يعدّ في فرنسا دائماً أمراً غير ذى بال . ولكن امرأته إذا لم يعطها مالا أصبح مثلها مثل العاملة التي تتناول خمسة وسبعين سنتيما يوميا ، ومع ذلك فالنفوس الكريمة تتخرج من أن تسند إليها عملا .

إن الجارية في قصر من قصور السلاطين تستطيع أن تحبّ مولاها حبا قويا ، وهو قوى جبار لا تتمكن من أن تنزع منه سلطانه مهما يكن دهاؤها ومكرها ، وانتقام السيد شديد تسيل فيه الدماء ، لكنه انتقام عسكري كريم : وطعنة من خنجر تقضى على كل شيء . والرجل الذي يقتل زوجه في القرن التاسع عشر يحترقه الناس وتقفل في وجهه الصالونات .

استولى على مدام دي رينال شعورها بالخطر ، ولما عادت إلى غرفتها آلمها ما رأت فيها من الفوضى . فقد كسرت أقفال الخزائن الجميلة الصغيرة ، وانتزع خشب بعض أرض الغرفة ، فحدثت نفسها قائلة : لقد كان قاسيا على كل القسوة ! وهكذا أفسد الأخشاب الجميلة الملونة التي يجبها إلى حد أنه كان يفضب إذا دخل أحد أبناءه الغرفة ووطيء أرضها بجذائه اللبل ، ها هو ذا قد أتلّفها ولم يعد هناك أمل في إصلاحها ! وحينما وقع بصرها على آثار القسوة والعنف زال من نفسها بعض لوم كان خامرها لا تنتصارها السريع . ثم عاد جوليان مع الأطفال قبل أن يذق جرس الغداء بقليل ، وأخذوا يطعمون الحلوى يعد أن خرج الخدم من غرفة الطعام . فقالت له مدام دي رينال في جفوة وغلظة :

— كنت أظهرت لى رغبتك في أن تقضى في فريير خمسة عشر يوما ، لذلك قد تفضل السيد دي رينال ومنحك عطلة ... تستطيع إذن أن ترحل

في أى وقت تشاء ، ولكيلا يضيع وقت الأطفال عبثا ، فسنرسل إليك يوميا ما يترجمونه إلى اللاتينية لتصحيحه .

وقال السيد دى رينال كذلك في لهجة جافة :

— هذا صحيح ، ولن أسمح لك فيما بعد إلا بأسبوع واحد .

وقرأ جوليان في وجهه قلقا شديدا دلّ على ما لاقاه من عذاب ، فقال

لصاحبتة في لحظة عزلة أتاحت لهما وهما في الطريق إلى الصالون :

— إنه لا يزال في حيرة من أمره .

فقصت عليه مسرعة ما فعلت معه منذ الصباح . ثم ضحكت قائلة :

— سأقصّ عليك الليلة كل التفاصيل .

فقال في نفسه : يا لفساد النساء ! أى غريزة وأى لذة تدفعناهن إلى

خيانة الرجال !

ثم قال لها في شيء من الفتور :

— أرى أن الحب قد هداك وها هو ذا يضلّك من جديد ؛ لقد كنت

اليوم رائعة المسلك ، ولكن الأترين معى أن من الخير ألا نلتقى في هذا

المساء ؛ لأن المنزل غاصّ بالأعداء ؛ ولا تنسى تلك الكراهية الشديدة التي

تضمورها لى إليزا .

— بغضاؤها شديدة كرهذك في لقاءى تماما .

— إن صحّ هذا وكنت زاهدا في نقائك ، فواجبى أن أنقذك من

خطر عرضتك له . لو تحدث السيد دى رينال إلى إليزا فقصت عليه أمرنا ،

أفلمست تعتقدين أنه أهل لأن يختفى على مقربة من غرفتى مدججا بالسلاح؟ ...

فأجابته بكل ما فطر عليه الأشراف من كبرياء :

— ما هذا ! أليس في قلبك شيء من الشجاعة ؟

فقال في فتور :

— لا أريد أن أحط من قدرى حين أتحدث عن شجاعتى ، فحديث

المرء عن شجاعته يزرى بنفسه . ليحكم الناس بالأفعال . ثم أمسك يدها وقال :

— ولكن ألا ترين مقدار تعلقى بك ؟ ألا تقدرين ما يملكنى من

نشوة وسرور حين أتمكن من لقاءك قبل هذا الفراق الأليم ؟

-----

## الفصل الثاني والعشرون

### ضروب من التصرفات في عام ١٨٢٠

[ ما وهب الناس الكلام إلا ليخفوا رأيهم . ]  
ر . ب . مالا جريدا .



ما وصل جوليان إلى ثريير حتى أخذ يلوم نفسه التي قست على مدام دي رينال : لو أنها أخفقت في مساعها وانتصر زوجها لاحقرتها وعددتها بامرأة خاملة ضعيفة الحيلة ، لكنها خرجت من الأزمة منتصرة كما ينتصر السياسي ، وإن كنت أعطف على هذا الرجل المغلوب مع أنه عدوى . في عملي هذا وضاعة برجوازية . لقد جرح كبريائي أن السيد دي رينال رجل أي رجل ! ينتمى إلى الطائفة الكبيرة المجيدة التي أشرف بالاتصال بها ، إنني لأحق .

رفض الأب شيلان المساكن التي عرضها عليه كبار الأحرار في الإقليم حينما جرت عليه فصله من منصبه طرده من دار الخوري . واستأجر غرفتين ازدحمتا بكتبه . فأراد جوليان أن يقف أهل ثريير جميعا على قيمة القسيس ، فذهب إلى أبيه ومعه اثنا عشر لوحا من خشب الصنوبر ، حملها بنفسه على ظهره سائرا بها في الشارع الرئيسي ، واستعار من أحد أصدقائه القدماء أدوات صنع بها مكتبة وضعت فيها كتب الأب شيلان .

فرح الشيخ فرحا شديدا حتى بكى وقال له :

— كنت أعتقد أن الحياة أفسدتك باللهو والغرور ، ولكن عمك

هذا أنساني عبثك الصبياني يوم لبست الحلة الفاخرة مع حرس الشرف ،  
وقد خلق لك عملك هذا أعداء كثيرين .

كان السيد دي رينال قد أمر جوليان قبل رحيله أن يقيم في منزله أثناء  
وجوده في قرير . ولهذا لم يفتن أحد إلى ما حدث ، وفي اليوم الثالث  
لوصوله صعد إلى غرفته رجل خطير الشأن ليلقاه وهو السيد دي موجيرون  
نائب الحاكم . وتحدث معه ساعتين كاملتين بحديث تافه تنازل الشكوى  
المرّة من شرور الرجال وعدم أمانة الذين يؤتمنون على الأموال العامة ،  
والأخطار المحدقة بفرنسا البائسة ، وما إلى ذلك . . . . . وبعد هذا الحديث  
الممل الطويل ، بدأ جوليان يدرك سرّ الزيارة . وكان وزائره قد وصلا إلى  
درج السلم حيث أخذ المعلم المسكين الذي يكاد يكون مغضوبا عليه يودّع  
الحاكم المنتظر لأحدى المقاطعات السعيدة في تجلّة وإكبار ، فبدأ للحاكم  
أن يتفضل بالاهتمام بأمر جوليان ، وأخذ يثنى على زهده في المال . . . .  
وأخيرا احتضنه السيد دي موجيرون في حنان الآباء واقترح عليه أن يغادر  
السيد دي رينال ليشرف على تربية أبناء أحد الموظفين ، وهو موظف  
كالملك فيليب تماما في أنه سيشكر الله كثيرا لأنه منّ عليه بالأبناء فحسب ،  
بل لأنهم ولدوا قريبا من مقام السيد جوليان . والمعلم الذي سيعهد إليه  
بتربية هؤلاء الأولاد وتثقيفهم يمنح ثمانمائة فرنك مقدّما لكل ثلاثة أشهر ،  
لأن الدفع الشهري لا يتفق مع الكرامة والشرف .

وأخيرا جاء دور جوليان في الكلام ، بعد أن ظلّ ساعة ونصف  
ساعة يترقبه في سأم وملال ، وكانت إجابته بارعة طويلة كأنها منشور ؛ لمح



فيها لمحدثه بكل شيء لكنه لم يصرح بشيء ؛ وحفل حديثه بالاحترام الكامل للسيد دي رينال وياجلاله لأهل قرير وبعترافه بمجمل نائب الحاكم الجليل الخطير .

فذهل السيد دي موجيرون حين رأى جوليان أكثر منه دهاء ، وحاول عبثاً أن يسمع منه رأياً قاطعاً صريحاً . وإن انتهز جوليان فرصة رغبة محدثه فأعاد من جديد ما قاله أولاً مغيراً أساليب حديثه الأول . ولو أن وزيراً ذكياً الفؤاد واسع الخيلة أراد أن يقضى على مناقشة تمسك مجلس النواب أن يثيرها ، ما قال أكثر مما قاله جوليان . ثم غادر السيد دي موجيرون المنزل ، فأغرق جوليان في ضحك شديد . انتهز فرصة توعد قريبته فكتب خطاباً في تسع صفحات إلى السيد دي رينال يخبره بكل ما حدث ويرجوه أن يتفضل بإدلاء النصيح إليه . ثم أخذ يقول : لم يخبرني هذا الخبيث باسم من يعرض على هذا العرض السخى ! ربما كان السيد قائلو بعد أن رأى أن خطابه إلى العمدة قد أثمر ثمرته فنضيت هنا في قرير . وشمله سرور وفرح بعد أن أرسل إلى العمدة خطابه هذا كأنه صياد قد بكر إلى سهل كثير الصيد في يوم جميل من أيام الخريف ؛ ثم غادر للمنزل ليستطلع رأى الأب شيلان . وكأنما أرادت السماء له ألا يسرف في فرحه . فذكرته بالسيد قائلو قبل أن يصل إلى منزل الخوري الطيب ، ثم لم يخف على الأب أن قلبه نهب الوسواس والهموم ، لأن شاباً مسكيناً مثله ، صرفته الحياة الدنيا أو كادت ، عن أن يستجيب إلى دعوة الله التي ملكت عليه نفسه ولتبه ، يجب أن يتعلم لكي يكون هادى الناس .

يرشدهم إلى الصراط للمستقيم ، ينبغي أن يأخذ قسطاً وفيراً من العلم حتى لا يكون أقل من زملائه العلماء الأفاضل؛ إذن فليلتحق بالمدرسة الاكليريكية ببيزانسون ليقضى عامين قد يرهقانه في النفقات ؛ لذا يجب أن يقتصد بعض المال ، وقد يتيسر له ذلك لو أن مرتبه ثمانمائة فرنك يدفع كل ثلاثة شهوراً أكثر مما يتيسر لو كان ستمائة فرنك يدفع مشاهرة ولا يبقى منه شيء آخر الشهر . على أن القادير قد ساقته إلى أبناء السيد دي رينال وغرس الله في قلبه حباً لتلاميذه ، أليس ذلك ذليلاً على دفعه إلى البقاء معهم وعدم الإقبال على غيرهم من أبناء الأسر الأخرى ؟ . . .

كان جوليان يجيد فن الكلام ، واتصف بالبلاغة التي حلت محل سرعة العمل في زمن الامبراطورية ، لكنه كاد يمل فصاحته ويكره وقع كلامه في أذنيه .

وعاد إلى المنزل فوجد أحد أتباع السيد قالنو بملابسه الجميلة يحمل إليه رقعة يدعوها فيها سيده للغداء في نفس اليوم ، وأخبره الخادم أنه بحث عنه في كل مكان بالمدينة ليلبغته دعوة مولاه . لم يكن جوليان قد دخل منزل قالنو من قبل ، وكان يفكر قبل ذلك بأيام في طريقة تتيح له أن يضربه بالعصا عدة ضربات ، بحيث لا يقع في يد الشرطة . وقد أخبره الخادم أن الغداء في الساعة الواحدة ، لكنّ جوليان رأى أن من الاحترام أن يذهب إلى مكتب السيد مدير الخازن قبل الميعاد بنصف ساعة . ودخل عليه فرآه معترًا بمكانته بين ملفات من الورق المقوى ، فلم يأبه جوليان بشعر عارضيه الأسود ، ولا بشعر رأسه الغزير ، ولا بقبعته اليونانية التي لبسها

منحرفة في أعلى رأسه ، ولا بغليونه الضخم ولا بياوجه المزركش ، ولا بتلك السلسلة الذهبية الغليظة التي تزين صدره من أعلاه إلى أسفله ومن يمينه إلى شماله ، ولا بكل تلك الأدوات التي يفتنيها صياقة الريف ، ولم يصرفه ذلك كله عن رغبته الملحة في أن يهوى عليه بعضا غليظة كما فكر من قبل .

ثم طلب جوليان إلى السيد قالنو أن يكرمه بتقديمه إلى مدام قالنو ، فأخبر بأنها لا تستطيع الآن مقابلة أحد لأنها مشغولة بزيتها . إلا أنه شهد السيد المدير وهو يرتدى ثيابه ، ثم ذهبوا معا إلى مدام قالنو ، التي قدمت إليه أولادها والدموع تترقرق في عينيها . وكانت هذه السيدة التي تعدت من فضليات نساء فرير ، ذات وجه ضخم كوجوه الرجال ، صبغ بالأحمر استعدادا لهذا الحفل الكبير . وقد أظهرت أثناء الحفل ما جبلت عليه من شغشقة ، تبالغ فيها الأمهات وتفتننها .

ورآها جوليان فتذكر مدام دي رينال ، ولكن حال جرحه وحذره بينه وبين ذكر ياتها اللذيذة التي أثارته في نفسه رؤية الضد ، ثم أخذ يفكر فيها في لذة وهيام . وزاد الفرق بين الأسترتين عظاما حين رأى منزل مدير المحازن بدعوة من صاحبه . كل شيء وقع عليه بصره جديد ، وأخبر بثمن كل قطعة من الأثاث . لكن موقع ذلك في نفسه كان غير مرجح فكأنه اشم فيه رائحة المال المسروق وأوحى إليه كل مافي المنزل أن يحتقر جميع من يرى حتى الخدم .

ثم حضر إلى المنزل محصل الضرائب ، والموظف المختص بفرض

ضرائب غير مباشرة ، وضابط الشرطة ، وموظفان أو ثلاثة من الموظفين العموميين ومعهم نساؤهم . ثم جاء بعض الأحرار الأغنياء ، وانتقلوا جميعاً لتناول الطعام . وكان جوليان ضيق النفس بما يرى ، يحسّ أنّ في الناحية الأخرى من غرفة الطعام سجناء بأئسين ربما اقتطع من قوتهم ما اشترى به هذا الأثاث الغالي الذي يدل على مزاج سقيم وذوق معتل ، وإن عرضه على جوليان ليهرؤه . ثم قال في نفسه : ربما كانوا الآن جاعين . فانقبض حلقه ، وأصبح من العسير عليه أن يأكل ، بل من العسير عليه أن يتحدث . وازدادت حاله سوءاً بعد ذلك بربع ساعة ، لأنهم سمعوا من بعيد كلمات أغنية عامية فاحشة يترنّم بها أحد السجناء ، فنظر السيد قائلو إلى رجل من رجاله يلبس ملابسه الرسمية ، فسرعان ما اختفى وسرعان ما سكت السجن . كان أحد الخدم في هذه اللحظة يصبّ لجوليان نبيذ الرين في كوب أخضر ، وحرصت ربة الدار على أن تخبر جوليان بأن ثمن زجاجة هذا النبيذ تسعة فرنكات في مكان تعبئتها . فأمسك جوليان بكأسه قائلاً للسيد قائلو :

— لم نعد نسمع الآن تلك الأغنية الفاحشة التي ترددت منذ لحظة .

فأجابه المدير في نشوة المنتصر :

— يا إلهي ! هذا ما يجب أن يكون ، لقد أمرت بإسكات هؤلاء الصعاليك . ووقعت هذه الكلمات على نفس جوليان موقعاً شديداً ، لأنه وإن قبس من هؤلاء السادة عاداتهم فإنه لم يوهب قلوبهم أبداً فسالت دمة كبيرة على خده حزناً وأسفاً ، وإن كان من الذين يجيدون النفاق .

وحاول أن يخفيها بكتوبه الأخضر، لكنه لم يتمكن بعد من أن يذوق النبيذ. قال لنفسه: لقد منعه أن يغني! يا إلهي! وكيف أحتمله؟ ولم يلاحظ - لحسن حظه - أحد من الحاضرين حزنه الذي قد يؤاخذ عليه. وبدأ يحصل الضرائب يغني أغنية ملكية ردّد المدعوون بعض مقاطعها في جلبة، على حين كان جوليان يستمع إلى صوت ضميره: هذا هو الغنى الملوّث الذي تطمح إليه، ولن تصل إليه إلا بمثل هذه الوسائل، وبين أمثال هؤلاء الأصدقاء! قد تصل إلى منصب يدر عليك عشرين ألفاً من الفرنكات، ولكن عليك أن تمنع هذا السجين البائس من الغناء وأنت تزدرد اللحوم! واأسفاه عليك يا نابليون! لقد كان الناس ينالون الثراء في عصرك بعد أن يواجهوا أخطار المعارك، أما الآن فإننا نزيد بؤس البائسين في جبن ورعونة!

ولكن دعني أعترف بأن الشفقة التي أبداها جوليان في حديثه هذا، قد صورته لى صورة غير كريمة، لأنه لا يعدو أن يكون زميل هؤلاء المتأمرين من ذوى القفزات الصفراء، الذين يزعمون أنهم يريدون قلب أوضاع الحياة، وهم مع ذلك يخفون أيديهم خشية أن تصيبها خدوش لا تضير.

طُلب من جوليان بغثة أن يقوم بدوره؛ لأنه لم يدع إلى الطعام مع هذه الطبقة الراقية ليلزم الصمت أو يسترسل في الأحلام.

وكان بين الحاضرين أحد صنّاع المنسوجات المرسومة، اعتزل عمله وأصبح عضواً مراسلاً لمجمع بيزانسون ومجمع أيزس، فسأل هذا جوليان

من طرف المائدة عما إذا كان نجاحه الباهر وتقدمه السريع في دراسة العهد الجديد حقيقة من الحقائق ؟ .

فساد الجمع صمت سريع ، وكان في يد عضو المجمعين نسخة لاتينية من العهد الجديد. قرئت منها على جوليان كلمات من جملة لاتينية كما طلب هو ، فأخذ يتلو عن ظهر قلب ، ولم يخنه ذا كرتة . فدهش الحاضرون وأعجبوا بالمعجزة في ضجة وجلبة أحدثهما الذين فرغوا من تناول الطعام . ونظر جوليان إلى وجوه السيدات التي زينت بالأحمر فرأى بينها وجوها جميلة ، وأجل ما فيها وجه زوج محصل الضرائب ذلك الفتى البارع . فنظر إليها وقال :

يخجلني حقاً ، أنتى تحدثت باللاتينية . وقتاً طويلاً بين يدي هؤلاء السيدات الفضليات . فإذا تفضل السيد روبينو — عضو المجمعين — وقرأ أية جملة لاتينية فإني أحاول أن أترجمها في الحال إلى الفرنسية بدل أن أقرأ النص باللاتينية .

ونجح ببراعة في هذا الامتحان الثاني وكلل بالمجد والفخر . وكان بين الحاضرين جماعة من أغنياء الأحرار ، آباء سعداء بأطفالهم المجددين ، الذين قد يحصلون على إعانات مالية من الدولة لأنهم مجتهدون ، وقد أصبح هؤلاء الآباء من نصراء الحكومة منذ زمن البعثة الأخيرة . لكنه على الرغم من هذه السياسة الحاذقة ، رفض السيد دي رينال أن يستقبلهم في منزله ، فلم ير هؤلاء الأبطال جوليان إلا يوم زيارة ملك . . . وهو على صهوة الجواد . ولم يشهدوا نبوغه عن قرب وإن كان ذائع الصيت بين أهل ثريير جميعاً ،

لذلك كانوا أكثر الحاضرين إيجاباً بحوليان ، وأكثرهم صخباً وجلبة . ثم قال جوليان في نفسه : متى يملّ هؤلاء الحق سماع أسلوب الأنجيل ، الذي لا يفهمون منه شيئاً؟ إنهم لم يملّوا ولم يسأموا ، وإن كان هذا الأسلوب غريباً فإنهم يعبثون ويضحكون ، ولكن جوليان دبّ إلى نفسه الملل .

نهض في تودة حين دقت الساعة السادسة ثم تحدث إليهم عن فصل في علم اللاهوت الجديد لليجوريو ، وكان جوليان قد كلّف حفظه ليتلوه في اليوم التالي على الأب شيلان . ثم قال لهم في ظرف ودعابة :

— إن مهنتي تقتضي أن أسمع الدروس التي تتلى عليّ ، وأن أتلو أنا أيضاً دروساً أخرى .

فضحكوا معجبين ؛ لأن هذا اللذع من النكتة كان سائداً وقتذاك في ثريير . كان جوليان واقفاً فوق جميع الحاضرين واغفلوا الفارق الاجتماعي بينه وبينهم ، وقفوا احتراماً لنبوغّه . وهمّ بالانصراف فاستوقفته مدام فالنور بع ساعة لسمع أبناءها وهم يتلون دروسهم في الدين ؛ فأخطئوا خطأ شنيعاً لم يتبينه إلا هو وحده ، ولم يشأ أن يصحح لهم الأخطاء ، ولكنه قال في نفسه : وأسفاه على الجهل بمبادئ الدين الأولية ! ثم حيا الحاضرين ظاناً أنه يستطيع الهرب ، ولكنه كان عليه أن يتحمل سماع قصة من قصص لافونتن ، فقال لمدام فالنو :

— إن لافونتن مؤلف فاسق ، في بعض قصصه عن السيد جان شوار ، سخريّة بما هو مقدس ، وقد لامه على ذلك خير الشراح وأفضل المفسرين .

وقبل أن ينصرف دعى إلى خمس مآدب أو ست . وصاح المدعوون جميعاً في فرح وسرور : هذا الشاب فخر لإقليمنا . ثم أخذوا يتحدثون عن مدّة ببعض المال من خزانة البلدية ، حتى يتمكن من إتمام دراسته في باريس .

كان هذا الرأى يتردّد في أرجاء غرفة الطعام ، حين خرج جوليان في خفة ونشاط من الباب الذي تخرج منه العربات ، وهو يقول في صوت منخفض . آه ! يا لكم من لصوص ! ويا لكم من أوغاد ! وردده هذه العبارة ثلاث مرات أو أربعاً ، وهو يجدلذة في استنشاق الهواء النقي .

شعر في هذه اللحظة بأنه أرسقراطي ، وقد كان من قبل يتألم من الابتسامات التي تحمل الازدراء ، ومن الكبر المتعالى الذى تم عنه عبارات الجاملة في منزل السيدى رينال . ولم يجد بداً من الموازنة بين الأسرتين فوجد البون شاسعاً ، وتحدّث إلى نفسه وهو في طريقه إلى المنزل قائلاً : لنتناس أن أموال فالنو حرام ، اختلسها من السجناء البائسين الذين يحرم عليهم أن يغنوا ! فالسيدى رينال لا يقدم أبداً على أن يخبر ضيفانه بئمن زجاجة نبيذ يقدم إليهم . والسيد فالنو حين يحصى ممتلكاته ، وكثيراً ما يرد ذكرها في حديثه ، لا يستطيع أن يتحدث عن منزله وممتلكاته في حضور زوجته إلا أن يقول : منزلك وممتلكاتك .

وهذه السيدة التي تميل في الظاهر إلى حبّ التملك لامت خادمها لوماً عنيفاً ؛ لأنه كسر كوباً ذا قاعدة فنقص عدد أكوابها إلى أحد عشر ،



ولم يسكت الخادم عما فعلت بل أجاب على حديثها بقحة شديدة ثم استطرد جوليان :

إنها لمجموعة غريبة ! لو أعطوني نصف ما يسرقون ما قبلت أن أعيش معهم ، لأنني سأكشف لهم يوماً ما حقيقة شعوري ، وأظهر لهم احتقاري الشديد .

كان عليه أن ينزل على إرادة مدام دي رينال ويشهد بعض مآذب مثل مآذبة السيد قائلو ؛ فأصبح مشهوراً بين مواطنيه . وغفر له الناس زلة ثوب حرس الشرف ، وإن كانت تلك الحماقة سبب ما لقيه من نجاح بعد ذلك ، ثم شغل أهل قريير جميعاً بمعرفة من سيكون المنتصر : من ذا الذي سيستميل الشاب العالم إليه : العمدة أم مدير المحازن ؟ وكان هذان السيدان والسيد مالون يؤلقون ثلوثاً، حتى أرهقوا البلدة منذ سنوات عديدة . والناس يحسدون العمدة ، والأحرار يشكون منه دائماً ، واسكنه على الرغم من ذلك ، كان كريم المحمد خلق ليقبوا أعلى المناصب ، أما أبو السيد قائلو ، فإنه لم يترك إلا دخلاً يبلغ ستمائة فرنك . وقد كان الناس جميعاً يشفقون عليه في صغره وهو يرتدي الحلة الخضراء المهلهلة ، أما الآن فقد أصبحوا يحسدونه على الجياد النورماندية وسلاسله الذهبية ، وملابسه الباريسية وراثته العظيم . وخيّل إلى جوليان أنه قد كشف في هذا العالم الجديد الذي لاعهده به ، رجلاً أميناً يدعى جرو<sup>(١)</sup> ، هو مهندس يقال عنه إنه يعقوب مشاغب ،

---

(١) جرو مدرس الهندسة ، الذي كان يعلم الشاب « هنري بيل » و« جرينوبل » وكان الشاب معجباً إعجاباً كبيراً بوطنية أستاذه ، وقد أشار إليه مرات عديدة خلال مؤلفاته كما تحدث عنه خديشا طويلاً في قصته « لوسيان ليقان » تحت اسم « جوتيه » المغرب .

وكان جوليان معاهدا نفسه على ألا يقول إلا ما يراه كاذبا لا يصدقه هو نفسه ، لكنه خالف العهد حين تحدّث إلى السيد جرو . تسلّم جوليان من فرجى أوراقا كثيرة ترجمها تلاميذه من اللاتينية إلى الفرنسية ، وأشير عليه أن يزور والده كثيراً ، فخضع على كره منه ، وعلى الجملة فإنه أخذ يعمل على أن يشتهر أمره بين مواطنيه وأقرب . وفي صباح يوم وهو لا يزال في فراشه ذهل حين شعر بيدين توقظانه وهما تغميان عينيه .

قدمت مدام دى رينال بصحبة أولادها إلى المدينة . وصعدت سلم المنزل مسرعة حتى تصل إلى غرفة جوليان قبل أولادها بلحظة ، وتركهم يعيشون بأرنب شغلوا به طول الرحلة وأرادوا أن يطلعوا معلّمهم عليه . وقد كانت اللحظة التي سبقت فيها أبنائها إلى جوليان قصيرة ولذيذة . ثم غادرت الغرفة حين دخل الأولاد ، فاستقبلهم أحسن استقبال ، وفرح بهم وبأرنبهم ، وخيّل إليه أن أسرته قد عادت إليه ؛ كان يشعر بأنه يجب الأطفال ، ويلدّ له أن يثرث معهم . وأذهلته رقة أصواتهم ، وبناطتهم ونبل حركاتهم ، وقد كان في حاجة إلى أن يحجو ما علق بخياله من أعمال مردولة ، وأفكار سقيمة رآها وسمعا وهو مقيم في ثريير . كان الصراع شديداً بين الفقر والغنى ، وكان الخوف من الفاقة كبيراً بليغاً ، وقد سمع بمن استضافوه أحاديث حطت من قيمتهم وبعثت الاشمئزاز في نفس سامعها .

فقال لمدام دى رينال عند ما قصّ عليها خبر المآذب التي حضرها :

— أتم يا معشر الأشراف محقون فيما تظهرون من كبرياء .

— أراك أصبحت الآن هوية أهل ثريير ! .

ثم أغرقت في الضحك ، مستحضرة في ذهنها صورة وجه مدام قالتو، الذي كان يصبغ بالأحمر حتما كل مرة ترى صاحبتة جوليان فيها ، ثم قالت :  
— يحيل إلى أن لها مشروعات تريد بها أن تستولى على قلبك .

وتناولوا طعاما لذيذا وزاد وجود الأطفال في سعادتها ، وإن كان في الحقيقة مصدر تضيق عليهما ، وكان هؤلاء الأطفال البرآء عاجزين عن أن يظهروا فرحهم برؤية جوليان . ولم يتردد الخدم في أن يخبروهم بأن السيد قالو عرض على جوليان مائتي فرنك زيادة على مرتبه ليعلم أبناءه .

وسأل ستنسيلاس كزافيه وهم يأكلون ، ولا يزال شاحب اللون من أثر المرض ، سأل أمه بغتة عن ثمن الأدوات الفضية التي يأكل بها ، وعن ثمن القدرح الذي يشرب فيه ، فقالت له :

— ولماذا تسأل يا بنى ؟

— أريد أن أبيعها وأمنح السيد جوليان ثمنها حتى لا يكون مغبونا ،  
إن بقي معنا .

فقبله جوليان والدموع تترقرق في عينيه . أما أمه فقد بكت كثيرا ، ثم أجلسه جوليان على ركبتيه وجعل يعلمه أن استعمال كلمة مغبون «dupe» التي وردت في حديثه لاتليق إلا بالخدم في المعنى الذي قصد إليه . ورأى السرور الذي شمل صديقتة ، فأخذ يبين للأطفال بأمثلة شائعة معجبة ، كيف يكون المرء مخدوعا .

فقال ستنسيلاس :

— أنا أفهم ماتقول ، فقد ارتكب الغراب حماقة حين خدعه الثعلب ،

فترك قطعة الجبن تسقط منه ، فأخذها هذا الثعلب المتماق .  
فاستطيرت مدام دي رينال فرحا وقبلته قبلات كثيرة ، ولم يكن في استطاعتها أن تقبله هو دون أن تستند قليلا على جوليان .  
وفتح الباب فجأة ودخل السيد دي رينال . كان صارم الوجه عبوسا ،  
فاختفى المرح والسرور حين وقعت عليه الأبصار . وامتقع وجه مدام دي رينال ، ولم تجد في نفسها القوة على إنكار شيء . وأخذ جوليان يتحدث إلى العمدة في صوت مرتفع ويقصّ عليه ما قاله ستانسيلاس من بيع أدواته الفضية وقدهه . وكان على ثقة مقدما من أن القصة لن ترضى هذا الوالد الشحيح ، فقد قطب حاجبيه على عادته حين سمع ذكر النضة ، وكان ذكر هذا المعدن أمامه مقدمة ، كما يقول ، إلى طلب نفود معه .

أما الآن فلم يكن كثيرا بالمال ، بل زادت شكوكه حين رأى زوجه متكئة على جوليان : ولم يكن مظهر السعادة الذي يغمر أسرته في غيابه مما يساعد على تهدئة رجل مغرور . كانت زوجه تطرى تلك الطريقة التي لا تخلو من ظرف وذكاء والتي عمد إليها جوليان في تعليم تلاميذه . فقال لها :

— حقا ! حقا ! أنا على علم بطريقته ، إنه يحاول أن يضع سدا بيني وبين أولادي ، وفي استطاعته أن يكون أكثر ظرفا مني مائة مرة ، ونسى أنني رب البيت . إنه يبذر لي الجفاء في نفوس أبنائي ، وأى غرابة في ذلك مادام كل شيء في هذا القرن يرمى إلى تشويه كل سلطة شرعية؟ فيالبؤسك يافرنسا !  
لم تعر مدام دي رينال لقاء وزوجها لها أى التفات ، ولم تهتم بمعرفة الأفكار الدقيقة التي تدور الآن بخله ، لقد جاءت لتقضى اثنتي عشرة ساعة

مع جوليان . وكانت تريد شراء أشياء كثيرة من حوانيت المدينة ، وتناول قطعاً الغداء في الحانة ؛ وأصرت على رأيها مهما يقل زوجها أو يفعل ، وسرّ الأطفال من كلمة حانة التي كانت تنطق في ذلك العصر نطقاً كله لذة على الرغم من التظاهر بالوقار .

ترك السيد دى رينال زوجه في أول حانوت دخوله وذهب ليزور بعض الأصدقاء . وزاد حزنه عن وقت الصباح لأنه كان واثقاً أن المديفة كلها مشغولة به وبجوليان . والحقيقة أن أياً امرئ في ثريير لم يظهر له شيئاً يكشف عن الناحية التي تجرح كبرياءه وشرفه ؛ وكل ما قيل هو : هل يبقى جوليان عند العمدة بأجر يبلغ ستمائة فرنك أو ينتقل إل مدير المخازن بثمانمائة فرنك ؟

كان المدير يلقي العمدة بفتور حين يقابله في المجتمعات ؛ وكان مسلكه هذا لا يخلو من مهارة ، وقلماً تلقى نزقاً في الريف : فالتأثرات هناك نادرة ، والريفيون لا يؤمنون بها .

والسيد فالنو مثل صادق الاسم المستعمل على بعد مائة فرسخ من باريس : فهو متعطرس ذوسليقة وقحة سفيهة وإن كان نجاحه في الحياة منذ عام ١٨١٥ قد قوى مواهبه الجميلة . وكان يحكم في ثريير إذا صحّ هذا التعبير تحت أوامر السيد دى رينال ، إلا أنه كان أكثر نشاطاً من العمدة ، لا يستحي من شيء بل يتدخل في كل شيء ، يذهب إلى كل مكان ويكتب ويتكلم ، وينسى الإهانات ، ولا يعتز أبداً بنفسه ، فتمكن بهذا من التخلص من

سلطان العمدة عليه في نظر رجال الدين . كان مثله كمثل من قال لبدالي الأقليم : هاتوا اثنين من أكثركم حماقة ، ولرجال القانون : دلوني على اثنين من أكثركم جهلا ، ولرجال الصحة : أخبروني عن اثنين من مدعي الطب ، فلما اجتمع من كل المهن أكثر رجالها سفاهة وحمقا قال : لنحكم مشتركين . كانت طرق هؤلاء الناس تؤذي السيدى رينال . وكانت قحة فالنوا لا تبالى بشيء ولا يؤثر فيها لوم ، فلم يكن يهتم بتكذيب الخورى ما لونه له أمام الناس .

كان على الرغم من ثرائه في حاجة إلى أن يتسلح بشيء من السفه ، ليدفع ما يواجهه به الناس من حقائق كثيرة لا سبيل إلى إنكارها . ثم ازداد نشاطه لأن زيادة السيد أبتتركت في نفسه مخاوف حجة ، فذهب ثلاث مرات إلى بيزانسون ، وأرسل خطابات كثيرة في كل بريد يغادر قريير ، ثم أرسل أخرى بأشخاص مجهولين كانوا يفقدون عليه تحت جناح الظلام . وقد يكون مخطئا في عزل الخورى الشيخ من منصبه ، لأن عزل الأب شيلان جعله شريفا في أعين كثيرات من الصالحات ، اللأى ينتمين إلى أعرق الأسر . ومع كل فقد أصبح فالنومند عزل الأب رهن إشارة مونسنيور فرييلير كبير الأساقفة ، الذى كان يطلب منه القيام بهام غريبة نظيرا استجابته إلى طلبه .

اتهمت سياسته إلى هذا الحد الذى وصفنا حين استحباب إلى لذته النفسية فكتب الخطاب المجهول ، وزاد الأمر تعقيدا أن طلبت منه زوجه أن يقيم جوليان في منزلها ، وقد لاقت هذه الفكرة قبولا حسنا في نفسه

التي فطرت على الغرور . كان السيد قائلو يتوقع شجارا وقطيعة بينه وبين شريكه السيد دي رينال مادامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد . لقد وجه إليه العمدة كلاما قاسيا ، وإن كان لا يأبه كثيرا بما يقال . وقد يكتب العمدة إلى بيزانسون وإلى باريس إذا شاء ، فيأتي إلى ثريير بفترة قريب لأي وزير من الوزراء ليتسلم مخازن الصدقات من قائلو . من أجل ذلك ، فكر في أن يتقرب إن الأحرار ؛ فدعا بعضهم لتناول الغداء يوم كان جوليان يتلو بعض مقطوعات من العهد الجديد . قد يكون في التقرب من الأحرار توطيد كبير لمركزه ضد العمدة ، وقد تكون هناك انتخابات ، ومن الواضح أن التصويت السيء لا يتفق مع احتفاظه بمركزه .

كانت مدام دي رينال خبيرة بسياسة قائلو ، فحدثت عنها جوليان وهي مستندة إلى ذراعه متنقلين من خانوت إلى خانوت ، ثم حدثته عنها كذلك حين ذهبها إلى حديقة الأخلاص ، وقضيا فيها ساعات هادئة كأنهما في فرجى وكان هذا يدور والسيد قائلو يحاول جاهدا أن يؤجل موعد القطيعة بينه وبين رئيسه القديم ، فعمد إلى طريقة أفلحت معه في ذلك اليوم وإن زادت غضب العمدة : ذلك أنه ظهر أمام رئيسه بمظهر الجراءة .

إن الكبرياء إذا خالطها الحرص الشديد على المال ، ذلك الحرص الذي يؤدي إلى الحقارة والتفاهة ، لتدفع المرء أن يكون صعلوكا حقيرا ، وهذه هي صورة السيد دي رينال حين دخل الحانة . فانتقبض أولاده لدخوله على حين أنهم كانوا قبل ذلك فرحين مسرورين ، وزاده حزنا وألما مارآه من تناقض ، فقال بصوت تحمل نبراته سيطرة وسيادة :

— يخيل إلى أنني دخيل على أسرتي!

ولم تجبه زوجه ولكنها انتحت به ناحية وأخبرته بضرورة إبعاد جوليان؛ ذلك لأن السعادة التي لقيتها في الساعات التي قضتها مع جوليان بعثت في نفسها الحزم واللين الضروريين لمتابعة تطبيق منهج فكرت فيه منذ خمسة عشر يوما . وزاد في اضطراب العمدة المسكين أنه يعلم أن أهل ثريير جميعا يسخرون من حرصه على المال . أما السيد فالنو فهو كريم ككل اللصوص . وقد حرص على أن يظهر بمظهر الحذر في التبرعات الخمسة الأخيرة أو الستة التي جمعت لحساب أخوة القديس يوسف ولجماعة العذراء وجمعية السر المقدس وما إلى ذلك . . . .

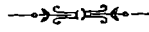
أما اسم السيد دي رينال فكان يرد كثيرا في آخر القائمة التي فيها أسماء عمد ثريير والبلاد المجاورة . وكان القسس الذين يجمعون الصدقات حريصين على أن يرتبوا الأسماء في القوائم، وفقا للمبالغ التي يتبرع بها . وعبنا كان يدعى أنه لا يرمح شيئا ، ورجال الدين لا يعرفون المزاح في مثل هذه الأمور .



## الفصل الثالث والعشرون

### أحزان موظف

[ لذة أن يرفع المرء رأسه طول العام يدفع ثمنها  
غالياً في ربع ساعة لا مفر من مواجهته . ]  
كاستي .



لنترك هذا الرجل التافه فريسةً للخوافه الوضعية ؛ فلماذا أدخل بيته  
رجلاً على النفس ، وهو في حاجة كبيرة إلى وضعاء النفوس ؟ لماذا لا يعرف  
كيف يختار رجاله ؟ والعرف المتبع في القرن التاسع عشر هو أن الرجل  
القوي الذي ينتمى إلى طبقة الأشراف ، لا يلبث إذا هو لاقى عظيم النفس  
أن يقتله أو ينفيه أو يلقى به في غياهب السجون ، أو يزدريه كثيراً ، فيحزن  
الأحمق ويموت غيظاً وكداً . ولكن المصادفات أرادت أن يكون المذبذب  
في هذه المرة هو القوي الشريف . ومن أكبر البلايا التي تمنى بها المدن  
الفرنسية الصغيرة ، وأكبر المحن التي تمنى بها الحكومات الانتخابية  
حكومة نيويورك ، أنها لا تستطيع أن تنسى وجود قوم مثل السيد  
دى رينال . ففي بلدة يبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً من الأنفس يكون  
هؤلاء الرأى العام فيها . والرأى العام في بلاد ستورى شديد الوطأة .  
وذو النفس العالية الكريمة الذي اتخذته صديقاً ، ولكنه يقطن بعيداً عنك  
بمائة فرسخ ، يحكم عليك بما يملكه عليه الرأى العام المسيطر على بلدك ، وهو

عادة يتحكم فيه الحمقى الذين ولدوا أشرافاً أغنياء معتدلين . والويل لمن يمتاز  
عن أقرانه فيظهر بين مواطنيه ! .

وبعد تناول الغداء سافرت الأسرة إلى فرجى ؛ ثم مرّ يومان فمادت  
الأسرة كلها إلى فرير .

وما مضت ساعة على وصولها حتى اكتشف جوليان أن مدام  
دى رينال تخفى عنه شيئاً ، فذهل ذهولاً عظيماً . كانت تمسك عن الكلام  
مع زوجها حين يدخل عليهما ، وتودّ لو أنه غادرها . على أنه لم يكن  
في حاجة إلى أن ينبّه إلى هذا الأمر مرتين . وأصبح فاتراً محتاطاً ؛  
وأدركت مدام دى رينال هذا المسلك الجديد ، لكنها لم تشأ أن توجه  
إليه أى استفسار . كان يفكر في أمرها مسائلًا نفسه : هل ستخذ خليلاً  
غيرى ؟ لقد كانت حتى أمس الأولى صافية النفس صادقة الودّ ! ولكنه  
يقال : إن سيدات الطبقة الراقية يفعلن هذا دائماً . هنّ كاللوك لا يظهرن  
ودّاً وعطفاً إلاّ للوزير الذى يخرج من حضرتهم راجعاً إلى داره فيجد  
هنالك خطاب عزله بانتظاره . ولحظ جوليان أنّ المناقشات التى كانت  
تدور بين العمدة وزوجه وتنقطع بغتة حين يقترب منهما ، تدور غالباً حول  
منزل كبير تملكه بلدية فرير ، منزل قديم لكنه مريح واسع يقع تجاه  
الكنيسة فى أحسن موضع تجارى فى المدينة ، فأخذ يسائل نفسه : ولكن  
ما العلاقة بين هذا المنزل والخليل الجديد ؟ .

وكان فى جزئه هذا يردد أشعاراً جميلة كانت جديدة بالنسبة إليه ، لأن  
مدام دى رينال هى التى أنشدته هذه الأشعار قبل ذلك بأقل من شهر .

ولطالما أثبتت وهي تنشد في كل بيت من الأبيات ، أن هذه الأشعار التي أنشأها فرنسوا الأول كاذبة ، أثبتت ذلك بأيمان ومداعبات كثيرة لطيفة ! .

المرأة سريعة التحول ، لا يركن إليها إلا كل مخبول .

سافر السيد دي رينال إلى بيزانسون ، وقد تقرر في هذه الرحلة في ساعتين ، وكان يبدو أنه فريسة لعذاب شديد . ولما عاد ألقى على المائدة حزمة كبيرة مغطاة بورق رمادي ، ثم قال لزوجته :

— لقد انتهى هذا الأمر اللعين .

ومرت ساعة فجاء لاصق الإعلانات وحمل الحزمة فتبعه جوليان على

عجل ، وهو يقول : سأعرف سرّ هذا الأمر الغامض عند أول منعطف للطريق .

وقف خلف الرجل وصره نافذ ، وأمسك الرجل « فرشاة » كبيرة

بلّل بها ظهر الإعلان . ثم ألصقه على الحائط ، فأقبل عليه جوليان يقرؤه .

كان يتناول بالتفصيل استئجار المنزل القديم الذي تردّد ذكره في الحديث

بين السيد دي رينال وزوجته ، على أن يكون الإيجار بالميزاد العلني ، وميعاده

الساعة الثانية من اليوم التالي في قاعة البلدية ، حيث تنطفئ الشمعات الثلاث .

خاب أمل جوليان حين رأى المدة المحددة للميزاد قصيرة جدا : فكيف

يتاح للمتزايدين جميعا أن يعلموا الموعد ؟ على أن تاريخ الإعلان سابق لإلصاقه

بخمسة عشر يوما . وقرأه جوليان في ثلاثة أيام ، لكنه لم يستفد

منه شيئا . ثم ذهب يستطلع المنزل المعلن عنه ، ولم يكده البواب يراه يقرب

حتى قال لجاره في غموض :

— آه ! آه ! إنه لجهد ضائع . لقد وعده السيد مالون أن سيستأجره بثلاثمائة فرنك ، لكن العمدة لم يقبل فاستدعى إلى الاسقفية ، ليلقى السيد دى فريلير النائب الأول للأسقف .

كان وصول جوليان إلى مكان الصديقين داعية إلى أن يكفأ عن الكلام ، وبدا عليهما من حضوره انزعاج وقلق . وحرص في اليوم التالي على أن يشهد المزاد ، فذهب إلى القاعة فألقاها مزدحمة بالناس في نورها الضئيل . وكل من فيها ينظر شزرا ، والأبصار متجهة إلى منضدة رأى عليها جوليان وعاء من القصدير به بقايا ثلاث شمعات مضيئة . وكان الحاجب يصيح قائلاً :

— ثلثمائة فرنك أيها السادة !

فقال أحد الحاضرين لجاره بصوت منخفض وجوليان واقف بينهما :  
— ثلثمائة فرنك ! هذا كثير . المنزل يساوي ثمانمائة فرنك ، إنى أريد أن أعلى المزاد .

— لن يجديك هذا نفعا . وماذا استفيد من معاداة السيد مالون والسيد قالنو والأسقف وهذا القظ الغليظ دى فريلير ، وكل هذه العصبة الخاسرة .

فقال الآخر ضاحكاً !

— ثلثمائة وعشرون فرنكاً .

فقال له جاره وهو يشير إلى جوليان :

— يالك من بهيمة ! إن بجوارك أحد جواسيس العمدة .

فالتفت جوليان إلى الرجلين في سرعة وغضب لينتقم لهذه الإهانة

لكنهما لم يعيراه انتباها ، فبعث هديرهما في نفسه السكينة . وفي اللحظة نفسها كانت البقية الباقية من الشمع قد ذابت وانطقت ، فأعلن الدلال أن المنزل قد استأجره السيد دي سان جيرو رئيس قسم في ولاية . . . لتسعة أعوام بإيجار قدره ثلثمائة وثلاثون فرنكا . وغادر العمدة القاعة فتوالت الأحاديث . قال أحد الحاضرين :

— لقد كسبت خزينته البلدة ثلاثين فرنكا من حماقة جروجو .  
فأجابه آخر :

— ولكن السيد دي سان جيرو سينتقم منه على ما فعل ، لن يتروك الأمر يمر بسلام .

ثم قال رجل ضخم كان إلى يسار جوليان :

— يا للعار ! لو كان الأمر بيدي لاستأجرت المنزل لمصنعي بثماتائة فرنك ، ولكنك زابجا في هذه الصفقة .

فأجابه صاحب مصنع ينتمي إلى الأحرار :

— صه ! أليس السيد دي جيرو متمنيا إلى الجمعية ؟ ثم أليست الخزانة العامة تنفق على أولاده ؟ فياله من رجل بأس ! يجب أن تعينه خزانة فريير بمبلغ خمسمائة فرنك وهذا هو كل شيء . .

وقال ثالث :

— ويقال إن المدة لم يتمكن من منعه ! لأنه هو أيضا من المتطرفين

ولكنه لا يسرق .

فاستدرك آخر قائلا :

— لكنه لا يسرق؟ إنه لحمامة تطير. على أن كل ما يختلس يدخل  
الخزانة العامة ويقسم آخر العام. ولكن هاهو ذا الصغير سورل، فلننصرف.  
عاد جوليان إلى المنزل غاضبا ثائراً، فألقى مدام دي رينال حزينة  
مكتئبة، وقد سأله حين رآته:

— أنت آت من المزاد؟

— نعم ياسيدي، وتشرفت بأن قيل عنى: إني جاسوس حضرة العمدة.  
— لو أنه استمع إلى لغادر فريير.

ودخل السيد دي رينال في هذه اللحظة مكتئبا عبوسا. وتناولوا  
الغداء جميعا في صمت، ثم أمر العمدة جوليان أن يذهب بالأطفال إلى  
فرجى، فكانت رحلة تسودها الكآبة، وأخذت مدام دي رينال تهوّن  
الأمر على زوجها قائلة:

— لقد اعتدت مثل هذا يا صديقى.

وفي المساء التفت الأسرة كلها حول الموقد وهي صامتة، وكانت  
الضوضاء التي تنبعث من الخشب المتأجج هي لذة المجلس الوحيدة. ومثل  
هذه اللحظات الحزينة توجد حتى في أشد الأسر ارتباطا. وبينما هم  
كذلك، صاح أحد الأطفال في مرح وهو يقول:

— الجرس يندق! الجرس يندق!

فرد العمدة في قلق:

— يا إلهى! إنه السيد دي سان جيرو، جاء يطاردنى بحجة أنه يشكرنى  
سأقول له كل ما يجول بخاطرى، هذا شيء لا يطاق. إنه لمدين لقالنو

بالشكر ؛ أما أنا فقد أصبحت متهما . ما العمل ، لو أن الصحف المشاغبة الكريهة تناولت القصة بالنقد ، وسخرت مني كما تسخر من السيد بونانت سانك ؟

دخل في هذه اللحظة رجل جميل الهيئة ، شعره أسود غزير على العارضين ، وقد سار أمامه خادم ، ثم خاطب ربّ الدار قائلا :

— سيدي العمدة ، أنا السنيور جيرونيمو<sup>(١)</sup> ، وهالك خطابا من السيد دي بوفيزي الملحق بسفارة نابلي ، سلمنيه ساعة رحيلي ، أي قبل تسعة أيام . ثم نظر إلى مدام دي رينال مستطردا في سرور :

— وابن عمك السنيور دي بوفيزي صديقي الحميم ، وقد حدثني ياسيدتي أنك تتكلمين الإيطالية .

وكان مرح هذا القادم من نابولي وظرفه سببا في أن تبدلت سمرة الأسرة من حزن وكآبة إلى فرح وسرور . وأرادت مدام دي رينال أن تقدم إليه طعاما ، فأقامت المنزل كله وأقعدته ، لأنها حريصة على أن تدخل السرور على قلب جوليان لتنسيه صفة ألصقت به اليوم ظلما وعدوانا وهي التجسس ، التي سمع مواطنيه يتهمونه بها . كان السنيور جيرونيمو مغتيا بارعا ، لطيف المعشر ، مرحا إلى أبعد الحدود ، وهي صفات لا تتاح لأحد من الفرنسيين ، فأخذ يغني بعد الطعام هو ومام دي رينال أغنية ثنائية ، ثم قص عليهم قصصا طريفة . وفي الساعة الأولى صباحا طلب جوليان من

(١) يخيل إلينا أن ستندال ، وهو يخلق هذه الشخصية ، كان يفكر في المعنى «لابلاش» الذي كان يعني وقتذاك دور «دون جيرونيمو» بياريس في «ماتيمونيو سيجريمو» غير أن بعض النقاد يرى أن ستندال يشير هنا إلى «كريستيني» معني الامبراطور . العرب

تلاميذه أن يأووا إلى فراشهم ، ، فتصايحوا رافضين وقال كبيرهم :  
— نريد أن نسمع أيضا هذه القصة .

فأجابه السنيور جيرونيمو :

— إنها قصتي يا عزيزي السنيور : كنت منذ ثمانية أعوام تلميذا  
صغيرا مثلك في مدرسة الفنون بناپولى ، أعنى أنتى كنت فى سنك وإن لم  
يكن لى شرف انتسابك إلى هذا الرجل الخطير عمدة قريير الجميلة .

فتنهّد السيد دى رينال حين سمع هذا الكلام ثم نظر إلى زوجته ،  
واستطرد المغنى الشاب يقصّ قصته على الأطفال مبالغا فى نطق كلماته حتى  
ضحك الأطفال منه ضحكا شديدا :

كان السنيور زنجاريللى<sup>(١)</sup> معلما صارما، من أجل ذلك لم يكن محبوبا  
فى المدرسة، ولكنه كان حريصا على أن يظهر تلاميذه دائما بمظهر الحبين له.  
وكنّت أغانر المدرسة فى كثير من الأحيان لأذهب إلى مسرح سان  
كرلينو حيث أسمع موسيقى رائعة . ولكن يا للسماء ! كيف السبيل إلى  
جمع أربعين سنتيا لأحصل على مكان فى بهو المسرح ؟ ثم نظر إلى الأطفال  
فأعرقوا فى الضحك وقال :

يا له من مبلغ كبير ! لقد سمعنى مدير مسرح سان كرلينو أغنى وكنّت  
إذذاك فى السادسة عشرة من عمرى ، فقال : هذا الطفل كنز . ثم سألتنى :

— أتريد أن تعمل معنا هنا أيها الصديق العزيز ؟

— وكم أجرى ؟

(١) زنجاريللى : مؤلف إيطالى ومدير معهد الموسيقى بناپولى ؛ وهى المدينة التى  
ولد فيها « لابلاش » وتلقى بها علومه الأولى . المرب



— أربعون دوكا شهر يا أى مائة وستون فرنكا أيها السادة . فاعتقدت  
أن أبواب السماء فتحت لى . ثم قلت لحيوثنونى :

— ولكن كيف السبيل إلى إقناع زنجار يلقى القابضى بتركى أغادر المدرسة؟  
فقال لى :

— لاسيكا قارى آمى *Lascia fare a me*

وهنا صاح أكبر الأطفال مترجما ما قال :

دعنى أقم بهذا الأمر .

فقال المعنى الشاب :

— هذا حقّ يا سيدى الصغير . ثم قال لى چيوثانونى :

— وقع أولا هذا العقد البسيط ، فوقعت ، فأعطانى ثلاث دوكات ؛

فبهرنى المال الكثير الذى لم يتبح لى أبدا من قبل ، ثم أطلعنى على ما يجب  
أن أعمله . وجاء اليوم التالى فطلبت مقابلة زنجار يلقى الطاغية فادخلنى

خادمه العجوز إلى مكتبه . فقال لما رآنى :

— ماذا تريد أيها الطالب الذمىم؟

— ما يسترو ، إنى لنادم على أخطائى ، وأعدك بأنى لن أغادر المدرسة

مرة أخرى من فوق السور الحديدى . وسترانى بعد ذلك مجدداً كل الجد .

— لولا أننى أخشى ديب الفساد إلى صوتك الذى يعد أجمل صوت

حنون سمعته فى حياتى لوضعتك فى السجن خمسة عشر يوماً ، وقضيت عليك

ألا تتناول إلا الخبز والماء أيها الأحمق .

— ما يسترو ، سأكون أنموذجا لحسن السيرة فى المدرسة كلها وأرجو

أن تصدقني هذه المرة . لكنني أطلب منك طلباً أودّ أن تجيبني إليه :  
إذا جاءك أحد يرجوك في أن تسمح لي بأن أغني خارج المدرسة  
فلا تستمع إليه ، واعتذر من عدم استطاعتك السماح بذلك . أرجو أن  
تفعل هذا من أجلى سیدی المدير .

— ومن ذا الذى يطلب شقياً مثلك ليغني له ؟ وهل أسمح أنا لك  
بمغادرة المدرسة ؟ أتريد أن تسخر مني ؟  
ثم قال وهو يحاول أن يركلني وأنا أولى الأدبار :

— اذهب ! اذهب ! وإلا فالويل لك من السجن والخبز القفار .  
وبعد ساعة أتى السنيور جيوفانوني ليلقي مدير المدرسة ثم قال له :  
— جئت أطلب منك أن تؤدي إلى خدمة فيها سعادتى وثرأتى :  
أحب أن تتفضل بالسماح لـ **بيرونيمو** بالغناء على مسرحي . إذا أجبتني إلى  
طلبي فأؤكّد لك أنني سأزوج ابنتي هذا الشتاء .  
— أتريد خيراً من وراء هذا الأحق ؟ أنا لا أوافق على ذلك .  
ولن تحصل عليه . وهب أني أجبتك فإنه لا يريد أبداً أن يغادر المدرسة ؛  
ولقد أكد لي هذا منذ قليل .

فأجابه جيوفانوني في تودة ثم أخرج من جيبه العقد قائلاً :

— إذا كان الأمر متوقفاً على إرادته فأليك توقيعه !

فغضب زنجار يللي غضباً شديداً وهوى على الجرس يدقه وصاح :

— ليطرده **بيرونيمو** من المدرسة في الحال .

وطردت وأنا أضحك . وحلّ المساء وأنا أغني أغنية «دل مولتيليكو»  
وكانت **بولنشيبل** تريد أن تزوج ، فأخذت تحصى على أصابعها ما تحتاجه

في منزل الزوجية ، لكنها كثيرا ما كانت تخطيء في حسابها .

عند ذلك قالت له مدام دي رينال :

آه ! هل لك أن تسمعنا هذه الأغنية ؟

فأخذ جيرونيمو يغنى وهم يضحكون ، حتى سالت دموعهم من فرط الضحك . ولم يأو السنيور إلى مخدعه إلا في الساعة الثانية صباحا ، بعد أن أدخل المرح والسرور على القلوب ونال إعجاب الأسرة لظرفه ومرحه وكياسته .

وفي اليوم التالي أعطاه السيد دي رينال وزوجه خطابات التوصية التي طلبها لتشد من أزره في بلاط فرنسا .

قال جوليان في نفسه : إن الكذب والبهتان في كل مكان . فها هو ذا السنيور جيرونيمو يذهب إلى لندن ليغنى بستين ألفا من الفرنكات . ولولا براعة مدير مسرح سان كارلينو ما عرف صوته الجميل وما ذاع صيته إلا بعد عشرة أعوام . إني أفضل أن أكون مثل جيرونيمو فذلك خير من أن أكون كالسيد دي رينال ، لأن الأول ، وإن فقد المكانة الاجتماعية والتبجيل الذي يلقاه العمدة ، فلن يصيبه حزن أو أسف في مزاد كمزاد هذا اليوم ، إنه يحيا حياة يسودها المرح والسعادة .

عجب جوليان من أن الأسابيع التي قضاها في ثريير وحده بمنزل السيد دي رينال ، كان سعيدا فيها تماما ؛ لم يشعر بالبغضاء ولا الكراهية ولم يتألم من الأفكار السقيمة إلا في المآدب التي كان يغشاها . ألم يقرأ ويكتب ويفكر وهو في عزلته دون أن يزعبه أحد ؟

ولم ينتزعه في هذه الفترة من أحلامه منتزع ، ليرى حركات أئيمة تصدر من نفوس دينئة ، ولا ليخدع نفوس الناس بما يملكه عليه النفاق .

ذكر هذا فقال في نفسه : أيقرب منال السعادة إلى هذا الحد ؟ ... إن قضاء الحياة على هذا النحو سهل مستطاع ، ففي وسعي أن أتزوج الأنسة إليزا ، وأن أشارك فوكيه في تجارته كما أشاء ... ولكن المسافر الذي يصعد جبلا وهو مسرع ، يجد اللذة كل اللذة في أن يجلس على القمة ليستريح قليلا . ولكن هل يشعر بنفس السعادة لو اضطر إلى راحة دائمة ؟ .

أما مدام دي رينال ، فقد كتبت عليها ألا تخفى شيئا عن جوليان . وعلى الرغم من عزمها على ألا تطلعه على شيء فقد أخبرته بأمر المزاد ، ثم قالت لنفسها : إنه ينسيني إذاً كل قسم !

كانت من قبل لا تتردد في أن تضحى بنفسها لتتخذ حياة زوجها إن رآته في خطر ، ونفسها من تلك النفوس النبيلة التي يتحكم فيها الخيال ، والتي إذا أتيج لها أن تفعل خيرا ولم تفعله استهدفت لألم وتأنيب ، حتى كأنها ارتكبت جريمة . لكنها اليوم تمرّ عليها أيام وهي في بؤس وحزن ؛ لأن فكرة تسلطت عليها فألقت في زوعها أن السعادة الكاملة في أن تفقد زوجها هذا لتستطيع أن تتزوج بجوليان .

وكان هو يحب أولادها فوق ما يحبهم أبوه ؛ وكان معبود تلاميذه على الرغم من عدله القاسي . وكانت مدام دي رينال تدرك أن عليها مغادرة فرجى إذا ما تزوجت جوليان ، وإن كانت ظلها جدا عزيزة عليها .

تصورت نفسها مقيمة في باريس ، دائبة على تعليم أولادها بالطريقة التي أعجب بها الناس ، وتصورت أنها هي وأطفالها وجوليان سعاداء كل السعادة .

لشدّ ما أصبح الزواج عجيباً في القرن التاسع عشر ! إن السأم الذي يصيب الحياة الزوجية يقضى ولا ريب على الحب، إذا ما سبق الحبّ الزواج ومع ذلك فإن فيلسوفاً يقول بأن الأغنياء وحدهم هم الذين يشعرون بالملل ويزهدون في ملذات الحياة الهادئة لأنهم لا يعملون؛ فتبعث البطالة في نفوسهم ما يعانون . أما النساء اللاتي لا تنهين أنفسهن ، فهنّ جامدات العواطف .

ورأى هذا الفيلسوف يحلمنى على أن ألتمس عذراً لمدام دي رينال ، وإن كان أهل ثريير لا يلتمسون لها عذراً ، فأصبحت المدينة كلها مشغولة بقضائح غراءها وهي لا تعلم ، ولم يحسوا سأمًا طول فصل الخريف ، لأنهم في شغل بهذا الحدث العظيم .

ثم انقضى الخريف وجزء من الشتاء كذلك في سرعة ، وأصبح من الحتم أن تغادر الأسرة غابات ثرجى . وبدأت الطبقة الراقية في ثريير تتأذى من مسلك السيد دي رينال ، وتعجب له لأنه لم يبد اهتماماً بالمواعظ التي اتهمت بها زوجته . وفي أقل من ثمانية أيام ، أثار بعض الناس في نفسه شكوكاً مرّةً ألقوها إليه في عبارات حذرة متحفظة، وهم من الذين عرفوا بالوقار ، فهم إنما يدخلون على أنفسهم بما يفعلون سروراً يدفع عزّ قلوبهم مللاً جدّاً فطروا عليه .

أما السيد ثالغو فكان يلعب دوره فطنا بصيراً ، فقد أدخل إليزا منزل أسرة من الأشراف لها مكاتنها بين الناس ، وإن كان بالمنزل خمس سواها . وقد زعمت هي أنها تحشى ألا تجد عملاً في الشتاء فلم تطلب من الأسرة إلا ثلثي الأجر الذي كانت تأخذه في منزل العمدة . وذهبت من نفسها إلى الخورى السابق الأب شيلان لتعترف أمامه ثم إلى الخورى الجديد ، مبتغية من وراء ذلك أن تقص عليهما تفاصيل المغامرات الغرامية بين جوليان ومدام دي رينال .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالى لوصولها ، استدعى الأب شيلان جوليان وقال له :

— لا أطلب منك أن تقول لى شيئاً فأرجوك بل أمرك إذا اقتضى الأمر ألا تقضى إلى بشيء ؛ لكننى أريد منك أن تذهب إلى بيزانسون بعد ثلاثة أيام لتدخل المدرسة الاكليريكية ، أو اذهب إلى صديقك فوكيه فأقم معه وهو لا يزال على أتم استعداد لأن يهيء لك مستقبلاً مجيداً . لقد توقعت كل شيء وأعددت لكل أمر عدته ، فعليك أن ترحل وألا تعود إلى فريير قبل أن ينقضى عام على غيابك .

لم يجب جوليان ، وفكر فيما إذا كان شرفه أهين باهتمام الأب شيلان بأمره ، والخورى على الرغم من كل هذا ليس أباه . ثم قال بعدما فكر :  
— سأتشرف غداً بلقائك في مثل هذه الساعة .

فأراد الأب شيلان أن يكسب المعركة فتكلم كثيراً . لكن جوليان انطوى على نفسه متظاهراً بالخضوع والخشوع ولزم الصمت . ثم أسرع

من عنده إلى مدام دي رينال ليخبرها بما جرى بينه وبين الخورى ، فإذا بها فريسة لليأس ، لقد حدثها زوجها فى شىء من الصراحة ، وإن حمله ضعف خلقه الطبيعى ، والميراث المنتظر ، على أن يؤمن بأنها بريئة . وكاشفها بالحالة العجيبة التى رأى الرأى العام عليها فى ثريير . إلا أن الناس مخطئون وإنما أضلهم الحساد ، ولكن ما العمل ؟

ووقعت هى تحت سلطان أمل باطل بعض الوقت ، فاعتقدت أن فى وسع جوليان أن يقبل المنصب الذى عرضه عليه فالنولىبقى فى ثريير . لم تعد هى تلك الساذجة الخجول كما كانت فى عامها الماضى ، لأن نفسها استنارت بحبٍ قَدْرٍ ، وبألم عظيم ووخز ضمير . ولشد ما تألمت وهى تستمع إلى زوجها وتقدر فى نفسها أن تتعد مؤقتاً عن جوليان .

قالت فى نفسها : إذا ابتعد عنى عاودته مشروعاته التى ترمى إلى الطموح ، وهى مشروعات طبيعية جداً بالنسبة إلى كل فقير .

أما أنا يا إلهى فغنية جداً ! ولكن ترائى لا يحقق لى لونا من ألوان السعادة ! سينسانى جوليان . سيحبّ غيرى وتحبه امرأة سواى ؛ لأنه خلق ظريفاً ، آه ! يا لى من بئسة ! ... ولكن ممّ أشكو ؟ إن السماء لعادلة ، ولا فضل لى فى أن أقف الجريمة عند هذا الحدّ . لقد غلبت على أمرى . وكان فى استطاعتى أن أسكت إليزا بما أغدقه عليها من المال ، وما كان أهونه ، لكنى لم أفكر فيه فى وقت من الأوقات ، لأن حب جوليان شغل كل أوقاتى . لقد هلكت .

ولما أفضى إليها جوليان بنجر رحيله ، لم يمل عاينها حبها نفسها أن تعترض

بأى اعتراض ، فذهل ، وما كان يعلم أنها بذلت مجهوداً كبيراً حتى لا تجهمش  
بالبكاء ، ثم قالت له :

— نحن يا صديقي فى حاجة إلى العزم .

وأهوت على شعرها فقضت خصلة منه ، ثم قالت بعد ذلك :  
— لست أعلم يا جوليان ما أنا مقدمة عليه ، فعدنى بالأآ تنسى  
أولادى إذا فارقت الحياة . حاول أن تخلق منهم رجلاً أمناء على بعدك  
عنهم أو على قربك منهم . وإذا شئت ثورة جديدة فاعلم أن الأشراف  
جميعاً سيقتلون . وربما هاجر أبوم بسبب الفلاح الذى قتل فوق أحد  
سطوح المنازل . اسهر على الأسرة ... هات يدك : وداعاً يا صديقي !  
هذه آخر لحظة تقضيها معاً . وما دمت قد أقدمت على هذه التضحية  
الهائلة ، فأنا أرجو أن تتاح لى الشجاعة ، حتى أفكر فى إصلاح عار لحنى  
أمام الناس .

كان يعتقد أن ساعة الوداع ستكون أليمة شاقة ، ولكن بساطة  
وداعهما تركت فى نفسه أكبر الأثر ، فقال لها :

— لا ، لا أريد أن يكون وداعنا على هذه الصورة . سأرحل  
قطعاً لأنهم يريدون ذلك ، وأنت نفسك حريصة على رحيلى . سأرحل  
وسأعود بعد ثلاثة أيام لأراك فى منتصف الليل .

تغيرت حياة مدام دى رينال . إن جوليان يحبها إذاً حباً صادقاً  
مادام قد أخبرها بأنه سيعود ليراها ! وتحول جزئها الأليم إلى فرح شديد  
لم تحسه نفسها من قبل . وأصبح كل شىء فى نظرها سهلاً يسيراً ! لأن



تقتها برؤية حبيبا مرة أخرى نزعته من نفسها حرارة الفراق وموقف التوديع ، فتكلمت قسماتها وحركاتها بنبل وثبات ووقار .

ثم عاد السيد دي رينال بعد قليل مغيظاً حانقاً . وتحدث أخيراً إلى زوجه عن الخطاب المجهول الذي تسلمه منذ شهرين قائلاً لها :

— أريد أن أحل هذا الخطاب معي إلى النصف لأبين للناس أن

كاتبه هو الحقير فالتو الذي انتقلته من وهدة الفقر ، وجعلته من أغنى البرجوازيين في فريبير . سأحقق له خزيًا وعارًا أمام الناس ، ثم أقاتله بعد ذلك . إن هذا شيء فظيع .

فقالت في نفسها : سأكون إذن أرملة يا إلهي ! لكنها قالت في نفس

اللحظة : إذا لم أمنع هذه المبارزة كنت قاتلة زوجي . وما أيسر أن أحول بينهما وبين القتال .

واستطاعت أن تخفي كبرياءها في مهارة لم تتح لها من قبل . وفي أقلّ

من ساعتين ؛ تمكنت من إقناعه بأنّ عليه أن يظهر الصداقة والود للسيد

فالتو ، وحملته على أن يدلّل بنفسه على صواب رأيها . وذهبت إلى أبعاد

من هذا فاقترحت عليه أن يعيد إليزا إلى عملها في المنزل . وكانت مدام

دي رينال في حاجة إلى كثير من الشجاعة لترجع هذه الفتاة إلى منزلها

لأن إليزا سبب ما نزل عليها من بلاء . ولكنه رأى أوصى به جوليان

ولا بدّ لها من أن تطيع .

وأخيراً هدت زوجها إلى الطريق ثلاث مرات أو أربعاً ، وأخذ

هو يفكر من تلقاء نفسه في تلك المسألة المالية المعقدة المرهقة : لأن أخوف

ما يخافه أن يبقى جوليان في فرير معاهم الأولاد السيد فالنو، بين هذا الهياج العام وتلك الأقاويل التي تدنس شرفه. ومصلحة جوليان تقضى عليه أن يقبل ما عرضه عليه مدير الصدقات، ومجد السيد دي رينال يحتم عليه أن يغادر جوليان فرير ليدخل المدرسة الاكليريكية في بيزانسون أو مدرسة ديحون. ولكن كيف السبيل إلى إقناع جوليان بذلك؟ ثم كيف يعيش في المدرسة لو اقتنع برأى العمدة؟

ورأى دي رينال أن التضحية بالمال قاب قوسين أو أدنى فيئس أكثر من يأس امرأته التي أصبحت بعد هذا الحديث زاهدة في كل شيء، كأنها رجل شجاع كافح الحياة حتى زهدها فتجرع الداتورة، وصارت حركاته آلية لأنه زهد في كل شيء. وهذا ما وصلت إليه حالة لويس الرابع عشر فقد قال وهو يموت: حينما كنت ملكا « فياله من قول بارع! وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، تسلّم دي رينال خطاباً غفلاً كتب بأسلوب بذيء. ينطوي كل سطر من سطره على كلمات جارحة تحطّ قدره ومكانته. إنه من عمل أحد مرؤوسيه الذين يحسدونه على نعمته، وأعاد إليه هذا الخطاب فكرة قتال السيد فالنو، حتى سوّلت له شجاعته أن ينفذ رأيه في الحال، فخرج وحده إلى صانع أسلحة واشترى منه مسدسات حشاها بالرصاص.

ثم قال في نفسه: حقاً إن الإدارة الحازمة التي كانت من سمات عصر الإمبراطور نابليون ستعود إلى الدنيا من جديد، وإذا ما كان هذا فلن يستطيع أحد أن يتهنئ بأني سرقت سنتيما واحداً؛ إن كل ما فعلته

أني أمرت أن أغض الطرف عن السرقات كما تشهد بذلك خطابات حفظها في مكنتي ، لقد صدعت بما أمرت ولم أفعل سوى ذلك !

اضطرت مدام دي رينال كثيراً للغضب الهادئ الذي استولى على زوجها وذكركه بما جاشت له نفسها ولم تستطع له دفعاً ، وهو أنها ستصبح أرملة . وانفردت به ساعات طويلة تتحدث إليه فذهب حديثها أدراج الرياح ، لأن الخطاب المجهول الجديد خلق فيه عزماً لا يدفع . ثم استطاعت أن تحول شجاعته التي تريد صفع قائلها إلى ستمائة فرنك يأخذها جوليان وهي مصروفات المدرسة الإكليريكية لمدة عام . وكم نغم السيد دي رينال بعد ذلك على اليوم المشئوم الذي فكر فيه أن يتخذ لأبنائه معلماً حتى أنسته نغمته هذه ما بعثه في نفسه الخطاب المجهول .

ثم سرى عن نفسه بفكرة لم يصارح بها امرأته ، وهي أنه يستطيع أن يستغل أفكار هذا الشاب التي تميل إلى الخيال ، ويأمل ، إن هو استعمل المهارة ، أن يرفض جوليان اقتراح السيد فالنو ويعمل عنده بمبلغ أقل من المبلغ الذي عرضه عليه مدير إدارة الصدقات .

صادفت مدام دي رينال مشقة كبيرة في إقناع جوليان بأنه مادام قد خشي من أجل زوجها بعمل يدرّ عليه ثمانمائة فرنك عرضه عليه السيد فالنو كما يعلم الناس جميعاً ، فليس عليه من ضير إذا قبل تعويضاً عن تضحيته ، ولكن جوليان كان يقول لها دائماً !

— ما فكرت أبداً في قبول ما عرضه على السيد فالنو . وأنتم قد

عودتموني الحياة الراهمة الناعمة الرقيقة . وفضاظة أمثال هؤلاء الناس كنفيلة  
بأن تقضى على .

ثم تغلبت وطأة الفقر فأضعفت إرادة جوليان . وإن خيل إليه  
غروره أنه يستطيع قبول المبلغ المعروض من عمدة فريير على أن يكون  
قرضا بصكّ عليه يدفعه بعد خمس سنوات مع أرباحه .

وكانت مدام دي رينال لا تزال محتفظة ببضعة آلاف من الفرنكات  
خبأها في مغارة الجبل . فعرضت عليه هذا المبلغ وهي مضطربة واثقة من  
أنه سيرفض في غضب شديد ، فقال لها جوليان :

— أتريدن أن تكون ذكرى حبنا ألّمة مرة ؟

ثم غادر فريير . فشعر السيد دي رينال بعد ذلك بسعادة لا تحدّه .  
غادر فريير بعد أن قدّم إليه العمدة المال في لحظة كان فيها جوليان جريح  
القلب ، فرفض المال بإباء وشمم ، فلم يسع العمدة إلا أن يعانقه في فرح شديد  
والدموع تترقق في عينيه . ثم طلب منه جوليان شهادة بحسن السلوك ،  
فلم يجد في مثل هذه الساعة الفرحة السعيدة ، كلمات رائعة ولا تعابير جميلة ،  
يستعين بها على تسطير ما يجول بخاطره مثنيا على سلوكه الرفيع . ولم يكن  
مع بطلنا سوى خمسة لويسات كان قد اقتصدها . وقد عزم على أن يقترض  
مثلها من صديقه فوكيه .

كان بالغ التأثير لكنه لم يكذب بعد عن فريير بفرسخ واحد حتى  
فكر في السعادة التي سيلقاها حين يرى عاصمة كبيرة ، ومدينة حربية

عظيمة مثل بيزانسون . فكرت في هذا وإن خلف وراءه في فريير حبا  
مخلصا عميقا .

وفي غيبته القصيرة التي لم تكن سوى ثلاثة أيام وقعت مدام دي رينال  
فريسة لعاطفة قوية عنيفة ، وإن كانت تعتقد أنها ستصبر على فراق الحبيب ،  
كانت حياتها مجرد زمن يمر ، وإن حال بينها وبين الشقاء العظيم ماسيكون  
من لقاء جوليان للمرة الأخيرة . كانت تعد الساعات والدقائق التي بقيت  
بينها وبينه . ثم حلت ليلة اليوم الثالث ، فسمعت من بعيد الإشارة المتفق  
عليها ، وبعد أن عرض جوليان نفسه لكثير من المخاطر رآته ماثلا  
بين يديها .

لم تعد تفكر في هذا الوقت إلا في شيء واحد هو أنها رأت حبيبها  
لآخر مرة . كانت نفسه تفيض بالحياة والفرح ، أما هي فكانت جسداً  
فيه بقية أنفاس ، تدب فيه الحياة ديباً خفيفاً . فإذا ما حملت نفسها على أن  
تقول : إنني أحبك ، خرج الكلام من بين شفثتها خالياً من الحرارة  
والمهارة وكأنه ينبىء بعكس ما تقول . ولم يكن في الدنيا كلها ما يستطيع  
أن يبعد عن ذهنها فكرة الفراق إلى غير عودة . أما جوليان فصور له  
حذرهما أنها قد نسيتته . ولم يكن ردّها على ما ظنّه حبيبها بها إلا دموعاً  
كبيرة تتساقط على الخدين في صمت ، وضغطاً شديداً على يدي جوليان .  
وإن ألمها ما يقول وبرح بها ما يزعم . ثم وجهت إليه لوماً ، فجاء فآثراً خفيفاً  
فقال لها :

— ولكن ، يا إلهي ! كيف تريدني مني أن أصدقك ؟ وأنت تظهرين

لمدام درقيل من الصداقة أكثر مما تظهرينه لى مائة مرة ، وماهى إلا إحدى صومجباتك .

فانزعجت ، ولكنها لم تعرف كيف تجيب ، وقالت له :  
— لقد بلغت تعاستى غايتها . . . وأرجو أن أموت . . . إنى لأشعر  
بأن قابى لم تعد فيه حرارة الحياة . . .  
وهذه أطول إجابة استطاعتها .

وبدا ضوء النهار يغمر الكون ويفرق الشمل ، فجمدت دموع مدام  
دى رينال تماماً . ورأته يربط فى النافذة حبلا دون أن يتكلم أو يتزود  
منها بقبلة . وعبثاً حاول أن يعيد إليها بعض قوتها أو يبعث فى حركاتها  
شيئاً من النشاط حين قال لها :

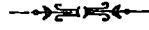
— هانحن أولاء قد وصلنا اليوم إلى ما كنت تؤملينه من زمن  
طويل . وفى وسعك الآن أن تعيشى فى غير لوم أو أسى ، وإذا أصاب  
أطفالك أقل سوء فلا تنزعجى فإنهم لن يموتوا .  
فقال فى فتور :

— يؤسفى أنك لا تستطيع تقبيل ستانيسلاس .  
لقد ذهل جوليان كثيراً من قبلاتها التى كانت لاحرارة فيها ، كأنها  
قبلات جنة هامدة ؛ واصلت على نفسه هذه الفكرة لعدة فراسخ . كان  
حزين النفس . وحينما كان يستطيع أن يرى ناقوس كنيسة ثريير ، قبل  
أن يعبر الجبل ، فإنه لم يفتر عن أن يتلقت . (م — ١٦ ستندال ، ١٠)

## الفصل الرابع والعشرون

### عاصمة

[ ياله من صخب ! ويا لكثرة الشغولين بأعمالهم !  
ويا لتلك الأفكار التي تملأ رأس شاب في العشرين  
من عمره عن مستقبله ! وبالكمرة ما يجد الحب من هو  
وعبت . ]  
بارناف



طلاعته وهو على قمة جبل بعيد أسوار سوداء ، تبين منها قلعة  
بيزانسون ؛ فتنهّد وقال : إنه بون شاسع ، ليتني دخلت هذه المدينة  
الحربية المجيدة ، برتبة الملازم الثاني في فرقة كلفت بالدفاع عن المدينة !  
ليست بيزانسون من أجل مدن فرنسا فحسب ، ولكنها كذلك  
مكتظة بقوم أذكاء شجعان ، وإن لم تتح لجوليان الفلاح الساذج وسيلة  
التقرب من رجالها الممتازين ، ولا فرصة مخالطتهم .

أخذ جوليان من فوكيه ثوباً من ثياب الطبقة البرجوازية ، كان  
يلبسه وهو يعبر الجسور القلابية . وكان يذكر تماماً تاريخ حصار سنة ١٦٧٤  
فأراد أن يرى أسوار القلعة قبل أن تطلق عليه أبواب المدرسة الإكليريكية ،  
وأوشك أن يقع في أيدي الحرس مرتين أو ثلاثاً ، لأنه دخل أما كن  
حرمات الأوامر الحربية على الناس أن يدخلوها ، حتى يباع منها في كل عام  
حشائش بائني عشر أو خمسة عشر فرنكا . وشغل ساعات برؤية الأسوار  
المرتفعة ، والحفر العميقة والمدافع الضخمة المزعجة . وكان لا يزال يفكر

في هذا كله وهو ير أمام المقهى الكبير في الشارع الرئيسي ، وأعجب بما رأى ، ثم وقف حائراً دهشاً حين قرأ كلمة المقهى التي كتبت بحروف كبيرة في أعلى البابين ولكنه لم يصدق عينه . وأخيراً تقلّب على حياته ، ودخل إلى حيث رأى بهواً طويلاً يبلغ ثلاثين خطوة أو أربعين ، عليه سقف يرتفع إلى عشرين قدماً على لأقل . وكان جوليان في ذلك اليوم لا يرى شيئاً إلا أعجب به .

احتشد حول منضتين « للبياردو » جمع عظيم ، والنذل يصيحون بالأعداد في كل مرة يفوز فيها أحد اللاعبين من الذين يهرولون حول المنضتين ، وحولمهم لقيف من المتفرجين . وتضاعفت حلقات متتابعة من الدخان من أفواه الحاضرين ، فعددت حوالم سحابة زرقاء . وأثار انتباه جوليان قامات هؤلاء الرجال وأكتافهم المستديرة وخطواتهم الثقيلة وشعرهم الغزير المتدلى على وجوههم وثيابهم الطويلة التي تسبغ على الأجسام ، وكان كل شيء يثير انتباه جوليان ؛ هؤلاء الشرفاء أبناء بيزانسون القديمة العريقة الذين لا يتكلمون إلا صائحين ، يسبغون على أنفسهم هيئة الحاربين الأجداد . وعجب جوليان بما رأى وهو في مكانه لا يريم ، أخذ يفكر في ضخامة العاصمة وروعها الجميدة . ولم تواته الشجاعة ليطلب فنجاناً من القهوة من أحد السادة ذوى النظرات المتكبرة والذين يصيحون معلنين أعداد البياردو .

ولكن الأنسة التي عهد إليها بالوقوف خلف « بنك » المقهى رأت وجه هذا الزيفي الجليل البرجوازي المظهر ، وهو على بعد ثلاث خطوات



من المدفأة ، يحمل تحت ذراعه صرّة صغيرة ، مستغرقاً في تأمل تمثال  
نصفى للملك ، صنع من الجص الأبيض الجميل . والآسة من مقاطعة فرانس  
كوتنى ، فارة القامة منسقة الجسم ، أحسن اختيارها لتجيب المقهى  
إلى الرواد . فنادت جوليان مرتين بصوت خفيض ؛ لكيلا يسمعها سواه  
قائلة : سيدى ! سيدى !

والتفت إليها فصادفت عيناه عينين زرقاوين كبيرتين ، يشع منهما  
حنان ورقة ، وعلم أنه هو المقصود بالنداء . فسار نحوها مسرعاً واقترب  
من « البنك » مهرولاً كأنه يسير للقاء عدو ، فسقطت لسرعته الصرّة  
التي يحملها .

ولو أن طلاب المدارس الثانوية الباريسيين رأوا هذا الريفى لأشفقوا  
عليه لأنهم يحسنون دخول المقاهى بطريقة ممتازة وهم فى الخامسة عشرة من  
العمر ! لكن هؤلاء الأطفال الممتازين فى هذه السن لا يكادون يبلغون  
الثامنة عشرة حتى يصبحوا عاديّين . والحياء الشديد الذى تراه فى الريف  
يتغلب عليه أحياناً ويحمل على أن يُستهى .

كان جوليان يقترب من تلك الفتاة الجميلة التى تفضلت عليه بالحديث ،  
وهو عازم على أن يخبرها بالحقيقة بعد أن خلع عذار الحياء .  
فخاطبها قائلاً :

— سيدتى ، جئت إلى بيرانسون اليوم لأول مرة فى حياتى وأريد  
خبزاً وفرنجان قهوة ، وسأدفع الثمن .  
فابتسمت الآسة قليلاً ، ثم اصطبغ وجهها بالحمرة ، لأنها خشيت

أن ينتبه لاعبو « البلياردو » إلى هذا الشاب الجميل فيعيشوا به ساخرين ،  
فينصرف ولا يعود . فأشارت إلى منضدة من الرخام يكاد يخفيها « البنك »  
الكبير الذى اتخذ من خشب الكابلى وشغل جزءاً من القاعة ،  
وقالت له :

— اجلس هنا .

ولما تمايلت الأنسة خارج البنك ، ظهر قوامها الفارع الرائع . وراها  
جوليان فتغيرت آراؤه . ثم وضعت أمامه قدحاً وسكراً وخبزاً . وترددت  
طويلاً فى مناداة الخادم ليصب له القهوة ، لأنها تعلم أن وجوده يحول بينها  
وبين أن تخلو به .

فكر موازناً بين جمالها الأشقر المرح ، وبين ذكريات كثيراً ما هزت  
مشاعره . وسيطرت عليه فكرة الحب الذى لقيه من قبل ، فنزعت من  
نفسه ما فطرت عليه من حياء وخجل . ولم يكن أمام الأنسة الجميلة إلا  
لحظة قصيرة ، فقرأت فى نظرات جوليان ما يدور بنفسه . ثم قالت :

— إن دخان « الشبكات » يجلب لك السعال ، فتعال غداً فى الصباح  
قبل الساعة الثامنة لتتناول الفطور ، وسأكون وحدى تقريباً فى هذا  
الميعاد . فابتسم جوليان ابتسامة لطيفة تفيض بالحياء السعيد ، وقال :

— ما اسمك ؟

— أماندا بينيه .

— أسمحين أن أرسل إليك بعد ساعة صرة صغيرة كهذه

التي أحملها ؟

ففكرت أماندا الجميلة قليلاً قبل أن تقول :

— بعض العيون ساهرة علىّ : وما تطلبه الآن قد يعرضني لقبل

وقال ؛ ومع ذلك فسأكتب عنواني على بطاقة تضعها فوق الصرة التي تريد إرسالها ، ثم افعل ولا تبالي بشيء .

— أنا جوليان سورل ؛ ولا أقارب لي ولا معارف في بيرمانسون .

— آه ! أدركت الآن ، أجنحت لتلتحق بمدرسة الحقوق ؟

— واأسفاه ! بل أرسلوني لأدخل المدرسة الإكليريكية .

فارتسمت على وجه أماندا علامات بأس أليم ، ثم نادى الخادم .

ها قد عادت إليها شجاعتهما الآن . وصب الخادم القهوة في قدح

جوليان دون أن يلتقي عليه نظرة .

وشغلت أماندا خلف « البنك » بأخذ النقود ، وكان جوليان فخوراً

بنفسه ، لأنه جرؤ على أن يتحدث إلى هذه الفتاة الجميلة : وفي هذه اللحظة

نشب حول منضدة من مناضد البلياردو شجار . وكانت القاعة تدوى

بصيحات اللاعبين وتكذيب بعضهم بعضاً ، فذهل جوليان ذهولاً شديداً .

أما أماندا فكانت تفكر حاملة ، وقد غضت من بصرها .

فقال جوليان فجأة في ثقة وعزم :

— إن شئت يا آنستي زعمت أنني ابن عمك .

فأعجبت بما في نبراته من معاني السيطرة ، وقالت في نفسها : ليس

هذا الشاب تافهاً كغيره من الشبان . ثم قالت في عجلة دون أن تنظر

إليه ، لأن عينها تراقب ما إذا كان أحد يقترب من « البنك » :

— أنا من جنليس الواقعة على مقربة من ديجون ، فادع أنك من جنليس كذلك وأنت ابن عم أمي .

— لك ذلك .

— إن تلاميذ المدرسة الإكليريكية يمرون أمام القهى في الساعة الخامسة من أيام الخميس أثناء الصيف .

— إذا كنت تفكرين في فاحلى في يدك باقة من البنفسج حين أمر من هنا .

فنظرت إليه أماندا في دهشة ؛ وحولت هذه النظرة شجاعته إلى جرأة عظيمة ، ومع ذلك فإن وجهه احمر من الخجل وهو يقول :

— إننى أشعر بأننى أحببتك حباً عنيماً .

فقالت وهى مرتاعة :

— تكلم بصوت خافت .

ذكر جوليان أنه قرأ شيئاً من جزء فريد فى كتاب هيلويز الجديدة حين وجده فى فرجى . فاستعان بذاك كرتة على استعادة ما قرأ ، ولبث عشر دقائق يسمع أماندا الجميلة دون أن تخونه الذاكرة ، ولشد ما كانت مرتاحة إلى ما تسمع ، ولشد ما كان هو سعيداً بشجاعته وجرأته . ثم تبدل محياً وجهها الجميل فجأة وعلاه فتور شامل ، وذلك لأن أحد عشاقها ظهر عند الباب : ثم اقترب من « البنك » وهو يصفر ، هازاً كتفيه ونظر إلى جوليان فظن بطلنا أنه يسخر منه حتى بدا له أن يبارز الرجل ، لأنه ذو خيال من طبعه المغالاة والمبالغة فى كل ما يعالج من أمر ، وعلاه شحوب ،

ثم نحى القدح بعيداً عنه ، واتخذ هيئة الواثق بنفسه ، وهو ينظر إلى غريمه في انتباه شديد . أحنى الغريم رأسه على البتلك وصبّ فوقه كأساً بطريقة ودية لا تكلف فيها ، فانهزت أماندا هذه الفرصة ونظرت إلى جوليان تأمره أن يعضّ من بصره . فامتثل وبقى دقيقتين في مكانه لا يتحرك لكنه شاحب ، تبدو عليه دلائل العزم ، لا يفكر إلا فيما سيحدث .  
وكم كان رائعاً في هذه اللحظة ! عجب الغريم من نظرات جوليان إليه وجرع كأسه دفعة واحدة ثم قال لأماندا كلمة ، ووضع يديه في الجيبين الجانبين « لردنجوته » السميكة ، سائراً نحو إحدى مناضد البلياردو ، وهو يهمس بكلمات وينظر إلى جوليان . فوقف هذا غاضباً ، لكنه لم يعرف كيف يكون وقحاً . ووضع صرته ثم سار إلى منضدة « البلياردو » متبخرّاً على قدر ما يستطيع .

وهناك تاب إليه رشده فقال : لو أنى بارزته عقب وصولي إلى بيزانسون فعلى مهنتي الكنسية السلام . ثم عاد فقال :

— ليكن ذلك ، ولا يقال : إنى تحمّلت إهانة رجل وقح .

رأت أماندا شجاعته التي تتعارض مع سذاجته ، فسرعان ما فضلته على ذلك الشاب الطويل الذي يلبس « الزدنجوت » . فنهضت مسرعة حتى وقفت بين جوليان وبين المنضدة ، وهي تتصنع النظر إلى الخارج كأنها تتابع بصرها إنساناً في الشارع . ثم قالت له :

— احذر أن تنظر إلى هذا السيد نظرة تحداً أو احتقار فإنه صهرنا

— وماذا يعني؟ لقد نظر إلىّ هو .

— أتريد أن تكون سبباً في شقائي؟ لا شك في أنه نظر إليك ،  
وربما عاد إليك ليحدثك ؛ لأنني أخبرته أنك قريب أمي وقد هبطت  
من جنليس . أما هو فمن مقاطعة فرانش كوفتي ولم يذهب بعيداً عن  
« دول » التي هي في طريق بوجونيا ؛ وعلى هذا فقل ما تشاء  
ولا تخش شيئاً .

فتردد جوليان قليلاً ، على حين استطردت هي في سرعة متحدتها  
مثيلاتها في المهنة ، لأن الخيال يسمعن بأكاذيب لا حد لها :

— لا شك في أنه نظر إليك ، وكان ذلك في اللحظة التي سألتني  
فيها عنك ؛ إنه رقيق الحاشية مع جميع الناس ، ولم يقصد إهانتك إطلاقاً .  
كانت عينا جوليان لا تكفان عن متابعة الصهر المزعوم ؛ فرآه  
يشتري رقماً في لعبة البولة وهي ضرب من ألعاب البليارد ، وسمعه يقول  
بصوته الأجرس الغليظ مهدداً : لك الويل ! فمرّ سريعاً خلف الأتنة  
أماندا وخطا نحو « البلياردو » خطوة ، فأمسكته هي من ذراعه قائلة :  
— تعال ادفع أولاً ثمن ما طلبت .

فقال في نفسه : إنها على صواب ؛ لعلها تخشى أن أغادر القهى ،  
دون أن أدفع الحساب . وكانت أماندا بدورها ظاهرة الاضطراب .  
تكسو ووجهها حمرة ملتبهة ، وقد تمهلت كثيراً وهي تعيد إليه باقي نقوده ،  
وتقول في صوت منخفض :

— أخرج حالا وإلا أعرضت عن حبك ؛ أخرج فأنا أحبك  
حياً جماً .

أطاع أمرها لكنه خرج في بطن ثقيل وهو يتحدث نفسه : أليس  
من واجبي أن أذهب لأنظر بدوري إلى هذا الوقح البذيء ، ثم أصفعه ؟  
وحملته هذه الفكرة على البقاء ساعة في الشارع أمام المقهى ينتظر  
خروج هذا الشاب ، فلم يره يغادر المقهى فابتعد سائراً في طريقه .  
وهكذا أصاب جوليان شيء من الخزي قبل أن تمرّ عليه في بيزانسون  
بضع ساعات . وكان الضابط الجراح العجوز قد علمه دروساً في المبارزة  
بالسيف — وإن كان مصاباً دائماً بمرض النقرس — فكانت هي كل  
عدته إذا غضب . لم يكن يعرف طريقة سواها وسوى الصقع ، ولو كان  
يعلم ثلاثة ما وقع فيما وقع فيه من الارتباك ، ولو أنه لا كم غريمه لقهره  
الغريم ، وجعل منه سخرية للناس لأنه رجل ضخم .

ثم قال في نفسه : لست أنا إلا شخصاً فقيراً لا عضد له في المدينة ،  
فالمدرسة إذن والسجن عندي سواء . يجب أن أضع ملابس البرجوازية  
هذه في نزل وأرتدى لللباس السوداء . وعلى أن ألبس الأولى إذا  
خرجت من المدرسة ساعة من زمن لأقابل بها الأنسة أماندا . وكان  
تفكيراً سليماً جميلاً ، لكنه مرّ بجميع فنادق المدينة ولم يجرؤ على دخول  
واحد منها .

ثم سار مرة أخرى أمام فندق السفراء فالتقت عيناه الحائرتان بعيني  
امرأة بدينة لا تزال شابة ، وضاححة اللون ، عليها علامات السعادة والمرح .

فأقرب منها وقصّ عليها قصصه . فقالت صاحبة فندق السفراء :

— لا ريب أنتى سأحفظ بملابسك البرجوازية ، أيها الخورى الشاب الجميل . وسأظفها كثيراً مما يعلق بها من غبار ، لأنه لا يجوز فى هذا الوقت أن تترك ملابس الصوف مدة طويلة بدون تنظيف . ثم تناولت مفتاحاً وقادته بنفسها إلى غرفة ، وطلبت منه أن يكتب مذكرة بما سيتركه ، ثم قادتة إلى المطبخ وقالت له :

— يا إلهى ما أجملك فى هذه الملابس أيها السيد الخورى سورل ، سأذهب لأحمل لك بنفسى طعاماً شهياً . واستطردت فى صوت منخفض : وهذا الطعام لن يكلفك أكثر من فرنك واحد على حين يدفع فيه غيرك فرنكين ونصفاً وبضعا . يجب ألاّ نزهق مالك القليل . فأجابها فى كبر كثير :

— معى عشرة لويسات . فارتاعت وقالت :

— آه ! يا إلهى ، لا ترفع صوتك هكذا فى بيزانسون كثير من السفلة . وهم على استعداد ليسرقوا منك مالك فى لحظة العين . لا تتردد على المقاهى لأنها مليئة بالرعاع .

وأثارت كلماتها تفكيره فسألها :

— أحقاً ما تقولين !

— تعال إلى دائماً وسأقدم إليك القهوة . ولا تنس أبداً أن هنا صديقة وطعاماً شهياً بفرنك واحد ، بهذا أعدك فأرجو أن تجيب رجائى .



هيا اجلس إلى المائدة لأقدم لك الطعام بنفسى .  
— أنا لا أشتهى الطعام لأنى جدّ مضطرب . سأدخل المدرسة توّا  
بعد أن أفارقك .  
... ولم تتركه هذه المرأه الطيبة يغادر فندقها إلا وجيوبه مليئة بالطعام .  
ثم أجه أخيرا إلى المكان الخيف ، وصاحبه الفنديق واقفة بالبواب ترشده  
إلى طريق المدرسة .

## المدرسة الاكليريكية

[ ست وثلاثون وثلاثمائة وجبة غداء ، ثمن كل منها  
ثلاثة وثمانون سنتيما . وست وثلاثون وثلاثمائة وجبة عشاء ،  
ثمن كل منها ثمانية وثلاثون سنتيما ، وشوكولاته لمن له  
الحق ، فالربح في هذه المناقصة ؟ ] .  
فالتو البيزانسوني



رأى جوليان الصليب الحديدي المذهب من بعد قائما على باب  
المدرسة ؛ فاقترب منه في بطء ؛ وساقاه لا تقويان على حمله . ثم قال :  
ها أنذا أرى الجحيم أمامي ولن أستطيع منه فككا كا ! وأخيرا وافته  
الشجاعة قدقّ الجرس . قرن صداه كأنه يدقّ في القفار . ومرت عشر  
دقائق قبل أن يأتي رجل شاحب ، عليه ثياب سود ليفتح له الباب . نظر  
إليه جوليان ثم سرعان ما غض من بصره . لقد كانت هيئة البواب عجيبية :  
عينان جاخظتان خضراوان مستديرتان كأنهما عينا قط ، وجفنان مستديرتان  
لا يكادان يطران ، منظر لا يدفع إلى الشعور بمودة أرحب ، أما الشفتان  
فريقيقتان ممتدتان في نصف دائرة فوق الأسنان البارزة . وهيئة الرجل  
لا تدلّ على الإجرام ، وإن بعثت في نفوس الشباب رعباً خلقته بلاذة حسه  
المطلقة . والعاطفة الوحيدة التي أحسها جوليان حين ألقى نظرة سريعة على  
هذا الوجه الطويل الورع ، هي عاطفة الاحتقار الشديد لسكل ما يتحدث

إليه فيه ما لم يتناول الحديث أمورا دينية عليا .

ثم رفع بصره بعد محاولة شاقة ، وأخبر الرجل في صوت مضطرب ،  
للمجلته دقائق قلبه الشديدة ، بأنه يريد مقابلة السيد پيرار مدير المدرسة .  
ولم يحبه الرجل ، بل أشار إليه أن يتبعه . وصعدا طبقتين بسلم كبير ، حاجزه  
خشبي ، ودرجاته مهدمة كأنها تتداعى للسقوط من الناحية التي تقابل الحائط .  
وفتح باب صغير عليه صليب كبير كصليبان المقابر ، باب من الخشب  
الأبيض الذى دهن باللون الأسود ، فتح بصعوبة وأدخل البواب جوليان  
إلى غرفة مظلمة واطئة السقف ، مخصصة الجدران ، تزينها صورتان  
كبيرتان عليهما غبار الزمن . وبقى جوليان فيها وحده ، منتقبض النفس ،  
سريع دقائق القلب ، حتى ودّ لو استطاع البكاء ؛ ليخفف عن نفسه انقباضها  
بين صمت هذا المكان الرهيب .

مضى ربع ساعة يكاد يكون يوما ، قبل أن يظهر البواب بوجهه الكئيب  
على عتبة باب فى الناحية الأخرى من الغرفة ، وأشار إلى جوليان أن  
يتقدم ، ولم يتفضل عليه بكلمة . فدخل غرفة أكبر من الأولى ولكنها  
شبه مظلمة ، جدرانها مطلية بالجير أيضا ولكنها عارية من الأثاث . ورأى  
وهو يسير فيها سريرا من الخشب الأبيض وكرسيين من القش ومقعدا  
صغيرا من خشب الصنوبر ليس عليه حشية . وفى الطرف الآخر من  
الغرفة — على مقربة من نافذة صغيرة ، صفراء الزجاج ، عليها زهريات  
قدرة — رأى جوليان رجلا جالسا إلى منضدة ، وعليه ثوب ممزق من  
ثياب الكهنة ؛ يبدو عليه الغضب ، وأمامه مجموعة من الأوراق المربعة ،

يتناول منها الواحدة بعد الأخرى ليكتب عليها كلمات ، ثم يرصها على المنضدة ، لم ينتبه الرجل إلى وجود جوليان الذى ظل واقفا وسط القاعة لا يتحرك ، وقد تركه البواب وخرج ثم أغلق عليهما الباب .  
وظلا كذلك عشر دقائق لأن ذا الملابس الممزقة مكب على الكتابة .  
وجوليان بادى الذعر والتأثر حتى خيل إليه أنه سيسقط على الأرض . قال فيلسوف : إنه الأثر الشديد للقبح فى نفس فطرت على عشق الجمال .  
وربما كان محطئا فيما قال .

رفع الرجل رأسه ؛ فلم ينتبه جوليان إليه إلا بعد لحظات . وبعد أن تبين له أنه ينظر إليه ظل جامدا فى مكانه كأنه تمثال . وذعر من نظراته القاسية ؛ وتبينت عيناه الزائغتان وجها طويلا تنتثر فيه بقع حمراء لاتصل إلى جبهته الشاحبة . وبين الحدود الحمراء والجبهة البيضاء عينان صغيرتان سوداوان خلقتا لتبعنا الرعب فى أشد القلوب ، وفوق جبهته العريضة شعر غزير ناعم ، لونه كلون حجر أسود لماع . ولما نفذ صبر الرجل صاح به :  
— أتريد أن تقرب منى أم لا تريد ؟

فتقدم بخطوات مرتبكة ، والوجه شاحب ، والقوى خائرة والرعب شديد ، لم يستول عليه مثله طول حياته . ووقف على بعد ثلاث خطوات من المائدة الخشبية الصغيرة البيضاء التى تغطيها الأوراق المربعة . فقال له الرجل :

— اقرب أكثر .

فاقرب مادّا يده كأنه يتحسس شيئا يستند إليه .

— ما اسمك ؟

— جوليان سورل .

فنظر إليه نظرة مخيفة وقال :

— تأخرت كثيرا في الحضور .

فلم يقو على تحمل النظرة ؛ ومدّ يده كمن يستند إلى شيء فسقط على الأرض . ودقّ الرجل الجرس ؛ فسمع جوليان خطوات تقترب ؛ لأنه لم يفقد في غشيته إلا قدرته على الإبصار وقوته على الحركة .  
وأنهض ثم أجلس فوق المقعد الخشبي الأبيض . وسمع ذلك الرجل القاسي يقول للبواب :

— لقد خرّ ساقطا بدون سبب ، لقد كملت السخرية !

ولما استطاع جوليان أن يفتح عينيه ، كان هذا الرجل ذو الوجه الأحمر مكبّا على الكتابة ، أما البواب فلم يكن موجودا . فأخذ بطلنا يقول في نفسه : علىّ أن أتشجع وأن أحاول إخفاء ما أحسّه . كان يشعر بحاجة ملحة إلى القهقهة ، وإذا غلبت على أمرى فيعلم الله ما يقال عني ، وسيظنون بي الظنون . وأخيرا توقف الرجل عن الكتابة ، ونظر إليه نظرة جانبية وسأله :

— هل تستطيع أن تجيبني !

— نعم يا سيدي . وقالها بصوت ضعيف .

— آه ! حسنا إذا .

وهمّ بالوقوف وأخذ يبحث بصبر نافذ عن خطاب في درج المنضدة المتخذة من خشب الصنوبر ، والتي إذا فتح درجها أحدثت صريحا ، ولما

عثر عليه، جلس في بطن شديد وهو ينظر إلى جوليان من جديد كأنه يريد أن يتزعج من بين جانبيه ما بقي من حياته وهو قدر ضئيل . ثم قال له :  
— لقد أوصاني بك السيد شيلان خيراً ، والسيد شيلان كان أحسن خورى في الأسقية كلها ، رجل فاضل وصديق قديم منذ ثلاثين عاماً .

فقال جوليان في صوت ضعيف هامس :

— آه ! ( أتراني اشرف الآن بالتحدث إلى السيد بيرار ) ؟

فأجاب مدير المدرسة وهو ينظر إليه غاضباً :

— يظهر ذلك .

وازداد بريق عيني ذلك المدير ، وتحركت عضلات فمه من جانبيه حركة غير إرادية ، كأنه نمر يداعبه السرور ، قبل أن ينشب أنيابه في الفريسة . ثم قال بصوت خفيض كأنه يتحدث نفسه :

— خطاب شيلان موجز ، والإيجاز خير من الإطناب عند الحكماء ،

وقليل ما هم :

والناس في عصرنا لا يعرفون أن يوجزوا . وقرأ بصوت مسموع :

« أقدم إليك جوليان سورل . وهو من هذه الرعية ؛ وقد عمدته

أنا ؛ وعماً قريب سيمضى على تعميده عشرون عاماً . إنه ابن نجار غني

ولكن أباه لا يعينه بشيء ، وسيكون جوليان من خير خدام الكنيسة ؛

قوى الذاكرة ، حاد الذكاء ، كثير التأمل الروحي . فهل يبقى له استعداد

هذا ؟ وهل هو استعداد صادق ؟ »

— صادق !! وكرر الأب بيرار هذه الكلمة في عجب ودهشة وهو

ينظر إلى جوليان ؛ لكن نظراته هذه المرة كانت أقل وحشية وقسوة ،  
ثم خفض صوته ليقول ثانياً :

— صادق ! ثم تابع قراءة الخطاب :

« أطلب إليك أن ترتب معاشاً لجوليان رسول . وسترى أنه يستحقه  
حين يؤدي الامتحان اللازم . لقد علمته طرفاً من علم اللاهوت القديم الرفيع ،  
كما تناوله تلاميذ يوسويه وأرنولد وفلورى . وإن كنت لا ترضى عن علمه  
في هذه الناحية فأعد جوليان إلى ؛ فإن مدير الصدقات الذى تعرفه حق  
المعرفة ، يمرض عليه أن يعلم أولاده بأجر قدره ثمانمائة فرنك . أحمد الله  
على أننى طاهر الضمير ، قد عوّدت نفسى على احتمال الشدائد . وداعاً ،  
وأتمنى لك العافية . »

ثم خفض الأب پيرار صوته وهو يقرأ توقيع الأب شيلان وتهد وهو  
ينطق باسم « شيلان » ثم قال :

— إنه هادىء النفس ، وفضائله جديرة حقاً بهذه المكافأة ،  
لشدّ ما أود أن يمنّ اللهُ علىّ بهذه النعمة الكبيرة !

ثم نظر إلى السماء ورسم الصليب . ورأى جوليان هذه العلاقة  
المقدسة ، فقلّ اشتمزاز نفسه من هذا المكان . وأخيراً قال الأب پيرار فى  
صوت شديد لكنه غير قاس :

— إن عندى هنا واحداً وعشرين وثلثمائة طالب يريدون جميعاً أن  
يهبوا أنفسهم للكنيسة ؛ وبين هذا العدد الكبير سبعة أو ثمانية ، أو صانى  
بهم بعض زملائى من أمثال الأب شيلان ، وستكون أنت التاسع .

ولكن حمايتي لك أو لغيرك ليست مجاملة أو ضعفاً ، وإنما هي مضاعفة العناية ومحاربة الرذائل في النفوس . اذهب وأغلق الباب بالفتح . فبذل جوليان مجهوداً كبيراً حتى لا يسقط وهو يسير ، وقد أفلح . ثم رأى بجوار الباب نافذة صغيرة تطل على الريف ، فأخذ ينظر منها إلى الأشجار . ولقد أفاده ما فعل ، كأنما التقى بأصدقائه القدماء .

ولما رجع سأله الأب پيرار :

— أتتكم اللاتينية ؟

— نعم أيها الأب الكريم .

وعاوده اطمئنانه ، وإن رأى الأب پيرار قبل ذلك بنصف ساعة أقسى رجل على ظهر البسيطة .

واستمرّ الحديث بينهما باللغة اللاتينية . وأخذت نظرات الكاهن پيرار تهبط قليلاً قليلاً ، وتذرع جوليان بالاطمئنان والهدوء وأخذ يقول في نفسه : يالى من ضعيف ! لقد أثرت في مظاهر التقوى ، ومن يدريني لعل هذا الرجل لص كالسيد مالون تماما . وهنا نفسه حين ذكر أنه خبأ في حذائه نقوده كلها على وجه التقريب .

أخذ الأب پيرار يوجه إليه أسئلة في علم اللاهوت . وقد عجب لما رأى من غزير علمه ؛ وزاد عجبه حين سأله عن الأسفار الآلمية . لكنه ما كاد يصل إلى نظرية آباء الكنيسة حتى رأى أن جوليان يجهل حتى أسماء القديسين جيروم وأوجستان دون اقتتير و بازيل ومن إليهم . فتحدث الأب إلى نفسه قائلاً : هذه هي الناحية التي كثيراً ما ملت



عليها الأب شيلان ، إنه يزرع في ذلك إلى البروتستنتية . وتلميذه عزيز العجم  
ذو دراية كبيرة بالأسفار المقدسة .

(أخذ جوليان يتحدث إليه من تلقاء نفسه عن هذا الموضوع ،  
ويشير إلى الزمن الحقيقي الذي كتب فيه سفر التكوين والأسفار  
الخمسة . . . )

ثم عاد الأب بيرار يسائل نفسه : لم كل هذه المعلومات المفصلة عن  
الأسفار المقدسة ؟ وما فائدة التفكير في ذلك ؟ النتيجة الحتمية لهذا هي  
الاختبار الشخصي ، أعني البروتستنتية المقوتة . وبجانب هذا العلم الشائك  
الذي تظهر فيه معرفته الواسعة أراه يجهل آباء الكنيسة جهلاً تاماً ، ولو أنه  
عرفهم لقلل ذلك من خطورة ميله البروتستنتي .

وباغ عجب مدير المدرسة حداثاً كبيراً حين ألقى على جوليان أسئلة  
حول نفوذ البابا ، فردّد على مسامعه ما قرأه في كتاب السيد دي متر في  
دقة وإطناب بدل أن يشير إلى المبادئ التي تنادي بها الكنيسة الفرنسية  
القديمة .

فقال بيرار في نفسه : حقاً إن شيلان رجل عجيب ، هل أطلعه على  
هذا الكتاب ليعلمه كيف يسخر منه ؟

وحاول عبثاً أن يتبين رأى جوليان في نظرية دي متر ، فألقى عليه  
أسئلة عديدة لم يجب عنها الشاب إلا بما وعته ذاكرته . وفي هذه اللحظة  
شعر بأن قواه ثابت إليه جميعها حتى أصبح مسيطراً على نفسه . ثم تبين  
بعد هذا الامتحان الطويل أن قسوة الأب بيرار قسوة مصطنعة . وفي الحق

أن الأب بيرارودّ لو قبل جوليان على سلامة منطقته وما رآه في إجاباته من وضوح ودقة . ودّ هذا من كل قلبه ، لولا أنه فرض على نفسه مظهر القسوة والجدّ والخطورة أمام التلاميذ ، وظلّ كذلك خمسة عشر عاما . ثم قال الأب في نفسه : نفس هذا الشاب قوية جريئة ، لكن جسمه ضعيف . ثم سأل جوليان بالفرنسية مشيراً بأصبعه إلى أرض الغرفة .

— هل حدث لك أن وقعت كثيراً على الأرض ؟

فاحمرّ وجهه خجلاً كما تحمرّ وجوه الأطفال ، ثم أجابه :

— بل هي أول مرة في حياتي ، لقد بعث وجهه بواب المدرسة الرعب

في قلبي .

فكاد الأب يبتسم حين سمع ذلك ، وقال :

— هذا أثر المظاهر الخادعة التي رأيتها في الحياة ؛ لقد اعتدت يا بنيّ

أن ترى وجوها ضاحكة لكنها تحجب كذبا ورياء . والفضيلة الشاقة

عسيرة المنال يا سيدي . ولكن أليست مهمتنا في هذه الحياة شاقة عسيرة

كذلك ؟ علينا أن نحمل ضمائرنا من أن يصيبها الضعف ، فلا تتأثر نفوسنا

بالمظاهر الخارجة الخادعة التافهة .

ثم تحدث إليه باللاتينية التي كان يجد في التكلم بها لذة ظاهرة

وقال : لو لم تأت إلى من طرف الأب شيلان لتحدثت إليك باللغة التافهة ،

لغة الحياة التي يخيّل إلى أنك اعتدتها تماما . وأنا أصرحك بأن الإعانة

التي تطلبها بعيدة المنال ، كأصعب شيء في هذا الوجود . ولكن الأب

شيلان خدم الكنيسة ستة وخمسين عاما ، فلا أقلّ من أن يحصل على

مكان لتلميذه بالمجان .

ثم حذر الأب بيرار جوليان من أن ينتمى إلى جمعية أو هيئة سرية دون أن يقره على ذلك .

فتفتح قلب جوليان عن أمانة الرجال وقال :  
— أعدك بشرفي ألا أفعل ، وأن أزل دائماً عند رأيك .

فابتسم المدير للمرة الأولى قائلاً له :

— كلمة الشرف لا محل لها هنا ، إنها تذكرنا بالشرف المزيف ،  
الذى يتمسك به الناس في الحياة الدنيا ويقودهم إلى الأخطار الكثيرة  
بل غالباً ما يدفعهم إلى ارتكاب الجرائم . إن القسم السابع عشر من  
متشور القديس بيوس الخامس ، يفرض عليك الطاعة المقدسة . وأنا رئيسك  
الديني ، وتعاليم المدرسة يا بني تقضى عليك أن تسمع وتطيع . والآن ،  
كم تحمل من النقود ؟

فقال جوليان في نفسه . وصلت الآن إلى الغرض الحقيقي الذى دعانى  
من أجله بابنه العزيز ، وأجاب المدير :

— خمسة وثلاثين فرنكاً يا أبى .

— قيد في دفة ما تنفقه من هذا المال مبيئاً وجوه إنفاقه ، لأننى  
سأحاسبك .

ودامت هذه الجلسة الشاقة ثلاث ساعات ؛ واستدعى جوليان  
البواب ؛ فقال له ناظر المدرسة :

— اذهب بحوليان سورل إلى الغرفة رقم ١٠٣ .

وكان هذا تشريعاً كبيراً لـجوليان أن يقيم وحده في غرفة خاصة .  
ثم استطرد المدير قائلاً للبواب :  
— واحمل حقيته إلى الغرفة .

ونظر جوليان فرأى حقيته أمامه بعد ن ظلّ ينظر إليها ثلاث ساعات  
دون أن يعرفها .

ثم وصل إلى الغرفة رقم ١٠٣ ، هي غرفة صغيرة مساحتها ثمانى أقدام  
مربعة ، في الطبقة العليا ، مطلة على الأسوار ، يرى الناظر فيها السهل الجميل  
الذى يفصله عن المدينة نهر الدو . ورأى جوليان ذلك فصاح : إنه منظر  
بديع ! قال ذلك وهو لا يعنى ما ترمى إليه كلماته ، لأن المشاعر القوية التى  
استولت على نفسه فى ذلك الزمن القصير الذى قضاه فى بيزانسون أضعفت  
قواه إلى حد كبير . ثم جلس إلى النافذة على الكرسي الخشبى المنفرد  
ونام نوماً عميقاً . حتى إنه لم يسمع دقات جرس العشاء ، ولا دقات جرس  
الصلاة ، وكان كل من فى المدرسة قد نسى وجوده .

وأيقظته شمس الصباح التالى بأشعتها الأولى ، فألقى نفسه ممتداً على  
أرض الغرفة .

## الفصل السادس والعشرون

### العالم أو ما يفتقر إليه الغنى

[ أعيى وحدى فوق ظهر الأرض ، لا يهتم إنسان  
بأن يفكر فى . وكل الذين أراهم يجمعون المال ذووقحة  
وقسوة لاتجد سبيلا إلى قلبى . لانهم يكرهوننى لطية  
فطرت عليها . آه ! سأمت عما قريب من الجوع أو من  
الحزن ، وذلك لما أراه من قسوة الرجال ] .  
يوع



أسرع جوليان فنظف ثيابه ثم نزل على عجل لأنه تأخر . فلامه معلم  
مساعد لوما عنيفا ؛ ولم يحاول جوليان أن يدلل على براءته بل وضع يديه  
على صدره قائلا باللاتينية فى تواضع وذلة :  
— لقد أذنت ، وإنى معترف بخطي يا أبتاه !

فكان هذا بدءا حسنا . أما النابهون من طلبة المدرسة فقد رأوا  
أنهم أمام رجل ليس فى حاجة إلى معرفة المبادئ الأولى لهذه المهنة . وحل  
موعد الراحة فرأى جوليان نفسه موضع استطلاع من كل زملاء ، لكنهم  
لاقوا منه حذرا وصمتا . وطبقا للمبادئ التى اختطها لنفسه عد من أعدائه  
جميع زملائه البالغين واحدا وعشرين وثلثمائة ؛ أما الكاهن پيرار فهو  
أخطرهم جميعا فى نظره .

ومرت أيام قليلة كان على جوليان بعدها أن يختار قسيسا يعترف  
أمامه ، وقرأ قائمة الأسماء . فقال فى نفسه : يا إلهى ! آه ! هل يظنون أننى

لا أعرف أن الكلام وخيم العواقب؟ ثم اختار لنفسه الأب بيرار .  
وهو لا يدري أنه يُقدم على عمل حاسم . ثم أخبره أحد التلاميذ  
وهو شاب من مواليد فريير ، أظهر له الودّ والصدقة من اليوم الأول  
— بأن القطة كانت تقضى عليه أن يختار السيد كاستانيد نائب المدير ،  
وهمس في أذن جوليان قائلاً له :

— والأب كاستانيد عدو الأب بيرار الذي يتهمونه باتباع تعاليم  
ينسينيوس .

دلت أعمال جوليان في الأيام الأولى على حماقة وغفلة ، وذلك  
بإختياره قسّاً يعترف أمامه ، وإن آمن هو بأنه حذر ، فلم يكتب له  
التوفيق ، إلا إنما أضلّه زهو كل ذى خيال واسع ، فهو يأخذ نواياه على أنها  
أفعال ، ويعتقد أنه مناقق بارع . وذهب به الجنون إلى حدّ أنه لام نفسه  
على نجاحه في هذا الفن من الضعف .

ثم قال في نفسه : وأسفاه ! هذا هو سلاحى الوحيد ! أما في وقت  
آخر فإني كنت أواجه عدوى بأعمال تعلن عن نفسها لا كسب قوتي .  
كان جوليان راضياً عن مسلكه ؛ ونظر حوله فارأى إلا قشور  
الفضيلة الكريمة .

وكان بين التلاميذ ثمانية أو عشرة يحيون حياة طهر وقداسة ،  
ويزعمون أنهم يرون الذات الإلهية كما رأتها القديسة تريزا والقديس  
فرنسوا ، وهو على جبل فرنا في الأبينين . ولكن هذا كان سرا لا يذاع ،  
فأخفاه أصدقاؤهم . وهؤلاء المساكين الذين يرون الذات الإلهية لا يكادون  
يبرحون المستشفى .

ثم هناك مائة طالب آخرون يجمعون بين العقيدة المتينة والعمل المتواصل . يعملون كثيرا إلى حد أنهم يمرضون ، فلا يكادون يحصلون شيئا . ثم هناك تلميذان أو ثلاثة وهبوا ذكاء خارقا وعبقرية فذة ، ويدعى أحدهم شازل . ولكن جوليان أخذ على نفسه أن يتعد عنهم فلم يتقربوا منه .

وأما بقية الواحد والعشرين والثلاثمائة من التلاميذ فشبان غلاظ جفاة الطبع ، لا يكادون يدركون معاني الكلمات اللاتينية التي يرددونها طول النهار . كانوا جميعا على التقريب أبناء الفلاحين ، فضلوا كسب القوت بتريديد كلمات لاتينية ، على أن يفلحوا الأرض . ولما رأى جوليان زملاءه ، وكونَ عنهم فكرته هذه منذ أيامه الأولى ، أمل في التقدم السريع ، قائلا في نفسه : كل مصلحة تستلزم الأذكاء ، لأن هناك عملا يؤدي . فلو أنتى عاصرت نابليون لكنت جاو يشا ، ولكنى سأكون بين هؤلاء الزملاء نائبا أول لأسقف حينما يصبحون هم خوارنة .

واستطرد : هؤلاء البائسون الأجراء منذ الطفولة عاشوا على اللبن الرائب والخبز الأسود إلى أن دخلوا هذه المدرسة ، لا يطعمون اللحوم في أكوأخهم إلا خمس مرات أو ستا في كل عام . هؤلاء الفلاحون الغلاظ سعداء جدا بما يلقون في المدرسة من نعيم ، كأنهم الجنود الرومانيون الذين رأوا الحرب راحة ونعما .

وكان جوليان لا يرى في عيونهم البليدة النظرات إلا رغبة جسمية بعد الغداء ، ولذة بدينية متوقعة قبل كل وجبة . وهؤلاء هم الأشخاص الذين كان يريد هو أن يتفوق عليهم ، وما أرشده قلبه ولا أرشده أحد إلى أن سبق في كل الدروس التي يتلقاها . من عقيدة وتاريخ كنى .

وما إليهما يعدّ في نظرهم إثمًا عظيمًا . فنذ زمن قولتير ومنذ سيطرت على فرنسا حكومة ذات مجلسين ، لا تعدو في الواقع إلا أن تسير بحذر وتتبع قاعدة الاختبار الشخصي ، وتعلّم الناس منها تلك العادة السيئة وهي الحذر . ويخيل إلينا أنه منذ ذلك الوقت أدركت كنيسة فرنسا أن الكتب هي عدوها الأصيل . وأصبح خضوع القلوب هو كل ما يعنى الكنيسة . فالنجاح في الدراسة إذاً أمر يدعو حقا إلى الريبة ، حتى ولو كانت دراسات مقدسة . فمن ذا الذي يحول بين الرجل الممتاز وبين الخروج على الكنيسة كما فعل سيس أو جريجوار<sup>(١)</sup>؟ والكنيسة في فرقها وخشيتها متمسك بالبابا تمسكاً شديداً، وتعدّه الوسيلة الوحيدة لنجاحها . فالبابا وحده هو الذي يستطيع القضاء على الاختبار الشخصي ، وهو الذي يتمكن من التأثير في نفوس الناس التي أصابها السأم والمرض ، بما يقيمه في بلاطه من حفلات دينية رائعة .

علم جوليان عن هذه الحقائق بعض العلم ، وإن كان ما يسمعه في المدرسة يرمى إلى تكذيب ما أشيع ، فشعر بحزن عميق . اشتغل كثيرا وتعلّم كثيرا في سرعة كبيرة تفيد القس فائدة جمة ، وإن كان يراها كذبا وبهتاناً ولا يعنى بها أقل عناية . ثم اعتقد أن مهمته في المدرسة لا تتطلب منه شيئاً آخر وتنحصر فيما يقوم به .

فقال في نفسه : هل نسيني أهل الأرض جميعاً ؟ ألم يعد يدكرني أحد ؟ وذلك لأنه لم يعلم أن الأب بيرار تلقى خطابات عليها خاتم بريدهم .

(١) انتخب الكاهن جريجوار نائباً عن جرينوبل سنة ١٨١٩ . وكان ييل يقيم بمسقط رأسه وقتذاك حيث توفي والده في ٢١ يونيو من نفس السنة ، فاشترك في الانتخابات وانتخب القس جريجوار .  
المغرب



فألقاها في النار ، وكانت هذه الخطابات على الرغم من أسلوبها الرصين البارع ، تفيض منها عواطف حب قوية ، وكان هذا الحب القوي النائر مشوباً على ما يظهر بوخزات الضمير . فسر الأب بيرار وأخذ يقول :  
أحمد الله على أن المرأة التي أحبها هذا الشاب ليست كافرة على الأقل .  
وفي يوم ، فتح الكاهن بيرار خطاباً تحت الدموع نصف عباراته ، لأنها دموع وداع أخير ، وكان فيه : وأخيراً مننت على السماء فبعثت في قلبي الكراهية ، لا كراهية الذي دفعني إلى ارتكاب الوزر ، لأنه سيظلّ عندي أعلى مخلوق ، بل كراهية الخطيئة نفسها . لقدقت بالتضحية أيها الصديق العزيز ، لكنها لم تكن سهلة فقد سكبت دموعاً غزيرة على ماترى ، مطالبةً بسلامة من معي ممن عرفتهم وأحببتهم حباً كثيراً ، وهذا ما حملني على التضحية العظيمة . وإن الإله العادل المنتقم الجبار ، لن ينتقم منهم بعد ذلك على آثام جنّتها أمهم . وداعاً يا جوليان ، ولتكن عادلاً مع الناس .

كانت خاتمة الخطاب قد محتها الدموع حتى لا تكاد تقرأ . وجعل العنوان في ديجون ، وإن كان الأمل ضعيفاً في أن يردّ جوليان على الخطاب ، وإذا رد فإنه سيعمد إلى عبارات لا تحجل منها ، حين تراها ، امرأة أعرضت عن الرذيلة وتابّت إلى ربها .

كان فريسة للحزن ، وكان الطعام الذي يُقدّم في المدرسة بطريق المتعهد رديئاً ؛ ثم وجبة الغذاء منه ثلاثة وثمانون سنتماً فأثر هذا في صحته . صعد ذات صباح إلى غرفته صديقه فوكيه وقال له :  
— وأخيراً استطعت الدخول . لقد زرت بيزانسون خمس مرات

لأراك فيها فما كنت أرى في كل مرة إلا الوجه الخشبي ، وإنساناً رابضاً  
على الباب ، فياللاشيطان ! لماذا تلازم المدرسة هكذا ؟  
— هو امتحان فرضته على نفسي .

— لشدّ ما تغيرت ، وهأنذا قد استطعت أن أراك . لقد علمتني  
قطعتان جميلتان من ذات خمسة الفرنكات ، أتى لم أكن في المرات السابقة  
إلا غراً أحمق ، وكان ينبغي لي أن أقدمهما منذ الرحلة الأولى .  
وظلّ الحديث بين الصديقين زمناً طويلاً . وتغيّر وجه جوليان حين  
قال فوكيه :

— ولهذا المناسبة ، أتعرف أن أم تلاميذك قد أصبحت تقيّة ورعة ؟  
وتحدث بهذه اللهجة الطليقة ، وهو لا يعلم أنه يمسّ قلب صديقه مسّاً  
شديداً ، لأنه تناول أعزّ الذكريات وأغلاها .

— نعم يا صديقي ، لقد أصبحت ورعة تقيّة إلى حدّ بعيد ، وسمعت  
أنها تمجج كثيراً ، لكنها قد سدّدت نحو الأب مالون ضربة شديدة  
وأظهرت له الاحتقار لتجسّسه زمناً طويلاً على الأب المسكين شيلان ، فلم  
ترد أن تعترف أمامه ، وهي تفضل الاعتراف في بيزانسون أو ديجون .  
فالتهب وجه جوليان بالحمرة وسأله :

— أهي تتردد على بيزانسون ؟ . . . فأجابته دهشاً كأنه يستفهم :  
— تتردد كثيراً .

— أمعلك من جريدة الدستور بعض أعدادها ؟

— ماذا تقول ؟ فقال جوليان في صوت هادئ :

— أسألك عما إذا كان معك بعض أعداد جريدة الدستور ، إنها تباع هنا بفرنك ونصف فرنك .

— ماذا ! وحتى في هذه المدرسة أحرار ! مسكينة يافرنسا !

قال ذلك بصوت منافق وبلهجة رقيقة عذبة ، كتلك التي يصطنعها الأب مالون حين يتكلم .

وتركت هذه الزيارة في نفس جوليان أثراً كبيراً ، حتى أنه في اليوم التالي سمع من مواطنه هذا التلميذ الصغير الذي عدّه جوليان طفلاً ، كلمة كشفت له عن شيء خطير : هو أن سلوكه منذ دخل المدرسة كان سلسلة من أعمال زائفة ، فسخر جوليان من نفسه سخرية مرة .

والواقع أنه كان في حياته المدرسية لايعنى إلا بالأعمال الكبيرة ، فيقوم بها خير قيام ويدبرها في مهارة ودكاء ، غير عابء بعد ذلك بالتفاصيل ، على حين كان الماهرون من التلاميذ لا يعنون إلا بالتفاصيل . فأصبح لهذا معروفاً بين أصدقائه بالزندقة ، التي دللوا عليها بكثير من التوافه التي صدرت عنه دون أن ينتبه إليها .

اعتبروه زنديقاً لأنه يفكر ويحكم على الأشياء بنفسه ، بدلا من أن يتبع الآثار الدينية اتباعاً أعمى ، ويقتدى بالمثل الصالح ، وذلك إثم عظيم . ولم يمدّ إليه الأب بيرار يد المساعدة في شيء ، ولم يتحدث إليه مرة واحدة خارج كرسى الاعتراف ، وحتى في هذا المكان كان يسمع منه أكثر مما يتكلم إليه . ولو أن جوليان اختار الأب كاستانيد لتغير موقفه تماماً .

وأدرك أخيراً ماجرّه عليه حمقه فلم ييأس ، بل حاول أن يعرف مدى

الأذى الذى سيصيبه ، ولكى يحقق خطته ، خرج قليلا من صمته الذى التزمه ، والذى صدّ عنه زملاءه فى كبر وعناد . ولما خرج من صمته بدءوا هم ينتقمون منه ، فأعرضوا عنه فى احتقار لما تقرب منهم ، وتبين أنه كان حديث إخوانه منذ دخل المدرسة ، كان حديثهم طول النهار وبخاصة فى أوقات الراحة ، يذكرونه بالخير ويذكرونه بالشرّ فيزداد أعداؤه أو يدافع عنه بعض الصالحين ، أو بعض من هم أقل غلظة وفضاظة . وهنا واجه مهمة شاقة عسيرة ، فقد كان عليه أن يصلح ما أفسده فى الأيام الخوالى ، فزاد انتباهه لكل شيء ، وترقبه كل صغيرة وكبيرة ، وأخذ على نفسه أن ينحو نمواً جديداً فى معاملته الإخوان ، وأن يتخلق بخلق جديد .

فكانت نظراته فيما مضى تسبب له المتاعب الكثيرة ، فأدرك الحكمة فى غضّ الطرف فى هذه الأماكن الدينية . وقال فى نفسه : لشدّ ما كنت مخدوعاً وأنا فى قرير ! كنت أعتقد أننى عرفت الحياة ، ولكنى كنت لا أزال أعدّها العدة ؛ فهأنذا أعيش فى الدنيا يحيط بي الأعداء الحقيقيون . كم كانت حياة شاقة تلك التى ما مرّت على لحظة فيها إلا وأنا منافق ! إنه جهد شاق ينوء به هرقل . إن سكست الخامس هو هرقل العصر الحديث ، ظلّ خمسة عشر عاماً متوالية يندفع ببساطته وخضوعه أربعين كريدنا لا عرفوه فى شبابه مقطوراً على الدأب والتعالى والنشاط .

ثم قال فى مرارة : لا قيمة هنا للعلم ! وتقدم المرء فى العقيدة والتاريخ المقدّس وما إليهما ، ليس له إلا قيمة ظاهرية تافهة . وكلّ ما يقال فى هذا الصدد شبك ينصبونها لأمثالى من الحقى . وأسفاه ! لقد كانت ميزتى

الوحيدة في تقديم السريع ، وفي حفظ ما تعلمه من هديان . ولكن هل يأخذون هذا المذر مأخذ الجد أو يحكمون عليه كما أراه ؟ كنت غراً حين افتخرت بهذه الميزة ! ولم يجلب علىّ تقديمي إلا أعداء ألداء . فشارلز وإن كان أكثر مني علماً يكتب في أوراق الامتحان ما يدلّ على البلادة والبلاهة ، فيحتلّ المكان الخامس : وإذا وقع له أن يحتلّ المكان الأول في الترتيب فذلك سهو منه وشيء لا يقصد إليه . . . آه ! كلمة واحدة ؛ نعم كلمة واحدة من الأب يبرار ، تنفعني كثيراً .

ومنذ أن تفتحت عيننا جوليان أضحيت فروض الزهد والتقوى خير ساعاته وأحبها إلى قلبه ، بعد أن كانت ثقيلة الوطأة على نفسه من قبل ، يستولى عليه السأم سريعاً من المسبحة التي يتناولها خمس مرات في الأسبوع ، والترتيل في القلب المقدس وما إلى ذلك . كان يفكر في مسلكه تفكيراً صارماً ، ويحاول ألاّ يغالى في الطرق التي يتبعها ، لكنه لم يكن يطعم أول الأمر في أن يكون كرملائه الذين يتخذون مثلاً يحتذى ، لم يكن يطعم أن يقوم بأعمال جيدة ، بأن يتقن نوعاً من التعاليم الدينية النصرانية . فياً كل بيضة مسلوقة غير كاملة النضج ، على العادة المتبعة في المدرسة مع من يظهر تقدماً في مجال الورع .

قد يتسم القارئ ولكن ليذكر كل الأخطاء التي وقع فيها الأب ديابليل وهو يأكل بيضة ، حين دعى للعداء على مائدة سيدة كبيرة من بلاط لويس السادس عشر .

جارول جوليان أول الأمر ألاّ يقع في الإثم ، وهذه حالة طالب المدرسة

الأكليريكية الذى ينبغى له أن يكون مسلكه وحركات ذراعيه وعينه لا تمت إلى الحياة الدنيوية بسبب ، وهذا لا يعنى أنه قد أقبل على الآخرة تماماً وآمن بأن الدنيا فناء وزوال .

وكان يرى على جدران ممرات المدرسة عبارات كتبت بالفحم جاء فيها : ما قيمة ستين عاماً يقضيها المرء فى محنة ، إذا قيس بالنعيم الأبدى فى الجنة ، أو المهل الغلى فى الجحيم ! فأصبح لا يشمئز من مثل هذه العبارات وأدرك أن عليه أن يذكرها أبداً . وسأل نفسه : ماذا أعمل طول حياتى ؟ سأبيع للمؤمنين دائماً أما كن فى الجنة . ولكن كيف السبيل إلى أن أريهم المكان مع اختلاف ما بينى وبينهم فى المظهر الخارجى ؟

وقضى شهوراً وهو مثابر ، يبدو عليه أنه ما زال « يفكر » . وطريقته فى تحريك عينيه وفمه لا تدلّ على الإيمان الذى تنطوى عليه أعماله الدينية ، ولا تحمل على أنه يؤمن بكل شيء ويسلم بكل شيء ، حتى لولتى فى ذلك العذاب . وكان يغضب غضباً كبيراً حين يرى الفلاحين الغلاظ يفوقونه فى ذلك ، مع أن هناك أسباباً كثيرة تحملهم على ألا يكونوا مفكرين .

لقد بذل جهداً جبّاراً فى أن يظهر بالمظهر الذى يدلّ على عقيدة ملاهبة وطاعة عمياء ، ويدعو إلى الإيمان بكل شيء ، وتحمل العذاب فى سبيل الدين ، مظهر نراه كثيراً فى أديرة إيطاليا ، وصوره لنا جرشان تصويراً بديعاً فى نماذج الكنسية .

وفى الأعياد الكبيرة يعطى تلاميذ المدرسة النقانق والكرنب . وقد

لحظ جيران جوليان على المائدة أنه لا يهتمّ بهذا النعيم ! فأخذوا عليه ذلك وعدّوه من أكبر ذنوبه. أما أصدقاؤه فعدّوه لونا كريهاً من ألوان النفاق، وكان، إعراضه عن الطعام الشهيّ سبباً في زيادة أعدائه ، فقد أخذوا يقولون : أنظروا إلى هذا البرجوازي ، أنظروا إلى هذا المتكبر الذي يزدري خبير زاد يقدّم إلينا ! إنه يعرض عن النفاق والكرنب ! فياله من لعين ! وياله من متكبر ! وياله من هالك أثيم !

وبلغ به الأمر أنه كان يصيح في ساعات قنوطه : وأسفاه ! إن جهل أصدقاؤي من أولئك الريفين ميزة كبيرة لهم . فالعلم غير محتاج إلى أن يخلصهم ساعة وصولهم إلى المدرسة ، من الآراء الدينيوية الكثيرة ، التي تملأ رأس مثلي ، والتي تظهر في وضوح على وجهي مهما حاولت أن أخفيها .

وأنعم النظر في الفلاحين الأجلاف ، الذين يفدون على المدرسة ، وأعارهم اتبهاها يقرب من الحسد . وهم أولئك الذين كان كلّ تعليمهم ، بعد أن يدخلوا المدرسة ويخلعوا ستر الجوخ ليلبسوا الثياب السوداء ، لا يتجاوز احترام « النقود » وإجلالها العظيم سواء في ذلك سائلها وصلبها كما يقولون في مقاطعة فرانك كوتيه .

وهذه هي الطريقة التي تحمل البطولة والأسرار الدينية في نظرهم ، حين يعبرون عن الفكرة الرائعة فكرة النقد المعجل .

كانت سعادة هؤلاء الطلبة تنحصر في أن يملشوا بطونهم عند الغداء ، مثلهم في هذا مثل أبطال قصص فولتير . واكتشف جوليان أنهم يكادون

جميعاً يحترمون من يلبس الملابس الغالية . إن هذه العاطفة لتقدر « العدالة  
الوازعة » حق قدرها أو أقل من قدرها كما تريها لنا المحاكم . وكثيراً  
ما كان يسائل بعضهم بعضاً حين ينفردون : ماذا نكسب من مخاصمتنا  
لرجل بدين ؟

ويستعمل أهل أودية الجورا كلمة ( بدين ) مرادين بها معنى الغنى ،  
وإذا كان هذا هو رأيهم في الرجل الغنى ، فما بالك برأيهم في الحكومة ،  
وهي أغنى من أى رجل يجلونه كل هذا الإجلال !

وإذا لم يتسم السامع في تجلته واحترام ، حين يذكر اسم السيد المدير ،  
فإن هذا يعد في نظر فلاحى فرانش كوتيه حماقة ! والحماقة إذا إرتكبتها  
فقير عوقب حالاً بحرمانه من القوت .

تبدلت عاطفة جوليان نحو أولئك الفلاحين البائسين ، فبعد أن كان  
يحتقرهم أخذ يحنو عليهم : فكثيراً ما كان يعود آباء زملائه إلى أكو اخم  
في الشتاء ، فلا يجدون فيها خبراً ولا بطاطس ولا كستناء . قال جوليان  
في نفسه : ليس عجباً إذاً أن يرى هؤلاء الزملاء أن السعيد هو من يحظى  
بطعام جيد ، ثم يرتدى ملابس حسنة ! إن زملائى أصحاب عقيدة ثابتة ،  
يؤمنون بأن الحياة الدينية تضمن لهم هذه السعادة : يأكلون حتى يشبعوا  
ويلبسون دفئاً يقيهم قرّ الشتاء .

وسمع جوليان طالباً صغير السن واسع الخيال يقول لزميل له :  
— أمن البعيد أن أكون « بابا » مثل سكست الخامس الذى كان  
من قبل يحرس الخنازير ؟ فأجاب الصديق :



— لا يختار البابا إلا من الإيطاليين ؛ ولكن بما لا ريب فيه أن سيكون منّا نواب الأساقفة والكهنة القانونيون ، وربما كان منّا مطارنة أيضاً ، فطران شالون السيدب . . . أصله ابن صانع البراميل ، وأنا شخصياً أبى من صناع البراميل .

أرسل الأب بيراريوماً في طلب جوليان وهو في أحد دروس العقائد . فسرّ الشاب المسكين بمغادرة هذا الجو الذي أُرهِق نفسه وجسده . واستقبله المدير بنفس الاستقبال الذي بعث الرعب في قلبه يوم دخل المدرسة . نظر إليه نظرات مخيفة وقال له :

— خبّرني بما كتب على هذه الورقة من أوراق اللعب ، وفسره لي .  
فقرأ جوليان : « أماندا بنيه بمقهى الزرافة قبل الساعة الثامنة . وقل إنك من جنليس وابن عم أمي . »

فأدرك جوليان في الحال جسامه الخطر ، إن شرطة الأب كاستانيد سرقوا منه هذا العنوان . فنظر إلى جبهة المدير فرأى من عينيه الخيفتين وقال :  
— كنت شديد الاضطراب في اليوم الذي أتيت فيه إلى المدرسة ،

لأن الأب شيلان أخبرني بأنها للشورور والوشايات مرتع خصيب ، وبأن التجسس والوشاية يكثران بين الزملاء ويجدان تشجيعاً . والسماء تريد أن تكون الحياة هنا على هذا المنوال ؛ ليراهما على حقيقتها الذين سيكونون قساوسة المستقبل ، حتى تشرب نفوسهم كراهة الدنيا وزخرفها .

فغضب الأب بيرار وقال له :

— تريد أن تضللي بما تقول ؟ يا لك من خبيث !

فاستطرد جوليان في هدوء :

— كثيراً ما ضربني إخوتي وأنا في فريير، حين كانت تدب في صدورهم

عقارب الغيرة مني . . . فقاطعه الأب في غضب شديد :

— حقيقة ! حقيقة !

لكنه لم يخف ولم يمين بل استطرد قصته :

— ويوم وصلت إلى بيزانسون شعرت بالجوع قبيل الظهر ، فدخلت

مقهى وإن كنت لا أحب مثل هذه الأماكن الذنسة . لكنني اعتقدت

أن وجبة الغذاء فيه تكفني أقل مما تكفني في نُزُل . وأشقت على سذاجتي

سيدة خيل إلى أنها صاحبة المقهى وقالت لي : إن بيزانسون كثيرة الأشرار

وأنا أخاف عليك . فإذا أصابك مكروه فاجأ إلى ، وارسل رسولا قبل

الساعة الثامنة . وإن رفض بوابو المدرسة أن يبلغوني رسالتك فقل لهم : إنك

ابن عمي وإنك من جنليس . . .

فصاح الكاهن بيرار قائلاً، وهو يسير في الغرفة لأنه لا يستطيع البقاء

في مكان واحد :

— سأتحقق صحة هذه الثرثرة . والآن إلى غرفتك !

ثم تبعه إلى الغرفة ليغلق بابها عليه وأخذ جوليان يفتش الحقيبة التي

كان مخفياً الورقة في قاعها بمهارة كبيرة . لم يضع شيء مما في الحقيبة ، وإن

كان نظامها قد تبدل كثيراً ، مما يدل على أن يداً عبثت بها وإن لم يهمل

مفتاحها لحظة من اللحظات . ثم أخذ الشاب يحدث نفسه : إنني اليوم

ورقة أدركت الآن معناها . أما قبل ذلك فكنت غرًّا آنحبط ! ومن يدري ؟  
لعلّى لو خرجت يوم ذلك ، لسولت لى نفسى أن أغير ثيابى لألقى أماندا  
الجيلة . وكان فى ذلك ضياعى إلى الأبد . لقد أخفقوا فى إغرائى من هذه  
السبيل . ولما لم يصلوا إلى معلومات من هذه الناحية ، أرادوا أن ينتفعوا بما  
ظفروا به فوشوا بى !

ثم استدعاه المديز بعد ساعتين . وقال له وهو ينظر إليه فى شىء  
من الإشفاق :

— لم تكذب فيما حدثنى به ، ولكن احتفاظك بهذا العنوان  
حماقة لا تدرك الآن خطورتها . فيالك من طفل أخرق ! مثل هذا العنوان  
قد يجرّ عليك الشقاء ولو بعد عشره أعوام .

## التجربة الأولى في الحياة

[ يا للوقت الحاضر يا إلهي العظيم ! لأنه حرم مقدس .  
والويل لمن يمسه . ]  
ديدرو



ليتمس لنا القارئ عذراً في أننا لم نتناول سرد أمور جلية واضحة في هذه الفترة من حياة جوليان . وما ذلك لأن علمنا بها ناقص بل لأنها مظلمة على كثرتها ، قائمة تلائم الحياة وراء جدران المدرسة ، ولا تلائم هذه الصفحات التي نحصر على أن تكون مضادة قدر المستطاع . وإن معاصرنا الذين يتألمون من أمور معينة لا يذكرونها إلا وضائق نفوسهم بها ، وحال السأم بينهم وبين أن يستمتعوا بأى شيء حتى ولو كان قراءة قصة .

أصاب جوليان بعض نجاح في إشاراته التي تحمل النفاق ؛ لكنه كثيراً ما أصابه اشمزاز وقنوط كبير . لم يخالفه التوفيق في هذه المهنة المرذولة ، وكان أقل معونة من الحياة في الخارج ، يشغل قلبه ويذكره بها ويتسلل إلى نفسه بسهولة ويسر .

كان في عزلة عن الناس جميعاً ، كأنه زورق ترك في مجاهل المحيط . وكان يحدث نفسه قائلاً : إن نجحتُ كُتبتُ على أن أقضى حياتي بين أوثاك الرفاق الأشرار ! إنهم شرهون لا يفكرون إلا في بطونهم ، أو هم يكاملون كستانيد ؛ يرتكبون الجرائم ولا تراعون في ذلك عهداً ولا ذمة ! سيصلون إلى الحكم ؛ ولكن بأي ثمن يا إلهي !

إن إرادة الرجل قوية كما تقول الكتب التي أقرؤها ؛ ولكن أتبلغ بها القوة حدّ أن تغلب على هذا الأشمزاز ؟ إن مهمة العطاء سهلة لأن الخطر مهما يكن جسيماً فإنهم يجدون فيه جمالاً ، ومن ذا الذي يستطيع غيري أن يرى قبح ما يحيط بي ؟

كانت هذه الفترة أسوأ فترة في حياته . وقد كان من السهل عليه أن يلحق بأحدى الفرق الجيلة في مكنتات بيرانسون ! أو أن يكون معلماً لللاتينية ، ويكفيه القليل ليعيش ! ولكنه بذلك يضحي بالمهنة التي يسعى وراءها ، وبالمستقبل الذي رسمه خياله ؛ إنه يحكم على نفسه بالموت . وهذه هي خطوات تفكيره في يوم من أيامه الحزينة .

قال في نفسه ذات صباح :

لقد صور لي الوهم أنى خير من زملائي الريفيين ! ولكنني عشت حتى أدركت أن « التفاروت يولد الكراهية » . وعرف هذه الحقيقة الهامة من فشل كبير مني به . لقد حاول أن يتقرب من تلميذ يحيا حياة قدسية وبذل في ذلك جهداً كبيراً ثمانية أيام كاملة ثم سار جوليان يتنزه مع القديس في فناء المدرسة ، ويستمتع في خضوع إلى حماقاته المملة التي تبعث في نفسه السأم ، فباغتتهم زوبعة وأرعدت السماء وأبرقت . فما كان إلا أن دفع القديس الورع جوليان دفعة وحشية وهو يصيح به قائلاً :

— أصغ إلىّ ، كل إنسان في الوجود يعمل لنفسه وحدها ، وأنا لا أريد أن تحرقني الصاعقة . والله قادر على أن يصعقك لأنك كافر ، لأنك فولتير .

فاصطكت أسنان جوليان غيظاً ، ونظر إلى السماء التي شققها الصاعقة  
وصاح قائلاً : لو أنى كنت ممن ينامون وقت العاصفة لحنّ على الفرق !  
فلأحاول التقرب من مغرور آخر .

ودقّ الجرس مؤذناً ببدء محاضرة الأب كاستانيد في التاريخ المقدس .  
وفي هذا اليوم كان الأب كاستانيد يعلم التلاميذ ، الذين يحشون العمل  
الشاق ويرتعدون من فقر آبائهم ، أن هذا الشبح الخيف الذي يسمى  
الحكومة ليس له سلطان حقيقى شرعى إلا ذلك الذى يرافق عليه البابا  
ويستمد منه ، لأنه نائب الله فى أرضه . ثم قال لهم :

— اعملوا كي يرضى عنكم البابا ، وتمسكوا بالحياة الطاهرة المقدسة ،  
وبالطاعة وتكونوا كالعصا بين يديه . فأنتم إن فعلتم هذا ، تقلدتم مناصب  
خطيرة ترأسونها بلا محاسب ولا رقيب ؛ وتدفع الحكومة لكم ثلث  
الأجور ويدفع ثلثيها الباقيين المؤمنون الذين تستميلون قلوبهم بالمواعظ .  
وانتهت محاضرتة ، فوقف فى الفناء حيث التفّ حوله التلاميذ فقال :

— الناس ينظرون إلى الخورى معجبين قائلين : هكذا يكون  
الرجال ، وهكذا تكون المناصب ، لقد عرفت قرى جبلية يباغ الدخل  
العارض للخورى فيها أكثر من الدخل الأصيلى لخورى المدائن . وهذه  
القرى تدرّ على الخورى أموالا طائلة ، وديكة سمينة وبيضاً وزبداً طازجاً  
وغير ذلك من ملذات لا حصر لها . والخورى هناك صاحب الكلمة العليا  
غير مدافع ؛ لا تقام وليمة ولا مأدبة إلا دُعى إليها واحتفى به . وقبسوا  
على ذلك .

ثم صعد الأب إلى مسكنه فانتقم التلاميذ أقساماً ووقفوا جماعات . وظلّ جوليان بمعزل وحده كأنه عزز جرباء ، وجعل كل تلميذ في جماعة يقذف بقطعة نفود في الهواء ، فإذا أصاب تخمينه الوجه الذي ستقع عليه آمن أصدقاؤك بأنه سيكون خورى قربة من القرى الغنية .

وجاء دور القصص والحكايات . فهذا القسيس الشاب الذي لم يكن يمضى على ترقيته عام ، قد قدم لخادم الخورى العجوز أرنيا فعين نائباً للخورى ، وبعد بضعة شهور مات الخورى فعين نائبه في مكانه فكسب مالا كثيراً . وتمكّن آخر أن يعين خلفاً لخورى في بلدة كثيرة الخيرات ، على أن يشهد جميع الواجبات التي يتناولها الخورى الكسيح ، ويقطع له أجزاء الدجاج في أناقة .

هؤلاء التلاميذ ككل الشبان في كل المهن ، يبالغون في قيمة هذه التوافه التي يرونها خارقة للعادة ، فتطنى على خيالهم حتى تملكه .

قال جوليان في نفسه : يجب أن أشارك في نقاشهم . فهم حين لا يتحدثون عن النقائض والخوريات الغنية ، يتناولون الناحية الدنيوية للنظريات الدينية ، والخلافات التي تقع بين حكام الولايات والعمدة من ناحية ، والحوارنة من ناحية أخرى . ثم رأى أن فكرة بدأت تسلط عليهم وهي أنهم يتخذون البابا إلماً آخر ، يخضعون عليه من القوة والخبروت أكثر مما يخضعون على الله . وحينما يعلمون أن الأب بيرار لا يسمعهم ، يقولون بصوت منخفض : إن البابا حين لا يعنى بتعيين كل حكام الولايات ، وكل عمد فرنسا ، فهو إنما يترك هذه المهمة للملك فرنسا ، الذي ، اختاره انبأ أ كنه للكنيسة .

ولما وصل الحديث إلى هذا الحد ، اعتقد جوليان أنه يستطيع أن يظهر لهم بعض ماجبلت عليه نفسه من إجلال لكتاب « البابا » من تأليف دي متر . وفي الحق أنه أذهلهم بما تحدث ، فكان هذا عليه نحسا جديدا . لقد كرهوه لأنه شرح آراءهم خيرا منهم . وذلك أن الأب شيلان لم يكن فطنا حين علم جوليان ، كما لم يكن لبقا إزاء نفسه . عود تلميذه التفكير السليم وأخذ عليه ألا يتأثر بقول تافه ، ولكنه أهمل أن يعلمه أن هذه العادة جريمة في نظر الحقى الذين لا يؤبه لهم ، لأن التفكير السليم يؤذى المشاعر .

كان الحديث الحسن المرتب الذى حدثهم به إثما جديداً ، لأنهم كثيرو التفكير ، فيه ، وكلمة واحدة قالوها بكل قلوبهم تدل على مقدار بغضهم الشديد له فقد أطلقوا عليه اسم : مارتن لوثر . وحببتهم فى ذلك كما يزعمون ، المنطق الجهنمى الذى كان يبعث الغرور فى نفس زميلهم . وكان بينهم من يفوقون جوليان جمالا بنضرة اللون ، ولكنه امتاز عنهم ببياض اليدين . ولم يكن يستطيع أن يخفى بعض عادات تدل على نظافة طريفة . على أن هذه الميزة لاتعد فضيلة فى هذا المنزل الموحش ، الذى كتبت عليه المقادير الإقامة فيه . أما الفلاحون القذرون الذين هم معه ، فكانوا يقولون إنه مقطور على عادات ناعمة مسترخية .

إننا لنخشى أن تتعب القارىء إذا استعرضنا المآسى التى تعرض لها بطلنا ؛ فقد أراد بعض زملائه الأقوياء أن يضربوه ، فاضطر إلى أن يتسلح بفرجار حديدى ، وأشار إليهم أنه سيضرب به إن هم اعتدوا عليه . والإشارات فى تقرير الجواسيس ليست لها قيمة الكلمات .

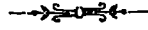


## الفصل الثامن والعشرون

### موكب ديني

[ كانت القلوب جميعا شديدة التأثر، حتى لكانت أروحا  
من الله قد هبطت إلى هذه الشوارع القوطية الضيقة  
المتشعبة، التي فرشها المؤمنون بالرمال. ]

يوسف



ولما حاول جوليان عبثا أن يظهر بمظهر الخضوع والغفلة، لم يعجبهم ما فعل؛ لأنه لم يكن مثلهم. قال في نفسه: ولماذا لا يجب المدرسون استكانتي وخشوعي وهم دقاق الحسى، مختارون من بين آلاف الأساتذة؟ لم يكن فيهم إلا رجل واحد يظهر لجوليان الود، ويحمله على الاعتقاد بأنه يصدق كل ما يقول، وهذا هو الأب شاس برنارد مدير الحفلات في الكتدرائية، الذي يعمل هناك منذ خمسة عشر عاما، على أمل أن يسند إليه منصب كاهن قانوني. وهو يدرس البلاغة المقدسة في المدرسة حتى يتحقق له هذا الأمل. وقبل أن تنكشف لجوليان الحقائق المرة، كان يسارع إلى محاضرات الأب شاس حريصا على أن يكون أول الداخلين؛ لذلك ولدت بينهما صداقة. وكثيرا ما اصطحب الأب شاس جوليان بعد المحاضرات سائرين معاً في الحديقة..

وساءل جوليان نفسه: ما أمد هذه الصلة؟ وكان يعجب حين يحدثه الأب شاس ساعات طويلة عن الزينات التي تملكها الكتدرائية. أخبره بأن

فيها للكاهن سبع عشرة حلة تزينها الضفائر ، وذلك غير زينات الحداد .  
ونحن نرجو خيراً كثيراً من الرئيسة العجوز دي روميéry<sup>(١)</sup> ، فهذه  
السيدة البالغة من العمر تسعين سنة ، تحتفظ منذ سبعين عاماً على الأقل ،  
بشباب زفافها التي صنعت من نسيج ليون الفاخر الموشى بالذهب . ثم وقف  
الأب شاس فجأة ، وقال في عجب شديد : تصور يا صديقي أن هذا النسيج  
لا يتكسر لكثرة ما به من ذهب ، وقد أذيع في بيزانسون أن وصية هذه  
السيدة ستزيد كنز الكندرائية أكثر من عشرة أثواب من حلال الكهنة ،  
غير أربعة أو خمسة من أغطية الرأس التي تستعمل في الحفلات الكبيرة .  
ثم خفض الأب شاس صوته وقال : وأعتقد أنها ستترك لنا ثمانية مشاعل  
بديعة من الفضة المحلاة بالذهب ، ويقال إن شارل الجسور دوق برجونيا  
اشتراها من إيطاليا ، وكان أحد أحفاده وزيراً مقرباً .

فأخذ جوليان يسائل نفسه : ولكن ماذا يقصد هذا الرجل من  
ذكر هذه الثياب البالية ؟ إن هذا الاستعداد الماهر قد بدأ منذ قرن .  
وإن لم يكن هناك ما يدل على ذلك .

إنه ولا شك يحدرنى حذراً شديداً ! والأب شاس أمهر من أولئك  
المدرسين جميعاً الذين تنكشف نواياهم بعد خمسة عشر يوماً . وأنا أدرك  
السبب ، فطموحه في كف القدر منذ خمسة عشر عاماً !

---

(١) هو اسم إحدى قريبات الرسام الكبير أوجين ديلاكروا . وكانت سيدة  
غربية الأطوار ، عاشها الكاتب بضعة شهور من عامي ١٨٢٨ — ١٨٢٩ . ولم  
يطلق اسمها فحب على الرئيسة العجوز ؛ بل استوحى من خلقها وعاداتها وصفاتها الكثير  
حين رسم بطلته قصته في الجزء الثاني « ماتيلد دي لامول » .  
المغرب

وفي إحدى الأمسيات والتلاميذ في درس من دروس الأسلحة ، نودي جوليان ليقابل الأب پيرار . ولما مثل بين يدي المدير قال له :

— سيحتفل غدا بعيد الله . والسيد الأب شاس برنارد في حاجة إليك لتعونه في تزيين الكنيسة ، فاذهب وأطع .

ثم ناداه الأب پيرار مرة أخرى بعد ما سار وقال له في حنان :  
— سنرى ما إذا كنت ستنتهز هذه الفرصة لترتاد بعض أحياء المدينة .

فأجابه جوليان باللاتينية :

— إن لي أعداء مقنعين يظهرون الودّ ويضمرون البغضاء .

ذهب جوليان إلى الكندرائية في الصباح الباكر منكس البصر . وقد استفاد كثيرا من منظر الشوارع التي فرشت احتفاء بالموكب ، ومن النشاط الذي دبّ في المدينة . وخيل إليه وهو يسير أنه لم يمض عليه في المدرسة إلا زمن يسير . كانت أفكاره متجهة نحو فرجى ، ونحو الفتاة الجميلة أما ندابنيه، التي قد يلقاها وهو يسير على مقربة من مشربها . ورأى من بعيد الأب شاس برنارد على باب الكندرائية ، والأب رجل بدين يشرق وجهه بالبشر وتملك عليه الصراحة كل نفسه . وكان عليه في هذا اليوم دلائل العظمة والسرور . ولما رأى جوليان من بعيد صاح به .

— أنا في إنتظارك يا بني العزيز ، فرحبا ... إن عملنا اليوم طويل شاق ، فلنستعن عليه بالفطور الأول ، أما الفطور الثاني فسيكون في الساعة العاشرة أثناء القداس الأكبر .

فأجاب جوليان في وقار :

— أحب يا سيدي ألا أكون وحدي لحظة واحدة ، فهل لك أن تتفضل بملاحظة أنني حضرت في الساعة الخامسة إلا دقيقة واحدة ؟ قال ذلك وهو يرفع رأسه نحو الساعة المعلقة على الحائط .

— آه ! إن هؤلاء الأشقياء الذين معك في المدرسة بشوا في نفسك الرعب ! إنك لطيب حقا حين تفكر فيهم . وهل يعيب الطريق الحسن أن في السور الذي يحفه أشواكا ؟ إن المسافرين يأخذون طريقهم ولا يعبثون بالأشواك التي تبقى حيث هي ، حتى يبليها الزمن . دعنا من هذا وإلى العمل يا صديقي العزيز ، نعم إلى العمل !

كان الأب شاس على صواب حين قال : إن العمل سيكون شاقا . كان في الكتدرائية أمس ماتم كبير ، عوق الحفل الديني عن أن يعد له شيء . وكان عليهم في هذا الصباح أن يغطوا الأعمدة القوطية كلها بنسيج دمشقي أحمر ، إلى إرتفاع ثلاثين قدما . وهذه الأعمدة تكوّن في الكتدرائية ثلاثة مواضع كل موضع منها كأنه وسط الكنيسة . وكان رئيس الأساتذة قد أحضر من باريس أربعة نجارين في عربات البريد ، وهؤلاء السادة لا يستطيعون أن يعملوا وحدهم ، فدعوا زملاءهم من أهل بيزانسون . وبدل أن يُغضوا عن عيوبهم وعدم مهارتهم ، سخروا منهم فزادوهم فشلا وارتباكا .

رأى جوليان أن عليه أن يصعد السلم بنفسه ، وساعده نشاطه على أن يصعد . ثم تولى أمر توجيه نجاري بيزانسون . فسرّ الأب شاس سرورا كبيرا ، وهو يراه ينتقل من سلم إلى سلم في خفة ورشاقة . ثم تمت تغطية

الأعمدة كلها بالنسيج الدمشقي ، وأصبح عليهم أن يضعوا خمس باقات كبيرة من الريش فوق الظلة الكبيرة التي تعلو الهيكل الرئيسي . وكان هناك تاج مذهب من الخشب، يقوم على ثمانية أعمدة كبيرة عليها تماثيل من رخام إيطاليا . ويصل الإنسان إلى منتصف المظلة فوق بيت القربان المقدس ، كان عليه أن يسير على حافة خشبية، ربما كانت آهلة بالسوس ، على ارتفاع أربعين قدما .

بعث منظر هذا الطريق الشاق في نفوس التجارين الباريسيين رعبا قسى على مرحهم ، فنظروا كثيرا وتناقشوا طويلا . ولم يجرؤ أحدهم على الصعود . أما جوليان فإنه أمسك بباقات من الريش، وصعد السلم مسرعا حتى وضعها في دقة على هيئة تاج في منتصف المظلة ، ثم نزل فاحتضنه الأب شاس برنارد بين ذراعيه ، وصاح به القس الطيب :

— لقد قمت بعمل رائع ، وسأقص ذلك على مونسنيور .

كانت وجبة الساعة العاشرة يسودها المرح ، لأن الأب شاس لم يز كنيسة من قبل مزينة بمثل هذه الزينة ، وأخذ يحدث جوليان قائلا :

— كانت أمي أيها التلميذ العزيز، تؤجر مقاعدهذه الكنيسة الفخمة، فكان لهذا البناء الكبير الفضل في تربيتي . إن الرعب الذي بثه روبسبير في نفوس الناس قضى علينا ، وكنت إذ ذاك في الثامنة من عمري ، أقيم القداس في الغرف ؛ فكنت أطمع في الأيام التي يقام فيها القداس . وكنت أتقن طي ثياب القداس فلا تلتف أشرطتها . ولما أعاد نابليون إقامة الشعائر الإيدنية من جديد ، سعدت بالإشراف على كل شيء

في هذه الكنيسة المقدسة ، وامتعت نظري يزيتها البديعة خمس مرات في كل عام . لكنني لم أرها في مثل هذه الزينة كما أراها اليوم ، فالتقوب التي في النسيج الدمشقي لم ترفأ في الماضي كما رفئت اليوم ، ولم يلف النسيج على الأعمدة كما لف الآن .

فقال جوليان في نفسه :

— لقد آن للأب أن يفضى بسرّه ؛ لأنه يتحدث إلى الآن عن نفسه

مدفوعاً بميله نحوي ، فلا بد أن يكشفني بما ينطوي عليه قلبه . وهذا الرجل المتحمس لم يقل شيئاً يدل على الحماقة . ثم استطرد يقول :

— لقد عمل كثيراً ، ومع ذلك فهو سعيد . وشرب كثيراً من النبيذ الطيب ،

فيا له من رجل ! ويا له من مثل ينبغي أن أحتذيه ! إنه يستحق كل تقدير .

ودقت أجراس القديس الأكبر ، فأراد جوليان أن يرتدى قميصاً

فوق ثيابه كما يفعل الأكليروس ليسير مع رئيس الأساقفة في الموكب .

فصاح به الأب شاس :

— اللصوص يا صديقي ! أنت لا تفكر في اللصوص ! سيخرج

الموكب الآن فتبقى الكنيسة خالية ، فعلينا أن نظل هنا لنحرسها . إننا

نكون جدّ سعداء إذا لم يسرق منا إلا بعض الأشرطة التي في أسفل الأعمدة .

هذا الشريط هدية من مدام دي رومبيري ، جاءها من والد جدها

الكونت المشهور . ثم اقترب الأب شاس من أذن جوليان وهمس متحمساً :

— إنه من الذهب الخالص يا صديقي ، ليس فيه زيف ! وحراسة

الجناح الشمالي موكولة إليك فلا تغادره . وعلى أنا حراسة الجناح الجنوبي

وصحن الكنيسة الكبير . اتبه جدا إلى كراسي الاعتراف ، فجواسيس اللصوص ينتهزون هناك فرصة تغفل فيها فيسرقون الكنيسة .

كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعا حين دقّ الناقوس الكبير دقات عنيفة ، دوت في كل الأرجاء مؤذنة بالعيد الديني . فتأثرت بها نفس جوليان حتى هام في آفاق بعيدة من الخيال .

وزادت في حماسه رائحة البخور وأوراق الورد التي يلقيها الأطفال

وهم متنكرون في زي القديس يوحنا ، أمام السر المقدس . ما كان ينبغي أن يوقظ رنين الأجراس في نفس جوليان إلا فكرة العمل الذي يقوم به عشرون رجلا ، أجر كل منهم خمسون سنتيا ، يساعدهم فيه خمسة عشر أو عشرون آخرون من الأتقياء . كان ينبغي أن يفكر في تقطع الجبال أو تكسر الخشب أو في الخطر الذي ينجم عن سقوط الناقوس ، وهو يقط مرة كل قرنين . وكان ينبغي أن يفكر في كيفية خفض أجور الذين يقرعون الناقوس ، أو أن يجعله صفحا ومغفرا عن آثامهم ، أو يفكر في فضل تمنحه الكنيسة دون أن يؤثر في كنوزها . ولكنه ما كان يفكر في شيء من هذا الذي تفرضه عليه الحكمة والكياسة ، بل تأثرت نفسه بتلك الأصوات القوية الجبارة ، فسبحت في عالم بعيد الآفاق . إنه لن يكون قساً صالحاً أبداً ، ولا إدارياً حازماً ؛ لأن النفوس التي تتأثر على تلك الصورة لا تصلح إلا لأن تكون نفوس فنانين فحسب . وهنا يظهر اعتداد جوليان بنفسه في أقوى مظاهره . فخمسون غيره من زملائه في المدرسة يسمعون رنين هذا الناقوس الضخم فلا يفكرون إلا في أجور

قارعيه ، لأنهم أكثر منه علماً بالحياة المادية . تعلموها من كراهية الناس لهم ، من العصيان الذى يظهر لهم فى كلِّ كمين وخلف كلِّ حاجز . إنهم لينظرون فى فراسة شديدة؛ ليتبينوا ما إذا كان تأثر الجمهور برنين الأجراس يعادل ما دفع للقارعين من أجر . ولو أن جوليان أراد أن يفكر فى الفوائد المادية للكتدرائية لجم به خياله ؛ وفكر فى كيف يقتصد أربعين فرنكا فى مصنع ، فيضيع بذلك فرصة اقتصاد خمسة وعشرين سنتياً .

كان الموكب يسير متهادياً فى بيزانسون ، واليوم رائع جميل ، ويقف عند المذابح المزينة لذباح القربان التى أقيمت فى جميع أرجاء بيزانسون ، وإن لم تصادف ارتياحاً من أولى الأمر وذوى الشأن فى المدينة . كان كلِّ هذا يجرى فى المدينة ، والكنيسة ينجم عليها سكون عميق ، ويسودها ظلام خفيف ، ويتردد فى أرجائها هواء بارد لطيف لا يزال عبقاً برائحة البخور والأزهار . وحمل كلِّ هذا جوليان على أن يسترسل فى الأحلام الجميلة . ولم يقدِّم يخشى أن يزعجه الأب شاس ؛ لأنه مشغول بجزء آخر من البناء . كانت روحه كأنها فارقت جسده ؛ لأنها سبحت فى آفاق بعيدة حين مشى الهوينى فى الجناح الشمالى الذى وُكِّلت حراسته إليه ؛ وزاد اطمئنانه حين لم ير فى أماكن الاعتراف إلا سيدات تقيات عددن قليل ، وقد كان ينظر ولكنه لا يرى . ثم ذهب عنه بعض ذهوله حين رأى سيدتين أنيقتين تركم إحداهما فى كرسي الاعتراف ، وتجلس الثانية على مقعد بالقرب منها ، ولحظ — وإن كان ينظر ولا يرى — أن ليس فى مكان الاعتراف



قيس ، ولعل ذلك راجع إلى إحساسه بالواجب إحساساً غامضاً ، أو إلى إعجابه بملاص السيدتين التي كانت لا تخلو من بساطة ونبيل . فقال حين رآهما :

عجيباً ! كيف لا ترمك الجميلتان أمام المذبح إن كانتا تقيتين ، أو تجلسان في المقاعد الأمامية بإحدى الشرفات إن كانتا من الطبقة الراقية . إن هذا الثوب جميل حقاً ! في الأناقة ! ثم سار بيضاء محاولاً أن يراها .

وسمعت الراكعة خطواته في هذا الصمت الشامل فأذارت رأسها ملتفتة ، ثم صاحت صيحة مخنوقة أغنى عليها على أثرها ، ثم خارت قواها فلفطت إلى الخلف ، وعندئذ أسرعت صديقتها القريبة منها إلى نجدتها . ورأى جوليان في هذه اللحظة كتفي المرأة التي أغنى عليها ثم رأى عقدها الماسية الثمين ، الكثير الماسات فذهل لأنه يعرفه . وكانت المفاجأة شديدة حين عرف كذلك شعر مدام دي رينال ! إنها هي بعينها ما في ذلك شك . أما التي حنت إلى نجدتها وحالت بينها وبين السقوط ، وأمسكت رأسها فلم تكن إلا مدام درقييل . فقد جوليان شعوره وأسرع نحوها وحال بينها وبين السقوط لأن مدام دي رينال كادت تهوى بصديقتها إلى الأرض . ثم طالع وجه صديقتها فألقاه مائلاً على كتفها ، وهو شاحب لا أثر فيه للعواطف . فساعد مدام درقييل على إسناد هذا الرأس الجميل إلى حافة كرسي من القش ؛ ثم زكع . والتفتت إليه مدام درقييل فلما عرفته قالت له في غضب شديد :

— ابتعد يا سيدى ، اختف فى الحال ! واحذر أن يقع بصيرها عليك مرة أخرى ، لأن رؤيتك قد آذت نفسها . وكما كانت سعيدة قبلاً أن تعرفك ! إنك فظيع فى كل ما تعمل . اختف حالا ، إن كان لا يزال فيك من الحياء بقية .

قالت هذا فى سيطرة كثيرة ، وكان جوليان ضعيفاً إلى أبعد حد فى ذلك الوقت فأطاع وابتعد . وأخذ يقول فى نفسه وهو يفكر فى مدام درفيل : لقد كانت تكرهنى دائماً .

كانت الكنيسة فى هذا الوقت تدوى أرجاؤها بترتيل جميل يردده القسس الذين هم فى طليعة الموكب ، حين عودته إلى الكندراية . ونادى الأب شاس جوليان عدة مرات ، فلم يصل صوته إلى مسامعه أول الأمر . فذهب إليه فإذا هو خلف أحد الأعمدة متضعضاً خائر القوى . فأخذ بذراعه ليقدمه إلى رئيس الأساقفة . ولكنه رآه شاحب اللون لا يستطيع السير ولا يقوى على الحركة ، فدّ ذراعه له قائلاً :

— إنك تشعر بالإعياء يا بنى العزيز ، فقد عملت كثيراً . تعال واجلس على هذا المقعد الصغير الذى يجلس عليه خلفي قسّ يوزع الماء المقدس ، وسأحول بينك وبين نظرات الناس . وكانا إذ ذاك بجوار الباب الكبير ، فقال الأب شاس :

— هوّن عليك فلن يحضر الرئيس قبل عشرين دقيقة على الأقل ، فاجتهد أن تستردّ قواك . وحين يمرّ مونسنيور فسأنهضك من مكانك ؛ لأننى قوى فتى وإن كنت متقدم السن . ولكنه عندما أبى رئيس الأساقفة

كان جوليان لا يزال بادي الاضطراب ، فأعرض الأب عن فكرة تقديمه  
لمونسنيور قائلاً له :

— حَقَّقْ عليك ولا تخزن فلن أعدم فرصة أخرى .

وفي المساء حمل الأب شامس إلى كنيسة المدرسة عشر ليبرات من الشمع  
اقتصدوها من حفلة الكعكذرائية . وزعم الأب أن جوليان كان في ذلك  
صاحب الفضل لأنه كان سريماً في إطفاء الشموع . وما كان هذا صحيحاً .  
فقد فقد المسكين كل قواه منذ وقع نظره على مدام دي رينال .

---

## الفصل التاسع والعشرون

### أول نجاح

[ لقد عرف عصره ، وعرف الإقليم الذى يعيش فيه ، وكان غنيا ] .

لى بريكورسير



كان جوليان لا يزال متأثرا بحلمه العميق وتفكيره فى حادث الكتدرائية ، حين استدعاه الأب القاس بيار ذات صباح وقال له :

— إن السيد الأب شاس برنارد كتب إلى يوصينى بك ، وسلوكك

على وجه الإجمال يعجبنى . وإن كان فىك غفلة كبيرة ، وحماسة فطرت عليها

لا يظهر أثرها عليك فى سهولة ويسر . ومع كل ذلك ، فقلبك حتى

الآن طيب كريم ، وذكاؤك قوى جبار ، وعلى الجملة فإنى أرى فىك

قبسا لا يجب إهماله ، أنا على وشك مغادرة هذه المدرسة بعد أن خدمتها

خمس عشرة عاما ، والجريمة التى يتهمونى بها هى أننى تركت لتلاميذ

المدرسة حرية التصرف ولم أشجع أو أحارب هذه الهيئة السرية التى

حدثتني عنها ، وأنت على كرسى الاعتراف . وأريد قبل رحيلى أن أعمل

لك شيئا ، وكان على أن أفعل هذا قبل الآن بشهرين ، لأنك تستحق

ذلك ، لولا الوشاية التى تستند إلى أصل صحيح عن أما ندا بينية ، التى وجدنا

عنوانها فى حقيبتك . وعلى هذا فسأعينك معيدا للمهدين الجديد والقديم .

فحقق قلب جوليان خفقة الفرح ، وهم أن يسجد لله شكرا على نعمته .

ولكنه عمد إلى حركة أخرى أكثر صدقا ، فاقترب من الأب بيران وقيلّ يده . فغضب المدير وصاح :

— ما هذا ؟

ولكن نظرات جوليان تمت عن أكثر مما فعل ، معبرة عن أصدق الشكر والاعتراف بالجميل . فنظر إليه الأب في ذهول كأنه رجل فقد العواطف الرقيقة منذ سنوات طوال ، فكشفت عاطفة جوليان عن حقيقة نفس المدير واضطرب صوته وهو يقول :

— حسنا ! إنني يا بنى عطوف عليك حقا ، ويعلم الله أن هذا على

الرغم مني . كان ينبغي لى أن أكون عادلا لأحب أحدا ولا أبغض أحدا .

ستكون حياتك شاقة عسيرة لأننى أرى فيك شيئا يغيظ العوام ، وسيلاحتك

طول الحياة حقد وغيره . ستلقى الكراهية من رفاقك أينما ذهبت ،

والذين يدعون أنهم يحبونك خادعون يريدون الوقعة بك . وليس لهذا

إلا ذواء واحد : هو أن تعتمد على الله وحده فى كل ما ينزل بك ، والله

وحده هو الذى أراد أن يعاقبك على اعتدادك بنفسك ، فبث كراهتك فى

نفوس الناس ؛ ليكن سلوكك نقيا ، فهذا هو الطريق القويم الذى يجدر

بك أن تسلكه . وإذا تمسكت بالحقيقة تمسكا قويا ، فسيلغب أعداؤك

على أمرهم عاجلا أو آجلا .

لم يسمع جوليان منذ وقت طويل صوتا صادقا عطوفا ، لذلك يجب أن

تغفر له ضعفه لأنه بكى ، ففتح المدير ذراعية وعانقه . وكانت هذه اللحظة

من أسعد لحظات حياتهما .

فرح جوليان كثيرا ؛ وكان هذا التقدم أول نجاح أصابه ، ومزاياه كثيرة لا حصر لها . ولكي تقدر هذه المزاياء يجب أن نضع أنفسنا في مكان أولئك الذين حكم عليهم أن يقضوا شهوراً طويلة ، لا يستطيعون أن يخلوا بأنفسهم ساعة من نهار ، وهم يعيشون دائماً مع رفاق خير صفاتهم الوقاحة ، وهم غالباً لا يطاقون ، فصيحاتهم وحدها كفيلة بأن تهد كيانه الرقيق العواطف الدقيق المزاج : فسرور أولئك الفلاحين الذين يطعمون شهى الطعام ويلبسون جيد الملابس ، سرور صاحب ، وعلامة المرح عندهم هي أن يصيحوا بكل ما فيهم من قوة .

يتناول جوليان طعامه الآن وحده ، بعد موعد تلاميذ المدرسة بساعة واحدة ، ويحمل مفتاحاً للحديقة التي يتبره فيها حين تكون خالية من التلاميذ .

لقد ذهل كثيراً حين رأى زملاءه لم يعودوا يظهرون له الكراهية الشديدة التي كانوا لا يخفونها من قبل ، وكان يتوقع أن تزداد . وكانت هذه الرغبة السرية التي تحملهم على ألا يوجهوا إليه حديثاً لم يعد سببها أنه ينظر إليهم بكبرياء وغرور ، خلقت له من قبل أعداء كثيرين ، وإما أصبح هؤلاء الأفظاظ الذين يعيشون معه ، يفسرونها بأنها عاطفة صادقة تدل على احتفاظه بكرامته . وقلت كراهيتهم له كثيراً وخاصة بين حديثي السن من زملائه الذين أصبحوا تلاميذه ، فكان يعاملهم معاملة تنطوي على الأدب الجم . والتفت حوله بعض الأنصار شيئاً فشيئاً ولم يعد أحد يستسيغ الآن يلقبه بمارتن لوثر .

ولكن ما فائدة تسمية أصدقائه وأعدائه؟ كل هذا قبيح ، ويزيده قبحاً أن وصفه صادق ! ومع ذلك فعلمو الأخلاق وحدهم هم الذين يسيطرون على الناس ، ولست أدري ماذا يكون مصير الناس إن فقدنا هؤلاء المعلمين؟ وهل تغني الصحيفة عن الخورى ومحلّ محلّه؟

ومنذ أسند المنصب الجديد إلى جوليان ، حاول المدير ألا يتحدث إليه على انفراد ، فكان هذا منه مسلماً حذراً حكماً ، يفيد تلاميذه وإن كان امتحاناً له على كل حال . والبدأ الذي سار عليه هذا المدير القاسى ؟ ولم يفيره إطلاقاً هو : إذا رأيت رجلاً له ميزات فضع العقبات في سبيل ما يريد وما يفعل ، فإذا ما كانت صفاته حقيقية ، فإنه سيعلم كيف يتغلب على العقبات أو يتجنبها .

كان موسم الصيد قد حلّ ، فبدأ لفوكيه أن يرسل وِعلاً وخزيراً برياً إلى المدرسة باسم والدى جوليان . ووضع الحيوانان في المرّ بين المطبخ وغرفة الطعام ، ورآهما الطلبة وهم ذاهبون إلى الغذاء فكانا موضع غرابة واستطلاع منهم جميعاً . فالخزير البرى وإن كان ميتاً تماماً يبعث الرعب في قلوب صغار التلاميذ ، وكانوا يقتربون منه ويلمسون أنيابه . وظلّ هذا الصيد موضع حديث المدرسة أسبوعاً كاملاً .

وقد جعلت هذه الميزة أسرة جوليان في صفّ الطبقة الاجتماعية التي يجب أن تحترم ، فكان هذا سبباً جديداً لحسد الزملاء ، إذ ظنوا أن جوليان أكثر منهم ثروة ، وللمال عندهم قوة وسلطان . فأخذ شازل وزملاؤه الممتازون من التلاميذ يقتربون منه ويكادون

يشكون من أنه لم يخبرهم ببراء أسرته ليظهروا الاحترام اللازم لسلطان المال.  
ثم طلب جوليان للتجنيد لكنه أعفى لأنه طالب في المدرسة  
الأكاديمية ، فزن لذلك كثيرا وأخذ يقول: لو طلبت للتجنيد قبل ذلك  
ببشرين عاما لمشت عيشة الأبطال ! لقد مضى ذلك الزمن المجيد .

وسار يثنزره في حديقة المدرسة وحده ، فسمع بنائين يتحدثون وهم  
يعملون في جدار السياج ، ودار بينهم الحديث التالي :  
— حسنا ! يجب أن نرحل فهذا تجنيد جديد .

— مرحى بالتجنيد في زمن ولى ! لقد كان البناء يعمل ضابطا ثم  
يرقى إلى درجة قائد ، أجل لقد رأينا ذلك .

— انظر ماذا يحدث الآن ! إن البائسين هم الذين يلحقون بالجيش ،  
وأما الذين يستطيعون أن يعيشوا فهم لا يبرحون ديارهم .  
— من ولد فقيرا مات وهو فقير .

— آه ! حقيقة ما يقولون إنه مات ؟ قال هذا بناء ثالث .

— الأغنياء وحدهم هم الذين يذيعون هذا لأنه يدخل في قلوبهم رعبا !  
— يا للفارق العظيم ! كان كل شيء سيم في أوانه ! لقد خانته  
القواد الذين معه ! وهل ينبغي للإنسان أن يكون خائنا ؟

سرى في نفس جوليان شيء من الراحة بهذا الحديث ، وابتعد عنهم  
وهو يقول متنهدا :

إن الملك الحقيقي هو الذى تظل ذكراه أبدا في نفوس الرعية !



وخلّ موعد الامتحان ، فأجاب عن الأسئلة بطريقة بديعة ، ولحظ أن شارل نفسه يحاول أن يظهر ما عنده من علم . ورأى המתحنون في أول يوم ، أن اسم جوليان سورل يرد في قوائمهم الأول أو الثاني فحنقوا ، لأن الذي عندهم جميعاً هو الرجل الشهير فريلير نائب الأسقف . وقد أحيطوا علماً بأن جوليان هو الابن العزيز للأب بيرار . وقامت في المدرسة سراهنات على أنه سيكون الأول في امتحان هذا العام ، فينال بذلك شرف تناول الطعام على مائدة مونسنيور رئيس الأساقفة . ثم حدث في نهاية جلسة من جلسات الأمتحان أن تتورول آباء الكنيسة ، فوجه إليه ممتحن لبق بعض أسئلة عن القديس جبروم ، وذكر شعف القديس بشيشرون ؛ ثم تحدث عن هوارس وفرجيل وغيرهما من زنادقة المؤلفين . وكان جوليان قد حفظ مقطوعات كثيرة لهؤلاء المؤلفين على غير علم من زملائه . وفتنه نجاحه ففسى المكان الذي هو فيه حتى أجاب الممتحن إلى ما طلبه وأنشد في حماسة بعض أشعار هوارس وعلق عليها . وظل كذلك عشرين دقيقة يتورط فيما خدعته به نفسه . وأخيراً تغير وجه الممتحن بفتة وأخذ يؤنبه تأنيباً شديداً على الوقت الذي أضاعه في دراسة هذا الكفر وعلى الآراء التافهة بل الإجرامية التي حشا بها رأسه . أنه بعد أن ألح عليه من قبل أن يتحدث إليه عن هذه الأشعار . فقال له جوليان في تواضع بعد ما تبين المناورة الماهرة التي ذهب ضحيتها :

— حقاً يا سيدي ما أنا إلا غر أحق .

هذا التفرير الذي عمد إليه الممتحن تفرير حقير ، وبخاصة في أوساط المدرسة وبين التلاميذ . لكن هذا لم يحل بين الأب فريلير وبين أن يكتب بيده القوية الباطشة رقم ١٩٨ بجوار اسم جوليان . ووجد في ذلك لذة لأنه قد وجه بما فعل ضربة إلى عدوه بيرار . والأب فريلير رجل حاذق ، نظم الهيئات الاجتماعية في بيزانسون بمهارة فائقة ، ورسائله إلى باريس يضطرب لها القضاة والمديرون ، وكذلك الضباط العظام في ثكناتهم .

وكان مهتما منذ عشر سنوات بأن يعزل الأب بيرار من إدارة المدرسة ، لأن الأب بيرار كان يطبق على نفسه النهج الذي رسمه لجوليان تطبيقاً صارماً ، وهو مخلص تقي لا يعرف الدسائس ، ويؤدي واجبه في دقة شديدة . لكن السماء غضبت عليه فأعطته مزاجاً سوداوريا جعله يحس إحساساً عميقاً كل ما يوجه إليه من سباب أو كراهة ، فكان يتأثر بها ولا ينساها لفرط حسه وثورة نفسه : ولم ود أن يستقيل من منصبه هذا ، وحال بينه وبين ذلك اعتقاده أنه قد كتب عليه هذا المنصب ليؤدي واجبه ، وليحول دون تقدم اليسوعية وعبادة الأوثان .

وقبيل الامتحانات كان قد مضى عليه ما يقرب من شهرين لم يتحدث خلالها إلى جوليان . ومع ذلك فإنه مرض ثمانية أيام حين وصل إليه الخطاب الرسمي الذي يحمل النتيجة ، ورأى فيه أن ترتيب جوليان الثامن والتسعون بعد المائة ، وهو التلميذ الذي غده فخرًا لمدرسته . وكان عزاءه الوحيد أن يوجه إلى تلميذه كل عناية ورعاية على الرغم مما نطر عليه ذلك المدير من خلق شديد . ولم كان سعيداً حين رأى أن جوليان ليس غاضباً ولا نادمًا ولا يائسًا .

ومضت أسابيع ، تسلّم بعدها جوليان خطاباً دلّ طابعه على أنه من باريس ، فذهل وقال في نفسه : وأخيراً برت مدام دي رينال بما وعدت به !

ولكنه وجد الخطاب من شخص يدعى پول سورل يزعم فيه أنه أحد أقاربه . وقد أرسل إليه حوالة بمبلغ خمسمائة فرنك وأخبره أنه إذا ثابر بنجاح على دراسة المؤلفات اللاتينية القيمة ، فإنه سيتسلم في كل عام مبلغاً كالمبلغ الذي أرسل إليه اليوم .

فقال في نفسه في حنان شديد : إنها هي ولا شك ، وهذه الطيبة لا تصدر إلا عن قلبها ! لقد أرادت أن تعزّي نفسي ، ولكن لماذا لم تقل كلمة تعبر عن الصداقة أو الحب ؟

لكنه قد أخطأ التقدير ، فدام دي رينال قد أسلمت زمامها إلى مدام درقيل ، وكانت فريسة لندم شديد على ما فرط منها . لكنها كانت تفكر في هذا المخلوق العجيب الذي ساقته إليها الأقدار فقلب حياتها رأساً على عقب ؛ كانت تفكر فيه وإن حرّمت على نفسها أن تكتب إليه .

ولو استمرنا لغة المدرسة لقلنا: إن إرسال هذا المبلغ إلى جوليان معجزة سماوية ، وإن الأب فريلير نفسه هو سبب المنحة . وقبل ذلك باثني عشر عاماً ، وصل الأب إلى بيزانسون ، رقيق الحال ، وقد أصبح الآن من أغني ملاك المقاطعة ، واشترى ضمن أملاكه أرضاً أصبح نصفها له ، وآل نصفها الآخر إلى السيد دي لامول ، فقامت بين هذين الشخصين قضية كبيرة .

وعلى الرغم من مكانة المريكزى لامول فى باريس ومن الأعمال  
الكثيرة التى كان يقوم بها فى البلاط فإنه تبين مقدار الخطر الذى يحيق  
به إن حارب الأب فريلير فى بيزانسون ، لأن نائب الأسقف هذا بيده  
عزل حكام الأقليم وتولييتهم . وكان فى استطاعة المريكز أن يلتمس الإنعام  
عليه بحسين ألفاً من الفرنكات تدخل فى أى باب من أبواب الميزانية  
ثم يترك الأب فريلير هذه القضية التافهة التى يتنازعان فيها حسين ألفاً  
من الفرنكات ؛ كان فى استطاعة المريكز أن يفعل ذلك لكنه كان  
مغيظاً حانقاً على الأب ، معتقداً أنه على صواب : فياله من سبب  
وجيه ! ثم لتسمح لنا بأن نقول : أى قاض ليس له ابن أو ابن عم على  
الأقل يجب أن يرقى به إلى أعلى المناصب ؟

وبعد أن صدر أول حكم فى صالح الأب فريلير بثمانية أيام ، ركب  
عربة الأسقف ؛ وذهب بنفسه يحمل رسالة الشرف إلى محاميه ليظهر سلطانه  
للذين يتعاملون عن تقديره حق قدره . أما المريكزى لامول فكانت  
يجهل مكانة الأب فريلير ؛ ولما شعر بضعف من يتولون الدفاع عن قضيته ،  
شاور الأب شيلان فى الأمر فأرشده إلى الأب پيرار .

وظلت العلاقات قائمة بين المريكز والأب پيرار بضعة أعوام فى زمن  
هذه القصة . وأظهر پيرار حماسة شديدة فى هذا الأمر ؛ كان يرى محامى المريكز  
فى أغلب الأحيان فدرس القضية ، وعرف أن المريكز على حق فناصره  
فى غير ما موارد ، على ذلك الرجل القوى نائب الأسقف . فعضب الأب  
فريلير غضباً شديداً من قحة رجل ، لا يقام له وزن ، معدود من أنصار

بنسنيوس وهذا ما هو أمرٌ وأدهى !

قال الأب فريلير لبعض خاصته : أنظروا إلى هؤلاء الأشراف المتصلين بالبلاط كم يزعمون أنهم أقوياء ! فالسيد دي لامول لم يرسل وساماً تافهاً لوكيله في بيزانسوان ، وستعزل هذا الوكيل من منصبه من غير أن يهتم به . ومع ذلك فقد كتبوا إلى من باريس قائلين : إنه لا يمضي أسبوع لا يذهب فيه المرکز إلى صالون حارس الأختام ليفاخر بوسامه الأزرق .

ومع نشاط الأب بيرار وعلاقة المرکز دي لامول الوطيدة مع وزير العدل وموظفي الوزارة جميعاً ، فإن المرکز بعد كفاح ستة أعوام لم ينل شيئاً أكثر من أنه لم يفقد قضيته نهائياً .

وكان المرکز يرسل الأب بيرار دائماً بشأن هذه القضية التي كانا يتبعانها في قوة وحماة . وقد أدى هذا التراسل إلى أن المرکز قدّر ذكاء الكاهن حق قدره ، وبدأت الرسائل المتبادلة تحمل معاني الصداقة ، وإن كان بينهما فارق اجتماعي كبير . وكتب الأب بيرار إليه يخبره بأنهم يعملون على أن يضطروه إلى الاستقالة من منصبه ، ووجهوا إليه عبارات تحمل الذلة والمهانة . وقد حملته السياسة الدينية التي رسمها أعداؤه على أن يقصّ على المرکز ما فعلوه مع جوليان .

كان هذا السيد الكبير غنياً جداً ولم يكن بخيلاً . وقد حاول أن يقنع الأب بأن يقبل بعض ما ينفقه من مال في سبيل التنقلات التي توجهها القضية ، لكنه رفض . فاتهز المرکز فرصة سنحت وأرسل إلى جوليان مبلغ خمسمائة الفرنك لعله بأنه تلميذ عزيز على مدير المدرسة . وكتب

الخطاب الذى أرسله إلى جوليان بنفسه ، وقد حمّله هذا على التفكير فى الأب پيرار .

ثم حدث أن تسلّم المدير رقعة يُطلب منه فيها أن يذهب فى الحال إلى نزل فى ضاحية من ضواحي بيزانسون لأمر هام . ولما وصل إلى هناك وجد وكيل المريكز دى لامول الذى قال له :

— لقد أمرنى المريكز بأن أضع عربته تحت تصرفك . وهو يأمل أن تقتنع بالذهاب إلى باريس إذا ما قرأت هذا الخطاب ، على أن يكون سفرك بعد أربعة أيام أو خمسة . وسأنتقى الوقت الذى تقضيه هنا قبل رحيلك فى ممتلكات المريكز فى فرانش كوتنيه ؛ ثم نرحل معاً إلى باريس فى اليوم الذى ترتضيه .

كان الخطاب موجزاً يقول له المريكز فيه :

« تخلص يا سيدى العزيز من مضايقات الريف ، وتعال إلى باريس لتستشق هواء نقياً . وهذه عربتي ، وستظل أربعة أيام فى انتظار قرارك . سأنتظرك بنفسى فى باريس حتى يوم الثلاثاء ، ولا أنتظر منك إلا الموافقة ، وحينذاك سأقبل باسمك خورية من أغنى خوريات ضواحي باريس . وإن أغنى سكان خوريتك المنتظرة لم يرك إطلاقاً ، ولكنه مخلص لك أكثر مما تظن ، إنه المريكز دى لامول . »

كان الأب پيرار يحب المدرسة على الرغم من قسوته وكثرة أعدائه فيها ، وقد وقف عليها جهوده وأفكاره منذ خمسة عشر عاماً . ولما وصل إليه خطاب المريكز، كان ظهوره بمثابة جراح كلف أن يقوم بعملية خطيرة، لكنها ( م — ٢٠ — ستندال ج — ١ )

ضرورية . وكان عزله من نظارة المدرسة أمراً محتوماً ، فواعد الوكيل ثلاثة أيام . وظل ثمانياً وأربعين ساعة وهو فريسة لتردد شديد . ثم كتب خطاباً إلى المريكز ، وآخر إلى مونسنيور رئيس الأساقفة ، جاء آية من آيات البيان الكنسي وإن كان طويلاً . لقد كان من العسير أن يجسد المرء عبارات لا يلام عليها ، وتحمل في ثناياها احتراماً حقيقياً . ومع ذلك فقد قصد إلى أن يخرج مركز الأب فريليير أمام رئيسه . ثم تناول الأسباب الخطيرة التي حملته على الاستقالة ، وذكر بعد ذلك الأمور التافهة الخسيسة التي احتملها بصبر ستة أعوام كوامل ، حتى اضطرت له الآن إلى مغادرة الأبرشية فقد سرق خشبه ، ودس السم لكلبه وهكذا ...

ولما انتهى من كتابة هذا الخطاب ، أرسل من يوقظ جوليان من نومه في الساعة الثامنة مساءً ، لأنه هو وجميع تلاميذ المدرسة ينامون قبل هذا الموعد . ثم قال له حينما رآه في أسلوب لائني جميل :

— أتعرف أين الأسقفية ؟ اذهب بهذا الخطاب إلى مونسنيور . ولا أخفي عنك أنني أرمى بك وسط الذئاب . ولتكن كل جوارحك عيوناً وآذاناً . واحذر أن تكذب إذا ما سئلت ؛ ولكن اذكر دائماً أن سائلك ربما يجد لذة كبيرة في أن يوقع بك ويؤذي سمعتك . إني لأشعر يراحة يابني حين أمكنك من القيام بهذه التجربة ، قبل أن أفارقك لأن الخطاب الذي تحمله ، ولا أخفي عليك ، ينطوي على استقالتي .

ظل جوليان جامداً في مكانه ، لأنه يجب الأب بيرار وكانت فطنته

تقول له :

سيعمد حزب القلب المقدس إلى التنكيل بي بعد رحيل هذا الرجل  
الأمين ، بل ربما طردوني .

ولم يستطع في هذه اللحظة أن يفكر في نفسه . وكان كل ما يشغله هو  
تكوين عبارة رقيقة مهذبة ، وإن لم يسعفه الذكاء ولم تواته البديهة .

— حسنا يا صديقي ! ألا ترحل ؟

فأجاب جوليان في استحياء شديد :

— علمت يا سيدي أنك لم تقتصد شيئا في الفترة الطويلة التي قضيتها  
في إدارة المدرسة ، ولدى ستمائة من الفرنكات .

فقال الأب في فتور :

— لن أنسى لك ذلك أيضا . اذهب الآن إلى الأسقفية فالوقت

متأخر . وشاءت المصادفات أن يكون الأب دي فريلير في تلك الليلة قائما  
بالعمل في صالون رئيس الأساقفة ، أما مونسنيور فكان يتناول العشاء

في دار المديرية . فسلم جوليان الخطاب إلى السيد دي فريلير على غير معرفة  
به . وقد عجب من جرأة هذا الرجل الذي فضّ خطابا ليس له ، وإنما

هو لرئيس الأساتذة . وسرعان ما رأى هذا الوجه الجميل ، وجه نائب  
الأسقف ، تبدو عليه الدهشة التي يخالطها سرور شديد ، ثم زاد عليه الوقار

وتأمل جوليان جماله الباهر وهو يقرأ الخطاب ، فذهل لشده ما يكون وجهه  
وقورا ، لولا هذه الكياسة الشديدة التي تظهر في بعض تقاطيعه ، والتي تدل

على الزيف لولا أن صاحبها يتعهدا في كل لحظة ، كان أنفه ممتدا إلى الأمام  
على شكل خط مستقيم ، والمنظر الجانبي لوجهه — لسوء الحظ — يشبه



هيئة الثعلب شهباً تاماً وإن فاض رقة وظرفاً . وعلى الجملة فقد كان هذا القسيس ، الذى شغل تماماً باستقالة السيد پيرار ، يلبس ملابس أنيقة ، أعجبت جوليان لأنه لم ير من قبل قساً فى أناقته . ولم يعرف إلاً أخيراً نوع عبقرية الأب فريلير : فهو رجل يتقن كيف يدخل السرور إلى قلب رئيس الأساقفة المعجوز الطيب . وقد خلق ليعيش فى باريس ، ويمدّد الإقامة فى بيزانسون كأنها منى . ورئيس الأساقفة ضعيف البصر ، ويحبّ أكل السمك حبّاً بالغاً ، فكان على الأب فريلير أن ينزع عن السمك الذى يقدم لرئيسه كل شوك يضايقه .

نظر جوليان إلى القسيس فى صمت وهو يقرأ استقالة پيرار مرة ثانية . وفتح الباب على مصراعيه بفتة فى ضجة وجلبة . ومرّ خادم عليه ملابس أنيقة فى سرعة كبيرة ، والتفت جوليان نحو الباب فرأى عجوزاً قصير القامة على صدره صليب رئيس الأساقفة . فسجد وحيّاه الرئيس بابتسامة رقيقة : واستمرّ فى مسيره . ثم تبعه القسيس الجميل ، فظلّ جوليان وحده ، وأتيح له فرصة أن يرى ما يحتويه الصالون من روعة تقيّة أخاذة .

ورئيس أساقفة بيزانسون رجل يشهد له بالذكاء ، لم يؤثّر فيه شقاء الهجرة كما أثر فى غيره كثيراً . فى الخامسة والسبعين من عمره ، لا يعبأ إطلاقاً بما يصيبه بعد عشرة أعوام . وسأل رئيس الأساقفة الأب فريلير : — من ذلك التلميذ ذو النظرات الذكية الذى يخيل إلى أنى رأيت

وأنا فى طريقى ؟ ألم أصدر من قبل أمراً بأن يكونوا فى فراشهم فى مثل هذه الساعة ؟

— أقسم أنه تلميذ يقظ جداً ، وهو يحمل إلينا مونسنيور نبأ عظيماً ؛  
لقد أتى باستقالة آخر واحد من أنصار ينسينيوس في أسقفيتك . وكان  
الأب بيرار المتعنت فهم أخيراً سوء عاقبة الكلام .  
فضحك مونسنيور قائلاً له :

— حسناً ! عين مكانه رجلاً له مثل قيمة بيرار وكفايته . وسأدعوه  
لتناول العشاء غداً على مائدتي لتستطيع أن تعلم مقدار قيمته وكفايته .  
وأراد نائب الأسقف أن يقول ما يوحى باختيار خلف للأب بيرار ،  
وما فيه توجيه لمونسنيور ، لكنّ الرئيس لم يكن مستعداً لسماع شيء ،  
ولا متهيئاً للكلام عن الأعمال فقال :

— قبل أن يعود التلميذ إلى مدرسته ادخلوه لأسمع منه سبب استقالة  
ناظره ، فالحقيقة دائماً في فم الأطفال .

واستدعى جوليان المشول بين يديه فقال في نفسه :  
سأقف بين يدي مقشرين ناقدين فاحصين . ولكنه أحس شجاعة  
كبيرة ، ورأى وهو يدخل الغرفة خادمين ، أكثر أناقة من السيد فالنو  
نفسه ، يخلعان عن مونسنيور ثيابه . وقبل أن يطرق الرئيس موضوع الأب  
بيرار رأى لزاماً عليه أن يسأل جوليان عن دراسته فتكلم في العقائد قليلاً  
فأذهلته غزارة علم التلميذ . وانتقل الحديث بعد ذلك إلى فرجيل وهوراس  
وشيشيرون ، فقال جوليان في نفسه :

هذه الأسماء هي التي ألصقت بي رقم ١٩٨ ، فإذا يضيرني الآن ؟ إذن  
فلأجب في ذكاء . وقد نجح نجاحاً باهراً سرّ رئيس الأساقفة سروراً كبيراً ،

لأنه خبير بالآداب القديمة . وفي حفلة العشاء التي أقيمت في دار المديرية ، ألفت فتاة معروفة قصيدة مادلين<sup>(١)</sup> . فأخذ الرئيس يتحدث عن الأدب حتى نسي الأب بيرار وكل ما يتعلق به . وأخذ يناقش التلميذ فيها إذا كان هوراس غنياً أو فقيراً . ثم ألقى الأسقف الأول بعض قطع من الشعر خانتها فيها ذاكرته كثيراً ، فتطوع جوليان بإلقائها كاملة في تواضع شديد . وقد عجب مونسنيور عجباً شديداً من أنه كان يلقي الشعر كما لو كان يتحدث ؛ يلقي عشرين بيتاً أو ثلاثين بيتاً من الشعر اللاتيني ، كأنه يتحدث عن شيء وقع في مدرسته . ثم حدث بعد ذلك طويلاً عن فرجيل وشيشرون . وأخيراً أثنى عليه رئيس الأساقفة ثناء مستطاباً وقال :

— من العسير أن يدرس المرء خيراً مما درست .

— إن مدرستك ، مونسنيور ، تستطيع أن تقدم إليك سبعة وتسعين ومائة تلميذ هم جميعاً خير مني ، ويستحقون تقديرك أكثر مما أستحق . — وكيف ذلك ؟ . . . سؤال ألقاه رئيس الأساقفة وهو في عجب من هذا الرقم .

— إنني أعتمد على دليل رسمي فيما تشرفت بقوله لكم . فقد أجبته في الامتحان السنوي للمدرسة عن أسئلة تناوت المواد التي شرفتنى الآن بثنائكم عليّ ، وكان ترتيبى في الامتحان ١٩٨ .

فضحك مونسنيور ونظر إلى فريلير وصاح قائلاً :

— آه ! إنه التلميذ الذي يعترّ به القس بيرار . كان علينا أن نتوقع

(١) لامادابن : قصيدة للشاعر دافن جيبى ، كان ينشدها في عدة صالونات . العرب

هذا ، ولكنها حرب طريفة . ثم التفت إلى جوليان قائلاً :

— ألم يوقظوك من النوم ليرسلوك إلينا ؟

-- نعم ، مونسنيور ، لم أغانر المدرسة قبل الليلة إلا مرة واحدة في حياتي ، يوم غادرتها ذاهباً إلى الكندرائية ، لمساعدة الأب شامى برنار في تزينها ليوم عيد الإله .

— حسناً ، أهو أنت الذى أظهرت شجاعة نادرة حين حملت باقات

الريش لتزين بها المظلة ؟ هذا العمل يدخل الرعب في نفسى كل عام ، لأننى أخشى أن يكلفنا وضعها في هذا المكان حياة رجل . أنت يا صديقى تبني لنفسك مستقبلاً سعيداً . وأنا لا أريد أن أهدم هذا المستقبل الرائع بأن أميتك جوعاً . ثم أصدر أمراً بإحضار « بسكويت » ونيذ ملقافاً كل وشرب ، وكذلك فعل الأب فرييلر الذى يعرف عن رئيسه أنه يجب أن يرى الناس يطعمون وهم فرحون مسرورون .

كان رئيس الأساقفة سعيداً بسهرته الممتعة ، فتحدث عن تاريخ الكنيسة فرأى أن جوليان لا يعرف شيئاً عن هذه المادة . ثم تحدث عن الحالة الخلقية في الامبراطورية الرومانية تحت حكم أباطرة عصر كوستنتين . كانت نهاية الوثنية مصحوبة بحالة من القلق والشك كتلك التى تضطرب لها النفوس الحزينة الملول في القرن التاسع عشر . وقد لحظ رئيس الأساقفة أن جوليان يجهل حتى اسم تاسيت .

فأجاب جوليان في وداعة على دهشة مونسنيور بأن كتب هذا المؤلف ليست في مكتبة المدرسة . فقال الرئيس في مرح :

— إنى مسرور كل السرور فقد أنقذتنى من الحرج ، لأنى منذ عشر دقائق جاد فى البحث عن طريقة أعبر لك بها عن شكرى لهذه السهرة الممتعة التى جعلتنى أسعد بها على غير انتظار . ولم أكن أتوقع أن أجد فى مدرستى تلميذاً عالمًا لا يقلّ عن المتخصصين فى ثقافتهم . أريد أن أعطيك مؤلفات تاسيت ، وإن كانت هدية غير كنسيّة .

وأمر فأحضرت ثمانية مجلدات حسنة التجليد ، وأراد أن يكتب بنفسه عند عنوان المجلد الأول منها الإهداء لجولييان سورل باللغة اللاتينية التى يحبها، لكنه عاد فقال لجولييان بلهجة جادة رزينة ، تخالف لهجته فى الحديث الذى دار بينهما :

— أصغ إليها أيها الشاب ، إن كنت عاقلا فستحصل يوماً على أحسن خورية فى أبرشيتى ، وليست بعيدة كثيراً عن قصر الأسقفية ، ولكن يجب أن تكون عاقلا :

ثم غادر جولييان دار الأسقفية فى منتصف الليل حاملاً كتبه ، مذهولاً كل الدهول ، ولم يقل له مونسنيور كلمة عن الأب بيرار . وقد أعجب كثيراً بأدب الأساقفة لأنه لم يكن يتوقع أن يعامل بمثل هذا التمدن الذى تحليه تقوى طبيعية . وأحس الفرق بين الرجلين واضحاً ، حين وقع بصره على الأب بيرار ، الرجل العنيف الذى ينتظره فى قلق وصبر نافذ ، والذى صاح حين رآه من بعيد قائلاً باللاتينية :

— ماذا وراءك ؛ فاضطرب قليلاً وهو يترجم حديث رئيس الأساقفة

إلى اللغة اللاتينية . فقال له المدير السابق بلهجتة القاسية وطرائفه الخالية من لوداعة .

— تكلم بالفرنسية وقل ما قاله مونسيور دون تحريف ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان .

ثم أخذ يقاب بين يديه المجلدات الفخمة التي أهديت إلى جوليان ، حتى لكان الخط الذهبي قد بعث في نفسه اشمئزاً كبيراً ، ثم قال :

— يا لها من هدية غريبة يقدمها رئيس الأساقفة إلى تلميذ شاب في المدرسة الأكليريكية ! ودقت الساعة الثانية صباحاً فأذن لجوليان بالذهاب إلى غرفته ، بعد أن شرح له هذا التلميذ العزيز كل ما دار في إطناب كبير ، وقال له :

— اترك لي الجزء الأول من تاحيت الذي كتب لك مونسيور عليه ما مدحك به ، فإن هذا السطر الذي كتب باللاتينية سيكون لك في هذا المكان ، كأنه مانعة الصواعق بعد أن أرحل ، لأن خلقي يا بني أسداً يحاول افتراسك .

وأصبح الصباح فأحس جوليان أن أصدقاءه يتحدثون إليه بطريقة غريبة ، فأخذ حذره ، وقال في نفسه : هذه نتيجة استقالة الأب بيرار . وصل نبأ تخليه عن العمل إلى كل من في المدرسة وهم جميعاً يعلمون أنى الأثير عنده . وكانت طرقهم ولا ريب تنطوي على الاحتقار ، ولكنه لم يكن سافراً . كان لا يجد في النظرات الموجهة إليه بعضاً حين قابل زملاءه في غرف النوم ، فساءل نفسه : علام يدل هذا؟ إنه لشرك منصوب ،

فلا حذر . وأخيراً تحدث إليه هذا الطالب الصغير الذي جاء من فريرقائلا :  
جميع مؤلفات تاسيت .

وسمع أصدقاؤه هذه العبارة فهنئوه لا على تلك الهدية الفخمة التي  
قدّمها مونسينور فقط ، بل على ذلك الشرف الذي حظى به كذلك حين  
تحدّث مع الرئيس ساعتين . كانوا يعرفون كل ما دار حتى أدقّ التفاصيل .  
ومنذ هذه اللحظة ، زهد في كل ما يحيط به ، لأنهم تملقوه جميعاً في حقارة :  
فالقسيس كاستانيد الذي أظهر له بالأمر سفاهة لا حدّ لها ، أتى وأمسك  
بذراعه ، ثم دعاه لتناول الغداء معه .

وخلق جوليان لا يقبل إطلاقاً سفالة هؤلاء القوم ، الذين فطروا على  
الضعة حتى آذاه مديحهم . أما ضعفتهم فهي تؤلمه ولا تسره . .  
غادر الأب بيرار تلاميذه عند الظهر ، ولم يشأ أن يتركهم دون أن  
يلقى عليهم خطاباً قاسياً ، قال :

« هل تريدون ملاذ الدنيا وزينتها ؟ وتطمعون في المزايا الاجتماعية  
وفي لذة الحكم ، والعبث بالقوانين والرغبة في أن تكونوا سفهاء مع الناس ؟  
أم تريدون الراحة الأبدية الدائمة ؟ إن أفلدكم علماء وذكاء وهداية ، ليس لهم  
إلا أن يفتحوا عيونهم ليروا أى الطريقين خيراً وأهدى سبيلاً . »

ثم غادرهم ، فذهب الأتقياء من أتباع قلب المسيح المقدس إلى كنيسة  
المدرسة ، يقدمون الشكر إلى الله . على أن الجميع لم يأخذوا خطاب مديرهم  
السابق مأخذ الجد . وكان جوليان يسمع في كل جانب في جوانب المدرّة  
أن المدير السابق مغیظ لعزله ، ولم يرزق أى وحداً منهم لونا من ألوان

البساطة على عليه أن الأب بيرار قد استقال من تلقاء نفسه . فهم لا يؤمنون بأن الإنسان يترك بمحض إرادته مثل هذا المنصب ، الذي يجعله على صلة دائمة بكبار المتعدين .

أقام الأب بيرار في أحسن فنادق بيزانسون ، محتجاً بأن لديه أعمالاً تتطلب منه أن يقيم به يومين ، وإن لم يكن له عمل في بيزانسون . وكان رئيس الأساقفة قد دعاه ليتناول معه العشاء ، وأراد أن يعيظ نائبه الأب فريلير ، فأتاح لبيرار فرصة يظهر فيها ذكاءه وعلمه . ثم جعلوا يتناولون الحلوى ، فجاءهم من باريس نبأ غريب ، هو أن الأب بيرار عين في الخورية الجميلة ، خورية . . . . التي لا تبعد عن العاصمة إلا بأربعة فراسخ . هنا رئيس الأساقفة في إخلاص ، لأنه رأى حسن التدبير في هذا الأمر ، فسر سروراً عظيماً ، وقدر مواهب الأب بيرار حق قدرها . ثم كتب الرئيس له باللاتينية شهادة قيمة ، وأسكت الأب فريلير حين سمح لنفسه بأن يثنى الرئيس عن عزمه .

ثم أظهر رئيس الأساقفة في المساء إعجابه الشديد بالأب بيرار عند المركيزة دي رومبيري ، وكانت استقالة ناظر المدرسة وتعيينه في تلك الخورية الجميلة ، حديث الطبقة الراقية في بيزانسون كلها ، وكانوا يتوقعون أن يعين الأب بيرار رئيساً للأساقفة بعد قليل . وأكثر الناس فطنة يعتقدون أن المركيزة دي لامول سيعين وزيراً عما قريب . وسمحوا لأنفسهم في ذلك اليوم أن يسخروا من الطريقة التي تنطوي على السيطرة والعظمة ، طريقة الأب فريلير التي يظهر بها أمام الناس .



وفي صباح اليوم التالي ، سار خلف الأب بيرار في الشوارع جمع غفير ،  
ويخرج التجار إلى أبواب حوانيتهم وهو يمر بهم في طريقه إلى قضاة المركز ،  
يسعى لديهم في شأن القضية . ولأول مرة استقبال استقبالا حسنا . غضب  
هذا الرجل الصارم غضباً شديداً لما رأى ، وأخذ يعمل في نشاط وجدّ مع  
المحاميين الذين اختارهم بنفسه للدفاع عن المركز دى لامول ، ثم غادر  
بيزانسون إلى باريس . وقد أفضى إلى اثنين أو ثلاثة من أصدقائه الذين  
جاءوا ليودعوه قبل رحيله : بأنه ظل ناظراً للمدرسة خمسة عشر عاماً ، ومع  
هذا لم يقتصد إلا عشرين وخمسة مائة من الفرنكات . وبهت الأصدقاء  
من روعة العربة التي يسافر فيها وزيتها وبهجتها ، ثم قبلوه والدموع تتساقط  
من عيونهم ، لكنهم تحدثوا فيما بينهم قائلين : ما كان أغنى هذا القسّ  
الطيب عن أن يكذب ، لقد كان مدعاة للسخرية .

هؤلاء الأدياء الذين أعماهم حب المال ، لم يكن في مقدورهم أن يفهموا  
أن إخلاص الأب بيرار هو الذي أمده بقوة يقف بها ستة أعوام في وجه  
مارى الأكوك ، وقلب المسيح المقدس ، واليسوعيين ورئيس الأساقفة .

# الفصل الثالثون

## طموح

[لم يعد في طبقة الأشراف إلا لقب الدوق ، أما لقب  
المركيز فإنه يدعو إلى السخرية ، ولكن الناس  
يتلفنون دائماً إذا ما سمعوا لقب الدوق . ]  
أدينبورج ريفير



استفبل المركيز دي لا مول الأب بيران استقبالا ليس فيه شيء من  
تلك الطرائق التي التافهة التي يتقنها كبار الأشراف ؛ وهي وإن كانت  
مؤدبة جداً ، لكن فيها سفاهة شديدة يحسها من يدركها .

كان المركيز لا يجب إطلاقاً أن يضيع وقته هباء ، لأنه في ذلك  
الوقت كان مشغولاً بأعمال كبيرة . وهو يبذل جهداً جباراً منذ ستة أشهر  
ليقنع الملك بتشكيل حكومة يقبلها هو وترضى عنها الأمة ، وستمنحه هذه  
الحكومة لقب دوق اعترافاً بفضله .

وكان المركيز يطلب عبثاً من محاميه في بيزانسون من زمن طويل  
أن يوافيه بعمل واضح عن سير قضاياها المتعلقة بفراش كوتيه . ولكن  
كيف السبيل إلى ذلك ؟ إنه طلب شاق ما دام هذا المحامي الكبير لا يفهم  
شيئاً من هذه القضايا ، وليس له دراية بها ، ولكن الورقة الربعة التي أعطائها  
الأب بيران للمركيز أوضحت له كل شيء . قال له المركيز بعد أن انتهى  
من عبارات الجمالة والمسائل الشخصية في أقل من خمس دقائق :

— أيها القس العزيز ، إنني بين هذا الرخاء والسعادة ينقصني الوقت لأعني بشيئين صغيرين لكنهما هامان مع ذلك . وهذان الشيئان هما أسرتي وأعمالي . أنا معنى بثروة أسرتي جملة ، وفي مقدوري أن أزيد هذه الثروة كثيراً ولكنني مقبل على ملذاتي ، ويخيل إلي أن هذا أهم شيء في نظري ! قال هذا وهو ينظر في عيني القس يبرار فرأى الدهشة تبدو فيهما ، والقس رجل عاقل يدرك الأشياء على حقيقتها ، ومع هذا فقد عجب من أن يرى شيخاً يتحدث عن لذاته في مثل هذه الصراحة .

واستطرد الماركيز يقول : مما لا ريب فيه أن العمل يوجد في باريس ولكن لا يقوم به إلا ساكنو الأدوار العليا ؛ ولكني لا أكاد أقرب رجلاً حتى يستأجر مسكناً في الدور الثاني وبعين زوجته يوماً للاستقبال ؛ ثم لا يلبث أن يعرض عن العمل ، ولا يبذل فيه من الجهد إلا بمقدار ما يجعله رجلاً عصرياً أو يظهره كذلك . وهذا هو أهم ما يشغلهم بعد أن يحصلوا على خبز يعيشون به

وإذا ذكرت لك قضاياي فإن لكل قضية محامين يموتون ، قدمات آمنس الأول أحدهم بمرض صدرى . أتتصور أنني يا سيدي يئست منذ ثلاثة أعوام من أن أجد رجلاً يفكر جيداً إذا ما كتب إلي ! وعلى كل فكلامي هذا مقدمة لما أعرضه عليك .

أنا أهلك ! وأستطيع أن أقول إنني أحبك ، وإن كانت هذه أول مرة أراك فيها . فهل تقبل أن تكون سكرتيري بثمانية آلاف فرنك أو بضعفها إذا شئت ؟ وسأكسب كثيراً من وراء ذلك وأقسم لك على ذلك ؛

وسأعمل جهدى على أن أحتفظ لك بخوريته الجميلة التي تعمل فيها يوم  
الآن تتفق معاً في العمل .

ولكن الأب يبرار رفض ما عرضه المريكز ووجد نفسه محرجاً في نهاية  
الحديث فاهتدى إلى رأى أفضى به إلى محدثه :

— لقد تركت في مدرستي شاباً فقيراً ينجيل إلى أنه سيضطهد كثيراً ،  
ولولا أنه لا يزال طالباً دينياً بسيطاً لألقى به في سجون الرهبان . هذا الشاب  
لا يعرف حتى الآن إلا اللاتينية والكتابة المقدسة ؛ وإن كنت لا أستبعد  
أن تظهر مواهبه بعد ذلك ، فيكون واعظاً ماهراً أو ذا أثر بالغ في نفوس  
الناس . وأنا أجهل ما يريد أن يعمل ، ولكنه خلق ليكون من رجال  
الدين ، وسيكون له بينهم شأن . وكنت أريد أن أوصى به رئيس أساقفتنا ،  
لو أننا رزقنا رئيساً وهب بعض ما وهبت أنت من معرفة الرجال والحكم  
على الأشياء .

— ومن أين هذا الشاب ؟

— يقال إنه ابن نجار من سكان جبالنا ، ولكنى أعتقد أنه ابن  
طبيعى لرجل غنى . رأيت يتسلم خطاباً مجهولاً أو كالمجهول فيه حوالة بمبلغ  
خمسمائة فرنك .

— آه ! أنت تتحدث إذن عن جوليان سورل .

فذهل الأب ببرار وسأل المريكز :

— ومن أبنائك باسمه ؟ ثم خجل من سؤاله ، فقال المريكز :

— لا أريد أن أجيبك عن هذا السؤال .

— حسناً ! في استطاعتك أن تسند إليه عمل سكرتيرك ، فهو نشيط ، عاقل ، وعلى الجملة فهي تجربة يحسن ألا تغفلها .

— ولم لا ؟ ولكن أهو شخص قد يغيره حاكم المقاطعة بشيء . أو يغيره شخص آخر فيكون جاسوساً في منزلي ؟ هذا هو كل ما قد أعترض به .

فأكد الأب للمركيز أن جوليان أمين ، وأثنى عليه كثيراً . فأخرج المركيز ورقة بألف فرنك وقال :

أرسل هذا إلى جوليان سورل لنفقات الرحلة وأت به إلى .  
— أرى أنك تعيش حقاً في باريس . فأنت لا تعلم مقدار الظلم الذي يقع علينا معاشر الريفيين المساكين ، وبخاصة على القسس الذين ليسوا أصدقاء لليسوعيين ، فإنه قد لا يسمح لجوليان سول بالرحيل ؛ وقد يتذرعون بأمر الحيل في ذلك ، فيزعمون أنه مريض أو أن الخطاب فقد في البريد أو بغير ذلك من الأسباب .

— سأطلب من الوزير أن يكتب إلى رئيس الأساقفة .  
— نسيت أن أخبرك باتخاذ احتياطات جديد : هذا الشاب كبير النفس وإن كان غير عريق النسب ، فليس من المصلحة أن نجرح كبريائه ؛ وإلا انقلب أحق .

— هذا خلق يعجبني ، سأجعله صديقاً لابني ، فهل يكفي هذا ؟  
ومضت أيام تسلم بعدها جوليان خطاباً لا يعرف خط كاتبه ، وعليه طابع شالون ، وفضّه فإذا بداخله حوالة على تاجر في بيزانسون وأمر بالسفر

فوراً إلى باريس . وهو موقع عليه باسم مستعار ، واستوات على جوليان قشعيرة شديدة وهو يفض الخطاب ؛ لأن ورقة من أوراق الشجر سقطت منه عند قدميه ؛ وهي العلامة المتفق عليها بينه وبين الأب پيرار .

وبعد ساعة واحدة ، استدعى جوليان إلى دار الأسقفية حيث استقبل في طيبة كبيرة ، وأخذ مونسنيور يتلو شعر هوراس ويهنيء جوليان بالمستقبل الباهر الذي ينتظره في باريس ويثني عليه ثناء عظيماً ؛ وكان يتوقع أن يشكره جوليان ويخبره بما سيقوم به من عمل في باريس . لكنه لم يقل شيئاً ؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً عما سيعمل ، فزاد احترام مونسنيور له . وكتب أحد صغار قساوسة الأسقفية للعمدة الذي أسرع فأحضر جوازاً بنفسه ، موقعاً عليه ، وترك اسم المسافر على بياض .

وقبل منتصف الليل من اليوم نفسه ، كان جوليان في منزل صديقه فوكيه الذي عجب أكثر مما سرّ من مستقبل ينتظر صديقه ؛ وقال له هذا الناخب الحر :

— سيؤدى هذا بك إلى منصب حكومي ، يضطرك إلى ارتكاب أمور تكون مجالاً لسخرية الصحف . وسأعرف أخبارك من الفضائح التي ستذاع عنك . وإذا واجهنا المسألة من الناحية المادية ، فنذكر أنه خير لك أن تبيع مائة لويس من تجارة الأخشاب ، وأنت سيد نفسك ، من أن تبيع أربعة آلاف فرنك من حكومة ، حتى لو كانت حكومة سليمان .

ولم ير جوليان في كل ما سمعه من صديقه إلا قصر نظر برجوازي ريفي ؛ فقد أتاحت لبطلنا الفرصة في أن يظهر على مسرح الحوادث

الجسيمة . وكانت سعادته بالذهاب إلى باريس قد حجبت كل شيء عن ناظره ، باريس التي تصورها آهله بالأذكياء الماكرين المنافقين المؤدبين في وقت واحد ، كمثل رئيس أساقفة بيزانسون أو رئيس أساقفة آجد . وقد رأى صديقه أن خطاب الكاهن پيرار قد أفقده حرية التصرف .

وحلّ ظهر اليوم التالي فهبط فرير كأسعد رجل في الوجود لأنه أمل أن يرى مدام دي رينال . وذهب أولاً إلى حاميه الأول الأب شيلان . فاستقبله في قسوة حتى لم يردّ عليه التحية وقال :

— أعتقد أنك مدين لي بشيء ؟ ستتناول طعام الغداء معي ، وفي أثناء ذلك سنؤجر لك حصاناً آخر فتغادر فرير دون أن ترى أحداً . فأجابه جوليان في تواضع التلاميذ :

— سمعاً وطاعة . ولم يتناول الحديث سوى اللاهوت واللاتينية الجميلة . ثم ركب جواداً وسار فرسخاً حتى رأى غابة فدخلها دون أن يراه أحد ، وأوغل في السير خلالها . وغربت الشمس ، فترك الحصان ، ودخل منزل فلاح ، واتفق معه على أن يبيعه سلماً ويحمله له حتى تلك الغابة الصغيرة ، المظلة على متزّه الإخلاص في فرير . وقال الفلاح وهو يغادره :

— إنني أتبع فاراً مسكيناً من الجنديّة . . . أو مهرباً ، ولكن ماذا يعنيني ما دمت أخذت ثمناً حسناً لسلمى ؟ على أنني قد ارتكبت في حياتي مثل هذه الأعمال .

كان الليل حالك الظلمة . وحين دقت الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، حمل جوليان سلمه داخلاً فرير . وأسرع فنزل في مجرى السيل الذي

يعبر حدائق السيد دى رينال الغنّاء ، والذي يبلغ عمقه عشر أقدام ماراً بين جدارين . . ثم تسلق السلم صاعداً بكل سهولة ، وهو يسأل نفسه : أى لقاء ستلقاني به كلاب الحراسة ؟ وهذا هو كل ما يشغله . وينبته الكلاب مسرعة إليه ، فصفر لها برفق وخفوت فأقبلت تداعبه . واجتاز الحديقة متنقلاً من رصيف إلى آخر ، على الرغم من أن الأسوار كلها كانت مغلقة حتى وصل في سهولة تحت نافذة الغرفة التي تنام فيها مدام دى رينال ، والتي لا يزيد ارتفاعها عن الأرض من ناحية الحديقة عن عشرة أقدام .

كانت في مضاربع النوافذ فتحة على شكل قلب ، يعرفها جوليان حق المعرفة . وكم حزن حين رأى هذه الفتحة لا ينبعث منها ضوء ، لأن في الحجرة مصباحاً صغيراً يظل عادة يضيؤها طول الليل . فقال في نفسه : يا إلهي ! إن هذه الغرفة لا تشغلها الليلة مدلم

دى رينال ! فأين إذا تنام ؟ الأسرة في ثريير ما في ذلك شك ما دامت الكلاب هنا . أى فضيحة تكون إن لقيت في هذه الغرفة المظلمة السيد دى رينال نفسه أو شخصاً غريباً آخر ؟

وأشار عليه الحرص بأن يرجع لكنه أنف واستكبر . وقال محدثاً نفسه . إن وجدت فيها غريباً فررت مسرعاً وتركت السلم ؛ وإن وجدت بها هي فيها فأى لقاء ينتظرنى ؟ وأنا أعلم أنها الآن ثابت توبة صادقة ، وأصبحت تقية سالحة . لكنها ما زالت تذكرنى وإلا ما أرسلت إلى خطاباً . وأقنعت هذه الحجة فضى فيما عزم . كان خائفاً وعازماً على أن يلقاها أو يموت ، فشرع يقذف خشب النافذة بحصا صغير ، ولكن ما من مجيب !



فأسند سلمه إلى جانب النافذة وطرقها خفيفاً أول الأمر ، ثم طرقها بعنف بعد ذلك . وأخذ يقول : قد يصيبني مقذوف نارى وإن كان الظلام حالكا وما لبثت هذه الفكرة أن حوّلت المشروع الجنونى إلى مسألة شجاعة فقال : إما أن تكون هذه الغرفة خالية الليلة ، وإما أن يكون من فيها قد استيقظ الآن . إذن فلا ينبغي أن أبالى ، ولكنى ينبغي أن أتخذ الحيلة حتى لا يسمعى النيام فى الغرف الأخرى .

ونزل فأسند سلمه إلى مصراع وصعد مرة ثانية ، وأدخل يده فى الفتحة التى على هيئة القلب ، فعثر سريعاً على السلك الحديدى المعلق بالمزلاج فجذبه ؛ ولشدة ما فرح حين شعر أن المصراع قد انفتح حين دفعه بيده . فكان عليه إذن أن يفتحه قليلاً قليلاً وأن يتحدث فى هدوء ليعرف صوته ، ففتحه بمقدار ما يدخل رأسه وأخذ يقول بصوت هامس : إنه صديق ! وأنصت فى انتباه شديد فرأى السكون لا يزال مطبقاً . وتبين أخيراً أن المصباح الصغير لا وجود له على المدفأة ولا كان نصف مضيء ؛ وهذه علامة لا تطمئن كثيراً .

حذار من المقذوف النارى ! وفكر قليلاً ثم جرؤ على أن يدق زجاج النافذة بأصبعه : ليس هناك من يجيب ؛ فدقّ دقاً أفلّ ليناً وهواده ، وقال : يجب أن أنتهى من هذا الموقف الشائك ولو كلفنى كسر الزجاج . ثم خيل إليه وهو يدقّ دقاً عنيفاً أنه يرى شبحاً فى الغرفة وإن كان الظلام حالكا وتأكّد بعد قليل ، أن شبحاً يتقدم إلى النافذة فى ببطء شديد . ثم رأى أخذاً يوضع فوق الزجاج الذى يحدق بطلنا من ورائه .

فارتعدوا ابتعد قليلاً لأن الظلمة الخالصة لم تمكنه من أن يميز من يرى  
وإن كانت المسافة قريبة : أهي مدام دي رينال ؟ وخشى أول صيحة من  
صيحات الاستغاثة ؛ وسمع الكلاب تهر بجوار السلم مزججة فقال في صوت  
يكاد يكون مسوعاً : إنه أنا ، إنه صديق . لكنه لم يسمع جواباً واختفى  
الشبح الأبيض . فاستطرد يقول : تكرمي وافتحي لي ، لا بد من أن  
أحدث إليك لأنني بأس جداً ! ودق من جديد في عنف حتى كاد  
الزجاج ينكسر .

فسمع صرّة خافتة خشنة فتحت بعدها جديدة النافذة ، قدفع الزجاج  
وقفز في العرفة بحجة وسرعة .

ابتعد عنه الشبح الأبيض فأمسك جوليان بذراعه فإذا به ذراع امرأة .  
وفي هذه اللحظة زابته آراؤه في الشجاعة ؛ وأخذ يسأل نفسه : إذا كانت  
هي فماذا تقول لي يا ترى ؟ ولا تسل عنه حين سمع صيحة خافتة عرف منها  
أنها هي بعينها ، إنها مدام دي رينال !

فاحتضنها بقوة ، فارتعشت بين ذراعيه ، محاولة التخلص وإن كانت  
قوتها لا تسعها .

— لك الويل ! ماذا تفعل ؟

كان صوتها مضطرب النبرات ، فخرجت الكلمات بعسر شديد ،  
وأحس جوليان أن فيها سخطاً حقيقياً شديداً .

— أتيت لأراك بعد الفراق الأليم الذي ظل أربعة عشر شهراً .

— أخرج ، انصرف عني حالا . آه ! لم لم تتركني أكتب إليه أيها

الأب شيلان ؟ لقد كنت أتوقع أن تحدث هذه القباح . ثم دفعته بقوة كانت حقاً خارقة للعادة ، صائحة في صوت متهدج : لقد استغفرت الله من آثامي : وقد قبل الله توبتي . فاخرج ! ودعني !

— بعد أربعة عشر شهراً قضيتها في شقاء ، لن أنصرف قطعاً قبل أن أحدث إليك . أريد أن أعرف كل ما فعلته . آه ! لقد أحببتك حباً يجعلني جديراً بثقتك . . . أريد أن أعرف كل شيء .

وأثرت في قلب مدام دي رينال هذه اللهجة المسيطرة دون أن تحس . وكان جوليان لا يزال يحتضنها في شعف وقد لف ذراعيه حولها حتى لا تفلت منه ، وإن كانت هي تحاول ذلك . ثم خفف من ضمه إياها ، فاطمأنت قليلاً ، وعاد هو يقول :

— سأرفع السلم حتى لا تحوم حولنا الشبهات ؛ إذا كان هناك خادم قد استيقظ على الضوضاء فقام بجولة . فقالت في غضب حقيقي :

— آه ! اخرج ، اخرج بدلاً من أن ترفع السلم . وماذا يعنيني من الرجال ؟ إن الله هو الذي يطلع على هذا العمل الأثيم الذي تتخذه لِمَ أرى ، وسيعاقبني عليه . أنت تستغل العواطف التي ملكت على نفسي فيما مضى استغلالاً دينياً ، ولكنها قد انقضت الآن . فهل تسمع ما أقول يا سيد جوليان ؟

رفع السلم في هدوء حتى لا تحدث جلبة وسألها لا ليشجعها ، ولكنها عادته من قبل :

— ها ، زوجك في المدينة ؟

— أرجو ألا تتحدّث إلى هكذا وإلا استدعيت زوجي . لقد  
اقتربت إنمّا كبيراً بأنى لم أطرّدك في الحال مهما تكن العواقب . ثم  
حاولت أن تجرح كبريائه التي تعلم حق العلم أنها حساسة ، فاستطردت تقول :  
— لقد أشقت عليك .

ولم تشأ أن تخاطبه بضمير المفرد ، فأثر هذا في نفسه كما أثرت فيه  
الطريقة الخشنة في قطع علاقة محببة إلى قلبه يودّ هو أن تظل قائمة ، فزاد  
حبه زيادة عنيفة حتى كانت أشبه شيء بالهديان . فقال في حب محتدم ،  
صديق ، من العسير ألا يتأثر به من يسمعه :

— ماذا ! أيمن أن يكون حبك قد انتهى تماماً !

ولما لم ترد عليه استرسل يبكي بكاء حزيناً . وكانت قواه قد وهنت  
حقاً فلم يعد يستطيع الكلام .

— وهكذا نسيتي تماماً الشخص الوحيد الذي أحبني في هذا الوجود !  
فلم أعيش بعد ذلك ؟

وزايلته شجاعته بعد أن اطمأن إلى أنه لن يلقى في الغرفة رجلاً ،  
واستبعد من ذهنه هذا الخطر ، وتولّى عن قلبه كل شيء إلا الحب .

وظالّ صامتاً طويلاً وهو يبكي ، ثم أخذ يدها فأرادت أن تستردّها  
منه ، ثم تركتها بين يديه بعد أن صدرت منها حركات مضطربة . وكان  
الظلام حالكا ، وهما جالسان معاً على سريرها .

وتذكر جوليان ما كان بينهما فقال في نفسه : ما أعظم الفرق بين  
حاليّنا منذ أربعة عشر شهراً ، وبين ما ألقاه الآن منها ! وسالت دموعه

غزيرة وقال : إن البعد يميت حقاً كلّ عواطف الرجل ! ثم قال لها وهو مضطرب من طول صمته ، والعبارات تقطعها العبرات :

— اسمحني واذا كرى لي ما حدث لك . فأجابته في صوت قاس ولهجة تتمّ عن جفاء وعتاب :

— لاشك أن آثامي عُرفت في المدينة كلّها منذ رحيلك . قد كنت أحمق غير محتاط في كل ما فعلت ! وبعد ذلك بزمن أتى هذا القسّ المبجل الأب شيلان ليراني ، وأنا إذ ذاك فريسة لئاس شديد . وحاول عبثاً أن ينال منّي اعترافاً . ثم بداله مرة أن يقتادني إلى كنيسة ديمون حيث أعطيت المقابلة الأولى . وجرؤ هناك على أن يبدأ هو الحديث ... ثم سألت عبراتها ، واستطردت بعد قليل تقول : أيّ خزي أصابني في تلك اللحظة ! لقد اعترفت له بكل شيء . ولم يشأ هذا الرجل الطيب أن يزيدني ألماً على ألم ، فلم يمتقرنني ، بل شاركني الأحران والآلام . وكنت في ذلك الوقت أكتب إليك كل يوم خطابات ، لم أجرؤ على إرسالها وأخفيتُها بعناية تامة . وحينما كنت أشعر بأنني فريسة لآلام شديدة ، أدخل غرفتي وأغلق بابها وأعيد قراءة ما كتبت من خطابات .

وأخيراً استطاع الأب شيلان أن يأخذها مني . . . وقد أرسلت إليك منها ما كان ينطوي على الحذر ؛ إلا أنني لم أتلق منك ردّاً .

— مطلقاً ، وأقسم لك أنني لم أنسلم أية رسالة وأنا في المدرسة الإكليريكية .

— يا إلهي ! فمن ذا الذي حجزها عنك ؟

— تصوّري مقدار ألمي قبل ذلك اليوم الذي رأيتك فيه  
في الكندراتية ، إذ لم أكن أعرف أنك لازلت على قيد الحياة .

— لقد أنار الله بصيرتي ؛ فعرفت جسامة الأوزار التي ارتكبتها  
في حقه ، وفي حق أبنائي وزوجي . إنه لم يجبني بمقدار ما أحببته أنت  
كما كنت أعتقد في ذلك الحين . . . .

فارتمتي جوليان بين أحضانها على غير وعي ، فدفعته واستطردت تقول  
في حزم :

— قال لي الأب شيلان إنني إذ تزوجت بالسيد دي رينال فقد  
وهبته عواطفى كلها ، حتى تلك التي لم أكن أعرفها إلاّ بعد هذه العلاقة  
التي قدّرت أن تقوم بيني وبينك . . . . ومنذ أن ضحيت بالخطابات التي كانت  
جدّ عزيزة عليّ ، أصبحت حياتي مطمئنة إن لم تكن سعيدة . فلاندخل  
عليها الاضطراب من جديد ، كن صديقي . . . . كن خير صديق . فأخذ  
جوليان يقبل يديها بحرارة ، وأحست أنه مازال يبكي . فقالت :

— لا تبك أكثر مما بكيت ، لأنك تؤلّني كثيرا .. أخبرني بدورك  
عما فعلته .

فلم يستطع الكلام . فقالت :

أريد أن أعرف كيف كنت تحيا في المدرسة ، ثم تنصرف بعد هذا .  
فتكلم دون أن يفكر فيما يقول ، وقصّ عليها الدسائس الكثيرة  
والغيرة والحسد ، وجميع ما كان يلقاه أول الأمر من متاعب . ثم حدثها  
عن الحياة الهادئة المطمئنة منذ أن عين معيدا . واستطرد يقول :

— وبعد أن طال صمتك ، هذا الذى كنت ترمين من ورائه إلى أن تفهمينى ما أراه الآن منك فى وضوح وجلاء ، وهو أنك قد نسيت حبي !! فضغطت على يده ... ثم وبعد أن طال صمتك ، أرسلت إلى مبلغ خمسمائة فرنك !

— لم أرسل إليك شيئاً !

— إنه خطاب عليه طابع باريس ووقع عليه من سعى نفسه بول سورل لينفى الشبهات .

ثم دارت مناقشة صغيرة على أصل هذا الخطاب ، ومن ذا يكون مرسله . وتغير الوضع بينهما . وعلى غير وعى منهما ، لم يعودا يتحدثان باللهجة المتكلفة ، وأخذ حديثهما يصطبغ بصبغة الصداقة الرقيقة . وكان لكل منهما لا يرى الآخر لأن الظلام حالك . ولكن نبرات الصوت كانت تعبر عن كل شئ . ومدّ جوليان ذراعه حول خصر صديقه ، وهى حركة لها خطرهما . فحاولت أن تبعد ذراعه ، لكنه استطاع بمهارته أن يلفت انتباهها فى هذه اللحظة إلى حادثة هامة فى قصته ، فأنسيت ذراعه حتى ظلمت تطوق خصرها .

وتناول موضوع الخطاب ذى خمسمائة الفرنك وتناقشا فى مصدره ، ثم عاد جوليان يقص قصصه من جديد . وكان قد أصبح مسيطرا على نفسه أكثر من قبل حين تحدث عن حياته الماضية التى شغل عنها بما هو فيه الآن ، ولم يعد يهتم بها كثيرا . وانحصر انتباهه فى معرفة ما تنهى إليه زيارته لصديقه . وكانت تقول له بين آن وآخر بلمحة موجزة :

— ألا تغادرنى؟ ألا تخرج من هنا؟

فقال في نفسه: لو تخلصت منى الآن فسيكون ذلك خزيا كبيرا، يقلت حياتي دائما ويقضى على راحتى، ولن تكتب إلى أبدا لو تخلصت منى على هذه الصورة. ويعلم الله متى أعود ثانيا إلى هذا الأقليم!

ومنذ هذه اللحظة، اختفت من قلب جوليان صفات الفضل وهو في موقفه هذا. كان يجلس إلى جوار امرأة يعبدها، وهو يضمها بين ذراعيه في غرفة طالما سعد فيها، في مثل هذا الظلام الحالك. وكان قد شعر منذ لحظة أنها تبكى وأحس بكاءها من حركات صدرها، فعمد إلى سياسة فائرة، كذلك التى يتبعها مع الطلاب حين يتعرض لسخرية أحد الأصدقاء وهو في فناء المدرسة. فأطنب في الحديث عن حياته، وعمّا لقيه من شدة وبؤس منذ غادر فريير. فقالت في نفسها: لقد رحل عني منذ عام ولم يصله منى ما يذكره بي، ولكنه لا يزال يذكر تلك الأيام السعيدة التى قضيناها في فرجى معا، أما أنا فقد نسيتها.

واشددت بكاءها، ورأى جوليان أثر قصته في نفسها ونجاحه في سياسته، وأدرك أن عليه محاولة أخرى تكون فصل الختام، فذكر بفته الذى أرسل إليه من باريس أخيرا وقال:

— لقد استأذنت مونسيور رئيس الأساقفة.

— ماذا تقول! ألا تعود إلى بيرانسون؟ أهو فراق إلى الأبد؟

فأجاب في حزم وثبات:

— نعم، سأرحل عن بلد نسينى أهله، ونسيتنى تلك التى أحببتها



حبا لم أعرف مثله طول حياتي ، سأرحل عنه إلى غير رجعة . سأذهب إلى باريس .

فصاحت بصوت مرتفع :

أذهب أنت إلى باريس !

وختفتها العبرات ، ودلت نبراتهما على ما تلقاه من عذاب ألیم . وقد كان جوليان في حاجة إلى التشجيع منها ، وكان عليه أن يقدم على عمل قد لا يكون في مصلحته إطلاقا ، على أنه قبل أن تبدر منها هذه الصيحة ، لم يكن يعرف مقدار أثر قصته في نفسها . عزم على ألا يتردد بعد ذلك ؛ وكان خوفه من لوم نفسه قد جعله مسيطرا عليها سيطرة تامة فنهض من مكانه وقال لها في فتور :

— نعم ياسيدي ، سأتركك إلى الأبد ، فكوني سعيدة ، وداعا !!

وسار نحو النافذة ثم فتحها ، فأسرعت إليه وارتمت بين أحضانه .

وبهذا نال ما كان يتمناه في شغف عظيم خلال الساعتين الأوليين

من حديثهما الذي استمر ثلاث ساعات . وسرعان ما عادا إلى حديثهما

القديم ، حديث العواطف الرقيقة ؛ واختفت وساوس مدام دي رينال بما

أبداه من مهارة وفن ، فاستمتعا بالوصول في لذة وسرور . وصم جوليان على

أن يوقد المصباح ، على الرغم من إلحاح صديقه في ألا يفعل . قال :

— أتر يدين ألا يبقى في ذاكرتي أثر من لقائك ؟ أتحبين ألا أرى

ما ينبعث من عينيك الجميلتين من حب ومودة على أن أرى بياض هذه

المد الجملة ؟ تذكر ، أني سأفارقك لأظل .. . . . . . زمانا غير قصيرا !

وكانت مدام دي رينال لا ترفض له طلباً منذ ذكر لها هذا الأمر الذى جعلها تضحج بالبكاء . وتلك الفجر قد بدأ يرسل أنواره على ذوائب أشجار الصنوبر القائمة على الجبل فى شرقى فريير . وكان جوليان ثملاً باللذة ، فلم يشأ أن يرحل بل طلب منها أن يقيم فى غرفتها مختفياً طول النهار فلا يتركها إلا فى الليلة القادمة .

— ولم لا؟ هذه السقطة الجديدة التى كتبت على ، قد أفقدتني كل احترام لنفسى وستكون سبباً فى شقاء دائم لى ما حييت . وضمتته إلى قلبها قائلة : لقد تغير زوجى حتى أصبحت نفسه تحيط بها الشكوك ، وهو يعتقد أنى جررت عليه كل هذا ، فهو لذلك مغيظ منى . ولو أنه سمع أقل جلبة لكان فى هذا ضياعى ولطردنى كامرأة شريفة ، وأنا تلك الشريفة .

— آه ! هذه إحدى عبارات الأب شيلان ، لم تكن طريقتك معى فى الكلام هكذا ، قبل أن تفرق بيننا المدرسة هذا الفراق الأليم ! كم كنت تحببني فى ذلك الحين !

قال هذا فى فتور شديد ، فكوفى على فتوره : فقد أنس صديقتة الخطر الذى يتهدها من زوجها ، وجعلها تفكر فى خطر آخر أشد وأمر وهو أن يشك جوليان فى حبها إياه .

وطلع النهار وملاً نوره نواحي القرية ؛ فلأ الكبر نفسه حين رأى هذه العادة الجميلة بين ذراعيه وزهن مايشير به ، هذه التى لم يجب غيرها فى حياته ، والتى كانت قبل ذلك بساعات تخشى الله المنتقم ، فوقفت .

جهودها على واجبها وظلت عاما قسّح نفسها وتقوى إرادتها؛ لثلا تسقط  
مرة أخرى ، لكن محاولاتها لم تجد أمام شجاعة صديقتها فتبلا :  
ثم سمعت بعد قليل في المنزل وقع أقدام ، فطرات عليها فكرة  
لم تواتها من قبل ، وقالت لصديقتها :

— ستدخل الغرفة هذه الفتاة اللعينة إليزا ، فأين أضع هذا السلم  
الضخم ؟ وأين أخفيه ؟ وصاحت بغتة كمن وجدت حلا سعيدا : سأحمله  
إلى السطح .

فأجابها وهو ذاهل .

— إن فطت هذا كان عليك أن تمرى بمجرة الخدم .  
— سأترك السلم في الردهة وأنادى الخادم وأمره بما أريد .  
— فكرى فى كلمة تقولينها إذا مامر الخادم بالسلم فى الردهة وراه .  
فقبلته قائلة :

— نعم يا ملاكى الكرم ، وعليك أن تختفى سريعا تحت السرير  
طول غيابى ، لأن إليزا تدخل الحجره .

وأذهله فرحها الفجائى فقال فى نفسه : إن هناك خطرا ماديا يهددها  
لكنها لا تضرب له ، بل يعود إليها مرحها لأنها نسيت الوسوسا فىها  
من امرأة رائعة ! آه ! إنه قلب يفخر به من يملكه ! وقد كان جوليان سعيدا .  
حملت مدام دى رينال السلم فألقته ثقيلًا ، فأسرع إليها يعاونها على حمله  
معجبا بقوامها المشوق الذى لا يدل ظاهره على القوة ، ولكنه عجب حين  
رآها ترفعه وحدها بغتة ، كما لو كانت ترفع مقعدا . ثم أسرعت به إلى ردهة

الطبعة الثالثة ووضعت ممدداً بجوار الجدار . ونادت الخادم وصعدت إلى أبراج الحمام لتتيح له أن يرتدى ملابسه . وبعد خمس دقائق عادت إلى الردهة فلم تجد السلم . فماذا حدث ؟ لو أن جوليان لم يكن بالمنزل ما عبأت بهذا الخطر . ولكن لو رأى زوجها السلم الآن لوقعت الواقعة ! وأخذت مدام دي رينال تجرى في كل مكان حتى وجدته أخيراً تحت السقف حيث وضعه الخادم مخفياً إياه . ورأت في هذا التصرف غرابة فحسب ، ولو أنه حدث لها قبل ذلك لراعها .

قالت في نفسها : ماذا يهمني مما سيحدث بعد أربع وعشرين ساعة حين يرحل جوليان ؟ ألن يكون كل شيء في نظري فحشا وندما ؟ وكانت تطرأ عليها فكرة غامضة بأنها ينبغي لها أن تموت ، ولكن ماذا يعينها ؟ فبعد فراق ظنته أبدياً عاد إليها ورأت من جديد ، وقد خاطر مخاطرة شديدة في سبيل الوصول إليها ، وهذا حب عظيم !  
وقصت على جوليان قصة السلم ثم قالت له :

— بم أجيب زوجي لو أخبره الخادم بأنه عثر على سلم ؟ وغرقت في أحلامها لحظة واستطردت تقول : لن يكتشفوا الفلاح الذي باعك السلم قبل أربع وعشرين ساعة ثم ارتمت بين أحضانه وضمته إليها ضاماً قويا وهي تقول : آه ! ما أحلى الموت بين ذراعيك ! وقبلته قبلة حارة وهي تقول ضاحكة : على أنه ينبغي ألا تموت جوعاً . تعال فاخترت أولاً في غرفة مدام درقيل ، التي هي دائماً مغلقة .

: وذهبت إلى آخر الردهة لتتأكد من أن أحداً لا يراقبها ، أما هو

فقد جرى إلى العرقة ، ثم عادت لتعلق يابها بالفتاح وقالت له . حذار من أن تفتح الباب إن طرقة طارق ، لأن الأضفال يفعلون ذلك وهم يلعبون فقال :

— أحضريهم إلى الحديقة تحت النافذة لأسعد بروياهم وتحدثي إليهم .

فقالت وهي تنصرف :

— نعم ، نعم ، سأفعل .

ثم عادت إليه بعد قليل ، تحمل برتقالا و بسكوتا وزجاجة من نبيذ ملقا .

وكان من العسير عليها أن تسرق خبزا ، فسألها جوليان :

ماذا يفعل زوجك ؟

إنه يكتب مشروع صفقات سيعقدها مع الفلاحين .

وفي الساعة الثامنة صباحاً ، عجّ المنزل بسكانه ، ولو لم تخرج مدام

دى رينال إليهم في هذا الوقت ، لبحثوا عنها في كل مكان ؛ فاضطرت إلى

مغادرة حبيبها ، ولكنها عادت إليه بعد قليل غير هيابة ولا وجلة ، تحمل إليه

قدحا من القهوة ، وكانت مضطربة لأنها تحشى عليه أن يكون جائعا . وأفطر

الأطفال فذهبت بهم إلى الحديقة تحت نافذة مدام درقيل . فوجد جوليان

أنهم شبوا وكبروا ، لكنهم قد طبعوا بالطابع العادي ، أو هكذا خيّل

إليه ؛ فقد تكون آراؤه هي التي تغيرت .

وتحدثت إليهم أمهم عن جوليان ، فأبدى ابنها الأكبر صداقة لمعلمه

السابق ، وأسفاً شديدا على فراقه ، أما الآخرون فكانا قد أنسياه .

لم يغادر السيد دى رينال منزله في هذا الصباح ، وكان دائم الصعود

والنزول متغولاً بمقد صفقاته مع الفلاحين الذين يشترون منه محصول البطاطس، ولم يجد مدام دي رينال إلى ما بعد الغداء لحظة فراغ ترى فيها سجينها . وانتهى الغداء ففكرت أن تسرق له شيئاً من الحساء الساخن . واقتربت من باب الغرفة حذرة ، وهي تحمل في يدها إناء الحساء ، فلقيت الخادم الذي أخفى السلم في الصباح ، وهو يسير في الردهة من غير جلبة كأنه يتسمع على الباب . ربما كان جوليان يسير في الغرفة على غير حذر !! ابتعد الخادم وقد اضطرب قليلاً ، فدخلت مدام دي رينال على جوليان في جرة ، وقد أزعجه هذا اللقاء ، فقالت له صديقتة : أنت خائف أما أنا فاستطيع أن أواجه الأخطار دون أن تطرف لي عين ، أنا لا أخشى إلا شيئاً وحداهو اللحظة التي أبقى فيها وحدي بعد رحيلك . ثم غادرته مسرعة .

فحدث جوليان نفسه قائلاً في لذة :

— آه إن الندم وحده هو الذي يحيف هذه النفس السامية الزفيعه ! وأخيراً أتى المساء ، وذهب السيد دي رينال إلى الكازينو ، وادعت زوجته أنها مصابة بصداع شديد ، وذهبت إلى غرفتها وأسرعت في صرف إليزا ، ونهضت لتطلق جوليان من سجنه .

كان جائعاً حقاً إلى أقصى غاية الجوع ، فذهبت إلى المطبخ لتبحث عن خبز ، فسمع جوليان صيحة عالية ، وعادت إليه فأخبرته أنها كانت تقرب من خزانة الطعام في الظلام ، ومدت يدها فلمست ذراع امرأة ، وإذا بها إليزا التي سمع جوليان ضيحتها .

— وماذا كانت تفعل هناك ! قالت في غير اكتراث :  
ربما كانت تسرق بعض الحلوى أو كانت تتجسس علينا .  
ولكنى من حسن الحظ وجد إداما ورغيفا كبيرا .  
فأشار إلى جيوب ميثرتها وهو يسأل :  
ولكن ما هذا إذن ؟

وقد نسيت مدام دي رينال أن جيوبها مليئة بالخبز منذ العشاء .  
فاحتضنها جوليان بين ذراعيه في قوة وحب ، وبدت له جميلة رائعة !  
فقال في نفسه : لن أتقى في باريس نفسها امرأة على هذا الخلق ، لم تكن  
لها دراية المرأة التي اعتادت أن تعمل ما عمله هي الآن ، لكنها كانت  
تتصف في نفس الوقت بشجاعة كاملة ، شجاعة شخص لا يخاف إلا الله .  
كان جوليان يتناول عشاءه في شهية ، وصديقه تسخر من بساطة  
ما قدم إليه من طعام لأنها لم تشأ أن تتحدث إليه حديثا جديا ، وبينما  
هما كذلك طرق الباب فجأة وبهوة . وكان الطارق هو السيد دي رينال .  
— لماذا أغلقت عليك الباب ؟

واختفى جوليان في الحال تحت الأريكة .

— ما هذا ! ألا تزالين بملايسك وتأكلين ، وقد أغلقت الباب عليك .  
بالمفتاح ؟ كان مثل هذا السؤال في الأيام العادية ، وبهذه اللهجة يثير الاضطراب  
في نفس مدام دي رينال ، ولكنها تعلم الآن أن زوجها إذا نظر قليلا إلى  
أسفل رأى جوليان ، لأن السيد دي رينال جالس على المقعد المقابل للأريكة ،  
والذي كان جوليان جالسا عليه منذ لحظة قصيرة

إن الصداع يتخذ عذرا لكل شيء ، وجلس الزوج يقص عليها في  
اطناب تفاصيل لعبة البولة ، التي درت عليه ربما قدره تسعة عشر فرنكا ،  
فأت مدام دي دي رينال قبعة جوليان على مقعد يبعد عنهما ثلاث  
خطوات . فازداد ثباتها ، وأخذت تخلع ملابسها ، ثم مرت بسرعة من  
خلف زوجها وألقت بثوبها على المقعد فأخفت القبعة .  
وأخيرا غادر السيد دي رينال الغرفة ، ورجت جوليان أن يبدأ من  
جديد قصة حياته في المدرسة قائلة له : لم أكن مصغية إليك بالأمس ،  
وكنت أفكر وأنت تتحدث كيف أتغلب على نفسي لأدعك تغادرنى .  
لم تكن مبالية بشيء فقد كانا يتحدثان بصوت مرتفع ، وفي الساعة  
الثانية صباحا دق باب الغرفة في عنف شديد . وكان الطارق مرة أخرى  
هو السيد دي رينال .

— افتحي بسرعة ، إن بالمنزل لصوصا ! فقد وجدنا حبان سلمهم  
هذا الصباح .

فارتمت بين أحضان جوليان وقالت له :

— هذه هي الخاتمة . إنه سيقتلنا معا ، فهو لا يؤمن بوجود لصوص  
في المنزل . سأموت بين ذراعيك ، فألقى في موتى سعادة لم أنلها في حياتي ،  
ولم تحب زوجها الذي أخذ منه الغضب كل مأخذ ، وانتهت على جوليان  
تقبيلها في حرارة وثورة . فنظر إليها نظرات أمرة وقال لها :

— أنقذي أم ستانيلاس . وسأقفز إلى الفناء من نافذة دورة المياه  
وأفر من الحديقة فإن الكلاب عرفتني . ألقى ثيابي واجعلها حزمة ، وألق



إلى بها في الحال . ولا تفتحي الباب قبل أن تفعل كل ذلك ، بل اتركيه يكسره . حذار أن تعترقي بشيء إطلاقاً ! إني أحرم عليك ذلك ، فخير عندي أن يكون شاكا من أن تصبح ظنونه صدقاً و يقيناً .

— ستقتل نفسك إذا قفزت ! كانت هذه العبارة هي كل ما أبدته من إجابة وقلق .

وذهبت معه إلى النافذة ، ثم أخذت ملابسه على مهل ، وفتحت الباب لزوجها أخيراً وهو يكاد يتميز من شدة الغيظ . وأخذ ينظر في الغرفة وفي دورة المياه دون أن يقول شيئاً ثم انصرف . وألقت هي ملابس جوليان إليه ، فأخذها وجرى في سرعة إلى داخل الحديقة في الجهة المطلّة على نهر الدو . وبينما هو يجرى سمع رصاصة تمزقياً منه ثم طلقة من بندقية . فقال في نفسه : ليس هذا بالسيد دي رينال ، فهو لا يحسن الرماية . وكانت الكلاب تجرى إلى جانبه في سكون . ثم أطلقت رصاصة أخرى فأصابت كلباً في رجله ، فصاح صيحات موجهة . قفز جوليان من أحد جدران الحديقة . ثم سار خمسين خطوة وغير اتجاهه مولياً الأدبار . وسمع أصواتاً تنادى ، ورأى بوضوح الخادم الذي كان عدوّه من قبل يطلق النار من بندقية . وكان فلاح يطلق النار من الناحية الأخرى من الحديقة ؛ ولكن جوليان كان قد وصل إلى شاطئ نهر الدو حيث ارتدى ثيابه . وبعد ذلك بساعة ، كان على بعد فرسخ من ثريير سائراً في طريق جنيف ؛ لأنه قال في نفسه : إذا كانت شكوكهم متجهة إلى فلهم سيبحثون عنه . علم ، طر بوق ، ناريس .

## فهرس

صفحة

١	... ..	ستندال	مقدمة
١	... ..	— مدينة صغيرة	الفصل الأول
٦	... ..	— عمدة	الفصل الثاني
١١	... ..	— أموال الفقراء	» الثالث
١٩	... ..	— أب وابن	» الرابع
٢٥	... ..	— مفاوضات	» الخامس
٣٧	... ..	— السأم	» السادس
٤٩	... ..	— التقارب المعيشى	» السابع
٦٥	... ..	— حوادث صغيرة	» الثامن
٧٧	... ..	— سهرة فى الريف	» التاسع
٨٩	... ..	— قلب كبير ومال قليل	» العاشر
٩٤	... ..	— سهرة	» الحادى عشر
١٠١	... ..	— رحلة	» الثانى عشر
١١١	... ..	— الجوارب الأنيقة	» الثالث عشر
١١٨	... ..	— المقص الإنگليزى	» الرابع عشر
١٢٣	... ..	— صياح الديك	» الخامس عشر
١٢٨	... ..	— فى اليوم التالى	» السادس عشر

صفحة

- » السابع عشر — النائب الأول ... .. ١٣٥
- الفصل الثامن عشر — ملك في فريير ... .. ١٤٢
- » التاسع عشر — التفكير وسيلة الآلام ... .. ١٦٢
- » العشرون — الخطابات المجهولة ... .. ١٧٥
- » الحادى والعشرون — حوار مع سيد ... .. ١٨١
- » الثانى والعشرون — ضروب من التصرفات فى عام ١٩٣٠ ٢٠١
- » الثالث والعشرون — أحزان موظف ... .. ٢٢٠
- » الرابع والعشرون — غاصمة ... .. ٢٤٢
- » الخامس والعشرون — المدرسة الإكليريكية ... .. ٢٥٣
- » السادس والعشرون — العالم أو ما يفتقر إليه الغنى ... .. ٢٦٤
- » السابع والعشرون — التجربة الأولى فى الحياة ... .. ٢٧٩
- » الثامن والعشرون — موكب دينى ... .. ٢٨٤
- » التاسع والعشرون — أول نجاح ... .. ٢٩٥
- » الثلاثون — طموح ... .. ٣١٧

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



"الأحمر والأسود" رائعة الكاتب الفرنسي الشهير ستندال، التي اقتبس مؤلفها فكرتها من حادثة مأساوية واقعية وأضاف إليها ما رآه لازماً لشخص الرواية. وهي رواية تاريخية تكشف عن خفايا ثورة سنة 1830 في باريس، مع دراسة المجتمع الفرنسي آنذاك وما به من تعارض واضح بين طبقة النبلاء والبرجوازيين والطبقة الدنيا، وبين أنصار المذاهب الدينية المتشددة وغيرهم، كما يعرض ستندال لأفكاره ومشاعره وحيله التي تتحكم في سلوكه وتردده بين "الأحمر" الجيش و"الأسود" رجال الدين، واستطاع أن يوفق بين رومانسيته القلقة وبين واقعيته الحازمة.